AL-HADAF
الهدف
كل الحقيقة للجماهير
فلسطينية عربية ديمقراطية بهوية يسارية

رئيس تحرير الهدف
د. وسام الفقعاوي:
"مقاومة الشّعب الفلسطيني وكفاحيته دليل حيوية كبيرة يختزنها في عمق بنيته الفتيّة".

النّكبة ٧٥

مقاومة تتعاظم وعدو يتأزم

الهدف - فلسطين - العدد ٥٠ (١٥٢٤) - حزيران / يونيو ٢٠٢٣

الهدف
AL-HADAF
قلعة الحارثي
أحمد جابر
موقفنا
في الذكرى السابعة والعشرين للنكبة:
ذكرى ١٥ أيار سنعود
MAY 15TH
WE WILL RETURN TO PALESTINE
في ذكرى الاغتصاب الصهيوني لفلسطين
نسف أحد قطارات العدو الصهيوني
بين تل ابيب والقدس
مارك رودين "جهاد منصور":
عاشق فلسطين
أحمد جابر:
فدائيُّ الهدف وشهيد التغريبة

الهدف AL-HADAF

كل الحقيقة للجماهير

فلسطينية عربية ديمقراطية بهوية يسارية

العدد رقم ٥٠ (١٥٢٤) حزيران / يونيو ٢٠٢٣

غلاف العدد

تصميم الأغلفة
جيفارا عبد القادر

المقالات المنشورة لا تتطابق مع وجهة نظر الهدف بالضرورة

في هذا العدد

الافتتاحيـــة: معركة الحرية : وليد دقة يتقدم الصفوف ٢

النكبة ٧٥ : مقاومة تتعاظم وعدو يتأزم (ملف)

مقابلة العدد مع رئيس تحرير « الهدف » د. وسام الفقعاوي..... حاوره أحمد زقوت ٣

نكبةٌ تلدُ أخرى.. ومقاومةٌ تلدُ أخرى.....أبو علي حسن ٦

نكبةُ العربِ في ذكراها الخامسة والسبعين..... .....أسامة العبد الرحيم ٨

النكبةُ المستمرّة.. الفلسطينيُّ مرآةُ زمنِ المنافي.....محمد صوان ٩

التوثيقُ والذاكرةُ الشفويّة من روافع إحياء ذكرى النكبة..... الهام الحكيم..... ١١

خمسة وسبعون سنة من عمرها .. الانقسام داخل «إسرائيل» إلى أين؟..... م. تيسير محيسن..... ١٣

النشاطُ الصهيونيُّ في مصر عشيّةَ النكبة.....أحمد بهاء الدين شعبان ١٥

بين ليلى والذئب والسينما.. على حافة النكبة.....وليد عبد الرحيم..... ١٨

في ذكرى النكبة الـ٧٥ .. الشعبُ الفلسطينيُّ في الاتّجاه الصحيح.....محمد أبو شريفة..... ٢٠

النكبة .. عندما تمّت رشوة التاريخ !..... أكرم عطا الله ٢٢

المقدمة الرسمية للتسوية والتطبيع..... د. عابد الزريعي..... ٢٤

٧٥ عاماً على النكبة.. فلسطين بشعبها ومقاومتها ستنتصر حتمًا ..... د. سمير دياب..... ٢٦

خطاب التسوية يندحرُ أمام نهج المقاومة واستراتيجيّتها في التحرير والعودة..... عليان عليان ٢٨

في ذكرى النكبة: عودةٌ إلى الثوابت الكبرى..... معاد الجحري..... ٣٠

مبدأُ حقّ تقرير المصير والقانون الدولي ..... د. عبد الحسين شعبان ٣٢

متى ينتصرُ العربُ على نكبتهم؟..... رضى الموسوي..... ٣٧

مارك رودين (جهاد منصور) : عاشق فلسطين (ملف)

مارك رودين.. أيقونةُ الملصق الفلسطيني..... عماد عبد الوهاب..... ٣٩

ذاتَ يوم في نهايةِ أيّار..... ماريا يونس..... ٤١

رسام الفلسطينيين.. لم يكن منهم... كان معهم! سلامًا جهاد منصور..... يوسف الناصر..... ٤٢

ما زالت الكلمةُ الأخيرةُ لم يُنطق بها بعد..... جبريل عوض..... ٤٤

النصرُ النهائيُّ هو انتصارك..... هايكة قيبر..... ٤٦

تحيّةً لجهاد منصور..... لميس..... ٤٦

إلى جهاد..... أبو مانو ٤٦

رحل مارك رودين .. فنان الملصق الذهبي الفلسطيني..... قاسم حول..... ٤٧

أحمد جابر: فدائي الهدف وشهيد التغريبة (ملف)

أحمد جابر.. المثقّفُ المدميُّ بالجراح..... موسى جرادات..... ٤٨

كيف لي ألا أكونَ على قدر الوصيّة؟..... أحمد أبو زلطة ٤٩

أحمد .. وريثُ الحكايةِ وشهيدُ التغريبة..... م. حسام عطاالله..... ٥٠

قصيدة.. أحمد مصطفى جابر إلى نايفة، سلمى، ناصر وعيسى..... إدريس علوش..... ٥١

أحمد مصطفى جابر.. الكاتبُ الغاضبُ الذي لم يهدأ..... أيوب الشنباري ٥٢

شـــؤون ثقافـــية

الافتتاحية: المفكر حسين أبو النمل .. حضورُ العقل لا تغييبُه ٥٤

ملحمة جلجامش وأساطير الأولين!..... تغريد بو مرعي..... ٥٥

قتلُ الموت..... ثائر أبو عايش..... ٥٧

جبهةٌ ثقافيّةٌ موحّدةٌ مقاومةٌ للتشرذم السياسيّ وللعدوّ..... أنور الخطيب..... ٥٨

التقويلُ النقديُّ الحجاجيّ..... علاء حمد..... ٦٠

الأدبُ العبري والانحرافُ عن مسار المشروع الصهيونيّ..... د. نهلة راحيل..... ٦٢

فـــي الـهـــدف: غزّةُ حاضرةٌ... ولكن المسؤوليّة تقع على الكلّ..... طلال عوكل..... ٦٤

أسسها الأديب الشهيد
غسان كنفاني
عام ١٩٦٩

المشرف العام
كايد الغول

رئيس التحرير
د . وسام الفقعاوي

مدير التحرير
سامي يوسف

تحرير وتنفيذ
نضال أبو مايلة

المدقق اللغوي
أيوب جمال الشنباري

يسمح بالنقل وإعادة النشر بشرط الإشارة إلى المصدر

عناوين مجلة وبوابة الهدف
غزة - بجوار مستشفى الشفاء
نهاية شارع الثورة

٠٨ - ٢٨٢٦٤٧٢

info@hadfnews.ps

تصدر عن :
دائرة الإعلام المركزي في
الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين

الافتتاحية
رئيس التحرير

معركةُ الحريّة :
وليد دقة يتقدّم الصفوف

كتب الأسير المفكّر وليد دقة في مسرحيّته «الزمن الموازي»، يقول: «ليس هناك أشدّ وأقسى من أن يعيش الإنسان إحساسًا بالقهر والعذاب دون أن يكون قادرًا على وصفه وتحديد سببه ومصدره، إنّه الشعورُ بالعجز وفقدان الكرامة الإنسانيّة عندما يجتمع اللا يقين بالقهر، فيبدو لك أنّه ليس العالم وحده قد تخلى عنك، وإنّما لغتك قد خانتْك من أن تصف عذابك وأن تعرفه، أو حتى أن تقول آخ.. آخ مفهومة ومدركة من قبل الآخر الحرّ».

الآخرُ الحرّ الذي عناه وليد، هو ذاك الإنسان الذي لم تُكبّل الأصفاد يديه بعد، ولم يُقفل في وجهه باب زنزانة، ولم يعدو رقمًا في كشوف السجانين؛ أي لم يصبح جزءًا من الزمن الموازي، الذي عليه أن يدرك معنى أن يعيش الإنسان هذا الزمن مقابل صخب الحياة اليوميّة خارج أسوار السجن، حتى ولو كانت مُقيّدةً بجدران الجنود وحواجزهم وخوذاتهم ورصاصهم؛ فيكفي أن تسير على تراب الوطن بقدمين حافيتين، مقابل ما يزيد عن ٣٨ سنةً لم تطأ قدما «وليد» سوى أرضية الباطون؛ حينها تدرك أن السجن هو أسوأ اختراع وأحقره، صنعه الإنسان لمعاقبة إنسانٍ مثله... لكن هل العدو في هذه الحالة إنسانٌ ويحمل قيمًا إنسانيّة؟

في الزمن الموازي... بين غرفة الأسرى وزنزانة العزل الانفرادي والمعبار والبوسطة ومستشفى الرملة، أو مقبرة الأسرى الأحياء بأدق توصيفٍ لها؛ تسقط ليس الإنسانية المدعاة عن الدولة الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط وحسب، بل يسقطُ معها كل ما يتشدّق به ما يسمى «العالم الحر» من شعارات «إنسانيّة»، كما تسقط كل مسمّيات الحقوق والاتفاقيّات الدوليّة والإنسانيّة التي تكفل للإنسان كرامته وحياته، تمامًا حين تدخل مجتمع الأسرى المرضى في الرملة، أولئك الذين يعلمون أن «مستشفى الرملة»؛ المسمى الذي وضعه العدو الصهيوني، ليختبئ خلفه ويلوّح بديموقراطيّته وعدالته المزعومة، لا يحمل شيئًا من اسمه. فوحدهم الأسرى من يعطون الأسماء حقيقتها وحقوقها، وهم من أطلقوا على مستشفى الرملة، لقب مقبرة الأحياء؛ فالأسرى القابعين هناك كافةً يعانون أوضاعًا أقل ما يمكن وصفها بأنها مزريةٌ وقاسية، وفي مكانٍ يطلق عليه اسم «مستشفى» من البديهي أن يتوارد إلى ذهن المُتلقي أنه مكانٌ لتقديم العلاج والعناية بنزلائه، لكن الحقيقة هي أنه لا وجود لأطباء متخصصين ولا علاج للأمراض البسيطة؛ كي يكون علاجٌ لأمراض خطيرة ومزمنة، بل هو مكانٌ لاستمرار ممارسة الإهمال الطبي؛ نهجًا ثابتًا وعقابًا للأسرى كافةً، دون مراعاةٍ لأيّ حقٍ إنسانيٍ أو دولي.

من الواضح أن وليد دقة في زمنه الموازي؛ في السجن أو المستشفى لا فرق، يتعرض لعملية قتلٍ بطيءٍ أو اغتيالٍ ممنهج ببطء، قرّره له سجّانه/عدوّه عقابًا إضافيًا على أنه قرر أن يحرر نفسه من زمنه، عندما أسرد لنا حكايته في مواجهة: «صهر الوعي»، وفي اكتشاف: «سر الزيت»، وفي المشي نحو: «سر السيف»، وفي التقدم الدائم للصفوف وهو يكتب عن: «يوميات المقاومة في جنين»، ويستمرّ في التقدّم قتالًا للعدو من على سرير مقبرة الأسرى الأحياء في «مستشفى الرملة»... فمعركة الأسرى مع عدوّهم لا تنتهي حدودها هنا، فهي تستمر وهم شهداء أرقام في غرف سجان الزمن الموازي، فبهذا أخبرتنا حكايات ومآثر: ناصر أبو حميد وخضر عدنان ومحمد تركمان وأسماء كثيرة محفورة في ذاكرة شعبٍ يتوق إلى حريته وحريتهم.

معركة وليد دقة من أجل الحرية، ليست معركته وحده، بل هي معركة كلّ إنسانٍ وطنيٍ حرّ، يعدّ أن نضاله هو امتدادٌ لنضال من تقدّموا الصفوف من أجل حرّيتنا؛ أفرادًا وشعبًا.

رئيس تحرير « الهدف » الدكتور وسام الفقعاوي:

مقاومــة الشعـب الفلسـطيني وكفاحيّته دليل حيويــة كبيرة يختزنها في عمق بنيته الفتيَّة

كانت رسـومـات/ لوحــات «جـهـاد منــصور» جزءًا مـن معركــة الشـعـب الفلسطيني من أجل الحريّة أحمد جابــر أراد لنا أن نكون أمـام معرفــةٍ شاملةٍ ومتكاملةٍ للوحــة الصــراع والعدو الذي نجابـهــه

حاوره: أحمد زقوت

النكـبة والعـمـل المقـاوم وأزمــة العـدو وآفـاق المسألـة الفلسطـينـية :

* بعد ٧٥ عامًا من النكبة، نرى العمل المقاوم والاشتباك مع العدو الصهيوني في تصاعد، ما مدى انعكاس ذلك على المشهد الفلسطيني؟

** بمختلف القراءات والمعايير؛ كانت «النكبة» عام ١٩٤٨، وما خلقته وجسّدته من وقائعَ تاريخيّة؛ كسرًا حادًّا للوجود وللمسارين؛ المادي والسياسي الفلسطينيين، منذ بدايات الصراع مع العدوّ الصهيوني، حيث كان أحد أهداف عملية التطهير العرقي، بالقتل والمجازر والتهجير القسري، عدم إتاحة فرصة التعافي السريع للبنية المجتمعيّة للشعب الفلسطيني، وجعله أسيرًا لواقع اللجوء المتعدّد، ودون أيّة مبالغة؛ راهن كثيرون إلى جانب العدوّ على حجم التحديات والمخاطر التي تهدّدت بنية الشعب الفلسطيني ووحدته وفعاليته، من خلال تحفيز عوامل الاستئصال والإلغاء والاستلاب وتبديد الوجود وإلغاء الهوية وتفتيتها وإلحاقها بهم، التي كانت لها ترجماتها الماديّة والنفسيّة، على الشعب الفلسطيني الموزّع على سبعة تجمعات رئيسيّة أو يزيد؛ تنفصل عن بعضها البعض بعوائق مُختلفة؛ قسرية وموضوعية في آن.

لكن في الوقت ذاته، لا يمكن لأي قارئ حصيف أو ممعن في تاريخ الشعب الفلسطيني أو حتى مُطّلع عليه، إلَّا ويدركَ أن نضالهُ لم ينقطع لحظةً واحدةً - بكل ما تعنيه الكلمة - عن مواجهة الغزوة الصهيونية، منذ أن وُضعَت مداميك أول مستوطنة زراعيّة صهيونيّة (بتاح تكفا) على أرض وطنه عام ١٨٨٢، وقاومها الفلاحون الفلسطينيّون، دون انتظار أن يكتمل شكلًا تنظيميًا ما، ينضمّون في إطاره كي يقاوموا الغزوة، وهذا هو الحال عندما قامت الانتفاضات والهبات والثورات في أعوام ١٩٢٠ و ١٩٢٩ و ١٩٣٥ و ١٩٣٦ — ١٩٣٩ وما قبلها وما بينها، حتى بالتشكيلات العصابيّة الثوريّة التي برزت مع ظاهرة الشيخ المجاهد عز الدين القسام، مرورًا بالثورة الفلسطينيّة الكبرى التي استمرّت لثلاث سنوات. ورغم الهزيمة التي لحقت بالثورة والشعب الفلسطيني إجمالًا وما ترتّب على ذلك وصولًا إلى الهزيمة/النكبة عام ١٩٤٨، إلا أن كل السياق الثوري الذي سبقها، على ضعف بناه واستراتيجياته ووضوح أهدافه وتماسك قياداته وثقته بها؛ عبّر بكلّ ما تعنيه الكلمة أيضًا، عن الروح الكفاحية التي تختزن داخل عقل الشعب الفلسطيني ووجدانه وضميره، وانطلاقًا من وعي أصيل لطبيعة المشروع الصهيوني وأهدافه التصفويّة، لم يكن أمام الشعبً الفلسطيني من خيار، إلا أن يستمرّ في اجتراح وسائل مقاومته وإدامة ثورته التي وجدت ملاذًا لها في صعود المد القومي وتشكيلاته من حزب البعث مرورًا بحركة القوميين العرب والناصرية التي مثّلت أقصى صعود للحالة القوميّة الشعبيّة، قبل هزيمة/نكسة عام ١٩٦٧، ثمّ صعود الحركة الوطنيّة الفلسطينيّة بتنظيماتها التي تمثّلت تجربتها في منظمة التحرير الفلسطينيّة وشكّلت مظلّةً وكيانًا معنويًا وقانونيًا للشعب الفلسطيني، وعبّر من خلالها عن أهدافه وتطلّعاته وحقّه في التحرير والعودة وتقرير المصير، وانضوى معظم أبناء الشعب الفلسطيني وقاتلوا تحت رايتها. وعلى الرغم من كل محاولات التدجين والتزييف وكي الوعي الذي ترافق مع مشروع التسوية وتطبيقاته التي شكّل جسرها فلسطينيًا «اتفاق أوسلو» بعد أن وضعت قواعده عربيًا باتفاقيّة «كامب ديفيد»، إلا أن الضمير الجمعي الفلسطيني وذاكرته الحيّة بقيت تحتفظ وتختزن في داخلها بتجربة ممتدة لما يزيد عن قرن من الزمان في المواجهة والاشتباك، بكل ما في هذا التاريخ الكفاحي الثوري؛ من صعودٍ وانكسار ووصل وانقطاع، حيث يعطي في كل مرة ما هو أنصع وأكثر وضوحاً ثوريًا من كل التجارب المريرة والهزائم العسكرية والسياسية المتكررة، وهذا ما تعبر عنه مقاومة الشعب الفلسطيني اليوم في قطاع غزة، وتشكيلاتها المتعددة في الضفة الغربية: كتيبة جنين وبلاطة وأريحا وعرين الأسود وغيرها.

وهنا يمكن رؤية الحالة الكفاحية الشعبية المستمرة دون انقطاع من زاويتين الأولى؛ أنّها تأتي في سياق الردّ الطبيعي «الغريزي» على التهديد الوجودي الذي يتعرّض له الشعب الفلسطيني، ومن زاوية أخرى تأتي تعبيرًا عن عمق أزمة الحركة الوطنيّة الفلسطينيّة، التي لم تستطع التعلّم بعد من تجربتها المديدة، ووضع مقدّمات تجاوز أزمتها على الأقل، حيث يمكن القول دون حذر: إن مقاومة الشعب الفلسطيني وكفاحيّته دليل حيوية كبيرة يختزنها في عمق بنيته الفتيّة، مقابل عجز أحزابه التاريخية عن الاضطلاع وطنيًا بمهمتها المطلوبة ووظيفتها التي وقفت خلف نشأتها، وأي مهمة ووظيفة أكبر وأهم من إعادة تأسيس المشروع الوطني الفلسطيني التحرّريً؟

* الاحتلال منقسم داخليًا بشكل غير مسبوقٍ بعد ٧٥ عامًا من احتلاله لفلسطين، كيف يمكننا استغلالّ ذلك؟

** يعيش كيان الاحتلال حالةً من الانقسام غير المسبوقة التي تبدو في ظاهرها انقسامًا سياسيًّا بين مكوناته وأحزابه على قرارات حكومة نتنياهو — بن غفير — سموترتيش، وإجراءاتها، وخاصةً ما يتعلق منها «بالإصلاح القضائي»، لكن في حقيقتها تعبيرٌ عن انقسام مجتمعيّ عميق بمساره التاريخي، الذي يعود لتأسيس «إسرائيل» نفسها، التي استجلبت اليهود الصهاينة من أغلب دول العالم، بخلفيات فكرية وثقافية واجتماعية واقتصادية مختلفة، وإن كانت قوة الصهر التي مارستها «الدوّلة» استطاعت تموية الفروقات الكبيرة هذه، إلا أنها كانت تزداد بفعل الفارق الزمني وتشظي الحالة الحزبيّة والسياسيّة الداخليّة وشخصنتها؛ الأمر الذي دفع الرئيس الإسرائيلي رؤوفين ريفلين عام ٢٠١٥؛ لتناول هذه الفروقات/التحولات عندما قال بوجود قبائل أربع في «المجتمع» الإسرائيلي: القبيلة العلمانية، والقبيلة العربية،

والقبيلة الحريدية- المتدينون الحريديم، وقبيلة الصهيونية الدينية أو الصهيونية القومية. ووصل الأمر ببعض الساسة الصهاينة وفي مقدمتهم أيهود باراك وحتى نتنياهو نفسه، بالحديث عن «عقدة إسرائيل الثمانين»، هذا يعني أن الأزمة السياسية الناتجة عما يسمى «الإصلاح القضائي»، ما هي إلا عرضٌ لانقسام مجتمعي، طال التشكيك في طبيعة الدولة ذاتها وبنيتها وهويتها ومستقبلها.

لكن وأنا أقول بذلك، لا يمكن لي أن أتجاوز مفاعيل القوّة الإسرائيليّة؛ الاقتصادية والعسكرية والتكنولوجية وغيرها، وقدرة نظامها السياسي على إعادة إنتاج نفسه في إطار المشروع الصهيوني والانضباط لرؤيته الاستعماريّة — التوسعيّة. وعليه، فإنّ الاستثمار في الانقسام الداخلي الصهيوني، هو في استمرار تضخيم تكاليف هذا المشروع، من خلال تعظيم خسائره المادية والبشرية، وهذا لن يكون دون رؤية واستراتيجية ثورية شاملة، يضطلع بها الشعبُ الفلسطينيُ وقواه المناضلة، بانسجامها وتناغمها مع رؤية واستراتيجية ثورية عربية أشمل؛ تعمل على إلحاق الهزيمة التاريخيةً بالمشروع الصهيوني الغربي الإمبريالي؛ كون النضال ضد الوجود الصهيوني في فلسطين جزءًا لا يتجزأ من النضال ضد نظام الهيمنة والإلحاق الأمريكي الغربي الإمبريالي.

*** برأيك، ما أسباب منع قيام دولة فلسطين وإنهاء ٧٥ عامًا من النكبة والشتات؟**

** السؤال بهذه الصيغة يفتح على سؤال آخر: أي دولة المقصودة تلك؟ هل الدولة التي أقرّها قرار التقسيم ١٨١؟ أم الدولة التي توخّاها البعض من خلال مشروع التسوية على أقل من ٢٢ من مساحة فلسطين التاريخية؟ وقد يصل الأمر إلى التعاطي مع الأطروحات التي حاولت الالتفاف على طبيعة الصراع التاريخي التناحري مع المشروع الصهيوني، من خلال الحديث عن دولةٍ واحدةٍ مع المستوطنين.

لقد تعرّض الفكر السياسي الفلسطيني إلى انقسام حادّ منذ منتصف سبعينيات القرن العشرين، عندما طُرح مشروع النقاط العشر، الذي بإقراره نقل الحديث عن التسوية من المستوى النظري إلى المستوى العملي، الذي تناغم تمامًا مع فكرة الاستدوال الذي بات يداعب خيال القيادة الرسمية الفلسطينية، وجعلها طيّعة في تعاطيها مع مشروع التسوية من البوابة الأمريكيّة؛ متوهّمةً إمكانية أن ينتهي هذا المسار التسووي بإقامة دولة فلسطينية في قطاع غزة والضفة الغربية؛ تنهي عقودًا من المأساة الفلسطينية، لكن ما حصل العكس تمامًا، حيث أضيف للمأساة الفلسطينية، فصولًا جديدة، من التطهير العرقي والاستيطان والتوسّع والفصل العنصري والتهويد والأسرلة... مترافقًا ذلك مع انقسام الحالة الفلسطينية وتشظّيها، وضعف بنيتها وقيادتها وتعدّد أهدافها.

أُجزم بأنّنا بتنا بحاجةٍ لاستعادة فكرة الوطن الذي لا يمكن أن تُبنى عليه الدولة إلا باسترداد كامل الأرض من الغاصب الصهيوني. وإقامة الدولة لن تكون من خلال قرارات دولية، ما كان لها أن ترى النور إلا من باب مساهمتها في إرساء دائم لدولة العدو، أو من خلال سياسة الاستجداء من الدول العظمى أو بالاستناد إلى منظومة رسمية عربية متهالكة؛ فمشروع الدولة هو مسألةٌ نضالٌ لا يتوقّف على طريق تفكيك الوجود الصهيوني عن أرض فلسطين وإنهائه للأبد.

*** ما الدور الواجب القيام به حتى طرد الاحتلال عن أرضنا الفلسطينية؟**

** ليس من طريق أمامنا لذلك سوى استمرار طريق النضال والكفاح الوطني، الذي سيدفع شعبنا من خلاله المزيد من التضحيات الكبيرة والعظيمة، وأعتقد أن شعبنا باستمرار كان جاهزًا لذلك وقادرًا عليه — كما ثبت في كل مرحلة نضالية — لكن وبكل صراحة، لم يكن المستوى أو الشرط القيادي، الذي يتجاوز الأشخاص إلى البُنى والهياكل والسياسات والأهداف قادرًا على أن يكون بمستوى الحالة الشعبية التضحوية، لذلك كانت الفجوة حاضرةً باستمرار.

وهذا الأمرُ بدوره يعيد طرح ضرورة الاضطلاع وطنيًا باستراتيجيّة شاملة مُوحّدة وموحّدة، وإعادة البناء الذاتي المجتمعي الفلسطيني من بوابة إعادة بناء مؤسّساته الوطنيّة الجامعة على أسس وطنيّة تحرّريّة واجتماعيّة ديمقراطية، تعيد الاعتبار لمشروع تحرير فلسطين كاملة، وتنمية قدرات المجتمع الفلسطيني العلمية والتعليمية والتكنولوجية والاستثمار الأمثل في طاقات الشعب الفلسطيني وكفاءاته، واستمرار الصمود المقاوم على الأرض وتطوير القوّة الرادعة الفلسطينيّة التي تؤهلنا مستقبلًا لتحقيق النصر التاريخيّ على العدو الصهيوني، وتحقيق أهداف شعبنا في الحريّة والعودة والاستقلال.

مـارك ردويـن «جهاد منصور» والفـن مـن أجل فلسطـين:

*** مارك رودين «جهاد منصور» كان لديه قناعاتٌ سياسيّةٌ مناهضةٌ للاحتلال، وترجم ذلك من خلال ريشته التشكيليّة؛ فأكثر من ٢٠٠ لوحة فنيّة عبّرت عن واقع الشعب الفلسطيني، مثلَ النكبة واللجوء والمقاومة والأسرى والشهيد... الخ، كيف عكس فنّه البصري على حركة التضامن مع الفلسطينيين في العالم؟**

** لم يكن التحاقُ مارك رودين المشهور بجهاد منصور، بصفوف الثورة الفلسطينيّة من خلال الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين إلا تعبيرًا عن انحيازه الكامل لقضيّة الشعب الفلسطيني في الحريّة والعودة والاستقلال، وهذا الانحيازُ لم يكن انحيازًا عفويًا أو رومانسيّةً ثوريّة، بل كان عن قناعة كاملة جعلته ينهصر تمامًا مع حياة الفلسطينيين في مخيّمات اللجوء في لبنان وسوريا ومواقع الفدائيين، وهذا ما جعله غير مكتفٍ بريشته التي عبّرت عن معاناة الشعب الفلسطيني وآماله وحقوقه وثورته، من خلال عشرات اللوحات الفنيّة المميّزة، بل حمل البندقيّة إلى جانبها وقاتل بفدائيّةٍ عاليةٍ في محاور عدّة أثناءَ اجتياح القوّات الصهيونيّة لبيروت عام ١٩٨٢، وأشيع بين رفاقه أنّه استشهد ومجموعته، لكنّه نجا بأعجوبةٍ من موت محقّق، قضى فيه كلّ أفراد مجموعته. وعليه، كانت رسومات/لوحات «جهاد منصور» جزءًا من معركة الشعب الفلسطيني من أجل الحريّة، التي انتشرت في أرجاء العالم كلّه تقريبًا، وأقيمت لها المعارض التي جابت الكثير من بلدانه، وشكلت خلفها حركة تضامن شعبيّة مع القضيّة الفلسطينيّة، خاصّةً وسط أحزاب اليسار وقواه، التي تعرّفت من خلال رسوماته إلى تفاصيل تتعلّق بالقضيّة الفلسطينيّة، كونها كانت تعبيرًا حيًا وصادقًا عن معاناة الشعب الفلسطيني وطموحه وحقوقه، وهذه كانت أحد أسباب ملاحقته من قبل حكومات العديد من الدول الأوربيّة التي اُعتقل لدى بعضها.

*** كما قلت، الفنان مارك اُعتقل أكثر من مرّة في بلدانٍ عدّة بسبب رسوماته، إلى أي مدى كانت هذه الرسومات تسهم في بناء الوعي الثوريّ لدى الجماهير؟**

** بشهادة من عايشوا «مارك» سواء في مخيّمات لبنان أو سوريا، لم يكن يُقْدِم على رسم أيّ من لوحاته تقريبًا إلا ويضع لها تصوّرًا حيًا مِنْ خلال تجوّاله في المخيّمات، وحين تختمر الفكرةُ كاملةً في رأسه يبدأ بالرسم، وبعضها رسمها في الهواء الطلق، وقد يتّضح الأمر أكثر إذا ما عرفنا أنّ أول ملصقٍ رسمه كان لكلاشنكوف مسنودًا على حائطٍ في إحدى غرف الفدائيين، ثُمّ تناولت رسوماته الكثير من الرموز الفلسطينيّة أو التي أصبحت تُعبّر عن واقع حال الفلسطينيين: المخيّم، الكوفيّة، القدس، الحجر، الشهيد، الأسير... وكل هذا كان بدوره تحفيزًا للوعي الثوري العام، خاصّةً أنّ هذه الملصقات كانت تنتشر بكثافة في شوارع المخيّمات وأزقتها، وكانت الجماهيرُ تستقرئ من خلالها الرسالةَ الثوريّةَ وموقفَها ودلالتَها، لهذا يَعدُّ البعض فنّ الملصق، الذي أسهم «مارك» بتطويره، كمتخصص في هذا المجال، ساهم بدورٍ كبيرٍ في حشد الجماهير حول الرموز والتعبيرات الثّوريّة التي ارتبطت بالقضيّة الفلسطينيّة، إلى جانب بناء وعيٍ ثوريٍّ عام، هو جزءٌ من الذاكرة الجماعيّة للشعب الفلسطيني التي بقيت تحاكي حاضرها بالحنين إلى تلك التجربة/المرحلة الثوريّة التي أعطت للقضيّة الفلسطينيّة حضورًا شعبيًا بارزًا محليًا وعالميًا.

*** بإمكاننا اعتبار «مارك» أحد قادة النضال العالمي ضدّ الاحتلال والصهيونيّة، والعديد من الحكومات كانت تلاحقه، فكيف استطاع أنّ يقنع الجماهير بأهميّة القضيّة الفلسطينيّة ومحاربة**

العدوّ الصهيوني؟

** من الجدير أن نعرف بأنّ مارك رودين، نما وعيه الشاب، وسط التحوّلات الثوريّة التي كانت تشهدها بعض البلدان التي خضعت للاستعمار الأمريكي - الغربي الإمبريالي، خاصّةً كوبا وفيتنام، وبينهما التحوّلات التي شهدتها أوروبا ذاتها، وخاصّةً الثورة الطلابيّة في فرنسا أواخر ستينيات القرن العشرين، فما كان من السويسري القادم إلى إيطاليا التي كان ينشط فيها اليسار الراديكالي، إلا أن يكون جزءًا من هذه التحوّلات التي جعلته ينتمي إلى القضيّة الفلسطينيّة، منذ تعرّفه إلى مجموعة من اليساريين الفلسطينيين الذين استطاعوا أنْ يمثّلوا قضيّتهم بحقّ، دفعت «مارك» لأنْ يعبّر عن انتمائه من خلال خوض غمار العمل الفدائي في بعض بلدان أوروبا، أي قبل التحاقه بمخيّمات الفدائيين في لبنان، حيث أسهم ومجموعة أخرى من اليساريين الأوربيين في تأمين الدعم المالي للثورة الفلسطينيّة. وعليه، فإنّ دعائم انتمائه للقضيّة الفلسطينيّة، كانت راسخة، وهذا ما جعل من فنّه كما سيرته، دافعًا لدى الكثير من المجموعات اليسارية وغيرها، إلى القيام بدور كبير في حشد الدعم والتضامن مع الشعب الفلسطيني وقضيّته، تجاوز الدعم اللفظي أو المعنوي أو المالي إلى الدعم الفعلي من خلال التحاق العديد من المناضلين الأوربيين وغيرهم من مختلف أرجاء العالم في صفوف الثورة الفلسطينيّة وقواعد فدائيّيها، وقاتلوا إلى جانب شعبنا عدوّهم التاريخي، وشكّلوا في الكثير من الأحيان مآثرَ بطوليّة، يجب أن نبقى نسردها للأجيال الفلسطينيّة، كونهم يمثّلون جزءًا مهمًا من الذاكرة الحيّة للشعب الفلسطيني، فهم بعض من كتبوا فصول هذه الذاكرة، تاريخًا وراهنًا.

*** كيف شكّلت رسومات «مارك» مدًّا ثوريًّا ضدّ الاستعمار والاستبداد على صعيد قضايا الجماهير في العالم؟**

** إذا جاز التعبير، فإنّ مارك رودين أو جهاد منصور، التحق بالثورة الفلسطينيّة، من بوّابة التحاقه بالثورة العالميّة ضدّ الاستعمار والاستبداد الأمريكي - الغربي أوّلًا، وهنا نجده يقفُ بفنّه مساندًا الثورات الشعبيّة المقاومة التي دعمت الشعب الفلسطيني؛ فرسم لوحات وملصقات تدعمُ ثورات كوبا والسلفادور والعديد من دولَ أمريكا اللاتينيّة، مؤكّدًا بها وحدةَ «الهدف والمسار والمصير»، بين هذه الشعوب التي تقاوم الاستعمار والإمبرياليّة والصهيونيّة، من أجل تحقيق حريّتها واستقلالها وامتلاكها لثرواتها ومقدّراتها.

أحمد جابر .. المثقف الثائر والقلم المُقاوم والقارئ لمشروع العدو:

*** بقيَ أحمد جابر متمسّكًا بقناعته الثوريّة بضرورة طرد الاحتلال الصهيوني من كلّ فلسطين، ويظهرُ ذلك من خلال كتاباته ومواقفه الوطنيّة؛ سخّر قلمه في مقاومة الاحتلال، كيف استطاع تشكيل الوعي وصناعة الثورة ضدّ العدو؟**

** بقيَ أحمد إلى آخر لحظة في حياته، ورحيله المفجع عنا، صافي الفكر والانتماء الوطني؛ إذ لم يتلوّث فكره كما انتمائه، بمرحلة التسوية وثقافتها وكُتّابها ومرتزقيها، بل شكّل نقيضًا لكلّ ذلك، بتمسّكه بالوطن/الحلم، الذي عاشه لاجئًا ومغتربًا بين الأردن وسوريا وليبيا ومصر وتركيا، عاش الحلم/الوطن بكامل تفاصيله، لذلك كان على معرفة دقيقة به، منذ أن شبّ وعي الفتي غاضبًا «كما وصفَ ذاته في إحدى مقالاته»، فنجده يعبّر عن الوطن في كتاباته ودراساته ومقالاته، كما تشكّل في وعيه، ليس كما حاولت تصويره أو اختزاله مرحلة التسوية؛ كان الوطن الذي بشر به وسعى إليه وكتب عنه، هو فلسطين الكاملة من بحرها إلى نهرها، من رفح جنوبًا إلى آخر نقطة شمالًا «الناقورة»، ولم يقف الأمر لديه عند هذا الحد «الكتابة بحبر القلم» لفلسطين، بل استعدّ للكتابة «بنزف الدم» أيضًا، من خلال مهمّات فدائيّة كُلّف بها على حدود فلسطين الشماليّة؛ فجمعَ بين خاصتي الكاتب والمقاتل/الفدائي، وهنا تكتسب المسألة بعدًا آخر، ألا وهي تعاظم الإحساس بالمسؤوليّة أمام القضيّة التي يذود عنها، وتغدو مسألة التماهي بين الوعي والممارسة مسألةً أساسيّة، ربطًا بالمهمّة الواجب تنفيذها، ونذر أحمد نفسه لها بكل وعي، لذلك ارتكز إلى وضوح ثوريّ تام في رؤيته للمسألة الفلسطينيّة؛ فنجدهُ في معظم ما كتب وأنتج، وهذا برأيي شكّل زادًا توعويًّا ثوريًّا، ولا أجازف لو قلت، إنّه يشكّلُ حلقةً من حلقات تعافي الحالة الفلسطينية راهنًا ومستقبلًا، وأوّلها يكمن في ضرورة إعادة إنتاج رؤية شاملة في صراعنا مع العدوّ الصهيوني، تعيدُ إنتاجَ فلسطين كما رآها أحمد ومن سبقه بأجيال من الفدائيين، وتضع الشعب الفلسطيني أمام ضرورة «تغيير دليل رحلته والتخلّص من السمسار»، كما كَتَبَ أحمد ذات مرة.

*** وصف بعض المفكّرون والكتّاب أحمد جابر عند رحيله بأنّه «فقيد الحقيقة والثقافة الوطنيّة» و«المثقّف الثائر»، برأيك لماذا؟**

** أجزم أنّ الكتابة الصادقة والحقيقيّة والمعبّرة عن واقع الحال، لا تُلقي بكلماتها جزافًا، بل هي تعبيرٌ صادقٌ عمّا أراد صاحبها أن يقوله أو يبوح به، أو يلقي الضوء عليه أو يُظهر بعدًا ما من خلالها... وعليه، فإنّ كل الكتابات التي تناولت أحمد ووصفته بعد رحيله، تندرج تحت هذا؛ فأحمد لم يكن يحتاج إلى من يجامله أو يدلّس له أو يكذب عليه بعد موته، لذلك جاءت الكتابات في جلّها تعبّر عن حقيقة أحمد جابر، الصبي والشاب والفدائي المثقّف بنهم الانصهار كليًّا بقضيّة شعبه، وكرّس كل كتاباته لها وعنها. وإذا ما دقّقنا جيّدًا في كتابة أحمد سنجدها في جلّها نقديّة، غير مجاملةٍ وغير تزيينيّةٍ للواقع كما التجربة، حتى وهو يمتلك امتياز الكتابة من الداخل، فالخلفيّةُ الوطنيّةُ والمستقبليّة لكتاباته جعلته منحازًا دائمًا للوطني حين يصطدم بالفئوي، وللمستقبل حين يتعارض والماضي. وهنا لا جدال في أن الانحياز للجانب الوطني والحقيقة والمستقبل، يعكس في أحد وجوهه وعيًا صادقًا وحساسيّةً عاليةً جدًّا تجاهَ مسؤوليّة الكاتب الباحث عن الحقّ والحقيقة، وليس الكاتب الممتهن، الذي يجيد الانتقال بين «دهاليز» اللغة والمواقف بسهولة، دون أي لسعة ضمير.

أستطيع القول من خلال معرفة قريبة من أحمد وعميقة لما كَتَبَ: إنّه استطاعَ امتلاك أدواته البحثيّةً باقتدار وكفاءةٍ عالية، وهذا جعله محكومًا لخلفيّته الوطنيّة قبلَ الحزبيّة، وللحقيقة وسعيًا لها، حتى وهو يكتب «غاضبًا»، لم يكن يفقد الحلقة المركزيّة التي أبقته إلى آخر لحظةٍ في حياته مثقّفًا وطنيًّا وثوريًّا بامتياز.

*** كيف أسهم أحمد في نقل مقولته «اعرف عدوّك» إلى ساحة النضال الوطني والجماهيري ضدّ العدوّ الصهيونيّ؟**

** اهتمّ أحمد مبكّرًا بدراسة العدوّ إلى أن أصبح متخصّصًا به، ومن ثَمّ مسؤولًا عن قسم العدو في «بوّابة الهدف». فمن خلال النقاشات الكثيرة المطوّلة بيني وبينه، إلى جانب ما كَتَبَ؛ أستطيع القول: إنّ وعيه تأسّس تجاه العدوّ الصهيوني، ليس فقط، بكونه تناقضًا رئيسيًّا، بل نقيضٌ لوجودنا وحقوقنا، فهذا العدوّ كما كان يقول أحمد: حاضرٌ في كلّ عدوانٍ وهزيمة، وفي كل فشل وأزمة لحقت بنا، وفي حسرة كل أم شهيد وأسير على فلذة كبدها، وفي كل معاناة مستمرّةً معنا منذ ما قبل عام ١٩٤٨ وبعدها، وهذا يتطلبُ منا - نحن الفلسطينيين قبل غيرنا - أن نكون أمام معرفةٍ شاملة ومتكاملة للوحة الصراع والعدو الذي نجابهه؛ معرفة واقعيّة علميّة، لذلك كتب أحمد الكثير الكثير عن هذا العدو: تركيبته الاجتماعيّة، خلفيّته الدينيّة والفكريّة والثقافيّة، بنيته السياسيّة، أذرعه العسكريّة وأجهزته الأمنيّة، واقعه الاقتصادي، تطوّره التكنولوجي، مؤسّساته البحثيّة... وغير ذلك، من الكتابات التي شكّلت وما تزال تشكّلُ ذخيرةً كبيرةً أمام كل أبناء شعبنا في قراءة عدوّنا ومعرفة تفاصيل دقيقة عنه وحوله، تشكّل في مجموعها - ما كتبه أحمد وغيره من الكُتّاب الذين قرأوا العدو من على ذات الأرضية الوطنية الصلبة التي وقف عليها أحمد — جسرًا للهوة السحيقة في ميزان القوّة بيننا وبين العدو، وهذه كانت أحد أهم أهداف فقيدنا الكبير أحمد، وهذا سرُّ اجتهاده الكبير في قراءة العدوّ ومعرفته، الذي يجب ألا يغيب أبدًا من قراءاتنا له، كونه - أي العدو — يمثّل حضورًا على مساحة كامل تاريخنا العربي والفلسطيني الحديث زمانًا ومكانًا.

نكبةٌ تلدُ أخرى.. ومقاومةٌ تلدُ أخرى

أبو علي حسـن
عضو اللجنة المركزيّة للجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين/ سورية

خمسةٌ وسبعون عامًا على النكبة الفلسطينيّة، تلك العبارةُ التي أطلقها المفكّر القوميّ الكبير قسطنطين زريق على أثر الكارثة التي حلّت بالشعب الفلسطيني، التي تجلّت في استلاب أرضه وتهجيره عنوةً وقسرًا، وتشريده في بقاع الأرض، وبقدر ما تشي هذه العبارةُ عن عمق المأساة في آنيّتها عا م ١٩٤٨، فإنّها في الواقع لا تعكس مفاعيل النكبة على مدار خمسة وسبعين عامًا من الكوارث والمآسي المتلاحقة التي كابدها الشعب الفلسطيني، فالنكبةُ - باعتبارها واقعةً طبيعيّةً أو سياسيّةً - هي حدثٌ عابرٌ في لحظةٍ زمنيّةٍ تاريخيّة، وينتهي مفعولها، بيد أنّ نكبة الشعب الفلسطيني اكتسبت صيرورةً تاريخيّةً وعلى مدار خمسة وسبعين عامًا؛ ما جعلها أعظم وأشد نكبّة سياسيّة متواصلة على مدار قرنٍ من الزمان، وعلى الرغم من أنّ اصطلاح «النكبة»أصبح اصطلاحًا مستخدمًا لدى عموم الشعب الفلسطيني والعربي للتعبير عن حجم المأساة، ويجري العمل على إحياء ذكرى النكبة لتأكيد حقّ الشعب الفلسطيني، إلّا أنّ هذا الاصطلاح لا يعبّر عن استمرار «النكبة»

فالنكبةُ لم تكن أو تختصر في زمنٍ تاريخيّ معلوم، إنّما هي عمليّةٌ مرافقةٌ للشعبِ الفلسطيني على أرضه من جهة، وعلى وجوده في أماكن اللجوء والشتات من جهةٍ أخرى...

وعدٌ وتطهيرٌ عرقيّ

لم تتوقّف مفاعيل النكبة عند حدود استلاب الأرض الفلسطينيّة وتشريد أهلها إلى مناطق الشتات، فالنكبةُ ابتدأت مع وعد بلفور، والهجرة اليهوديّة إلى فلسطين ولم تنته فصولًا مع ما يسمّى بصفقة القرن، إنّما توالت فصولها تباعًا عبر استراتيجيّة التطهير العرقي التي مارستها الحركة الصهيونيّة وأدواتها بعصابات «الأرغون، الهاجاناة، اشترين، بلماح، بيتار» التي أمعنت في قتل الشعب الفلسطيني وارتكاب المجازر بحقّه، وضمن خطّة وضعت اللمسات الأولى لها في اجتماع رسميّ بحضور الإرهابي «بن غوريون» والعديد منْ قادة الحركة الصهيونيّة في ١٠/٣/١٩٤٨، في تل أبيب وفق الوثائق التي عرضها «آلان بابيه» في كتابه التطهير العرقي، أي أنّ التطهير العرقي كان استكمالًا للنكبة، وذلك بإثارة الرعب والفزع وعمليّات القتل لإجبار الأهالي للهجرة من مدنهم وقراهم، والإقدام على هدم البيوت، وتدمير أكثر من (٥٣١) قريةً من قرى فلسطين، وإعادة اختلاق مسميات يهوديّة لهذه القرى، في محاولة لمحو تاريخها في سياق اختراع «شعب إسرائيل» كما يقول الكاتب «شلومو ساندي» وفي سياق عمليّة النكبة الممنهجة، فقد تمّ ارتكاب أكثر من (٧٥ مجزرة) حتّى عام ١٩٤٧، راح ضحيتها أكثر من خمسة آلاف شهيد، كان أبرزها (مجزرة الطنطورة...مجزرة دير ياسين...مجزرة حيفا...وبيت دارس...ومجزرة اللد...وتباعًا قلقيلية والسموع...وتاليًا مجازر في خانيونس وغزة وصبرا وشاتيلا)...إلخ...من المجازر التي استهدفت الشعب الفلسطيني في محاولة لإفقاده قوة الوجود...

لم ينته هذا الفصل من النكبة عند هذه الحدود، فقد واصل الكيان الصهيوني تعميق النكبة باحتلاله الضفة والقطاع، وارتكاب مزيد من المجازر، وتهجير مئات الآلاف من الشعب الفلسطيني مرّةً أخرى، وضم القدس عاصمةً للاحتلال، وإقامة مئات المستوطنات في الضفة، والقدس، وتوطين مليون مستوطن فيها في سياق عملية تهويد ممنهجة، وقد لجأ الكيان إلى إصدار «القانون القومي اليهودي» الذي يعطي الكيان الصفة العنصرية في بقائه على أرض فلسطين، والتخطيط المسبق لترحيل الشعب الفلسطيني في مناطق ٤٨ على قاعدة بقاء النقاء العرقي اليهودي...

هذه المعالم من التطهير العرقي، والسياسات العنصريّة، وعمليات القتل والاعتقال التي طالت أكثر من مليون فلسطيني منذ عام ١٩٦٧، تؤكّد أن النكبة هي عمليةٌ متواصلةٌ من قبل الكيان الصهيوني وليست واقعةً بذاتها...

وأي حديثٍ عن النكبة دون تجلّياتها في محاولات محو الشخصية الفلسطينية، وإذابة الهوية الوطنية في الشخصية العربية، وصهر خصائصها الوطنية والتاريخية مع الخاصية العربية، هو تفسيرٌ تنقصه المعرفة الدقيقة

للمؤامرة التاريخية لإزالة شعبٍ كان قائمًا ولا يزال، واختلاق شعبٍ آخر على أنقاضه...

فصلٌ عربيٌّ في نكبة الفلسطينيين

وإذا كان العدو الصهيوني قد أمعن بسياساته في قتل الشعب الفلسطيني وقمعه وحصاره، ومحاولات محو وجوده، وتهويد أرضه وآثاره التاريخيّة والدينيّة، فإنّ الفصل الآخر من النكبة جسّدته السياسات العربيّة قبيل وأثناء وبعد النكبة، حيث إنّ هذا الفصل لا يمكن تجاهله أو نسيانه تحت مبررات سياسية أو أيديولوجية / قومية / براغماتية، وهو فصلٌ من النكبة تجلّى في الإنكار لوجود الشعب الفلسطيني ما بعد النكبة، حيث عملت الأنظمة العربية على تذويب الهوية الفلسطينية للشعب الفلسطيني، ومنعه من ممارسة نشاطه السياسي والوطني بعد النكبة، ومنعه من اختيار ممثله الوطني وتأسيسه خلال عقدين من الزمن، ما بعد ٤٨، وفي هذا السياق تم اعتبار الشعب الفلسطيني ملحقًا لسياسات الأنظمة، عبر الإنكار لحقوقه الوطنيّة والمدنيّة والسياسيّة في أماكن وجوده في البلدان العربية، إلى حد حرمانه من الحقوق المدنية في أحد الدول العربية لأكثر من (٧٢ مهنة) ممنوع عليه أن يمارسها...!!

ولم تقتصر عملية الإنكار عند حدود الحرمان، إنما تعدّت إلى عمليات المطاردة للوجود الفلسطيني في بلدان اللجوء والشتات العربي، وتصعيب السفر عبر المطارات والحدود، كما لو أن الإنسان الفلسطيني تحوّل إلى «إرهابي عالمي» ما أجبره مرّةً أخرى على الرحيل والهجرة إلى بلدانٍ غير عربيّة للتخلّص من عذابات الأنظمة العربيّة، حيث تحوّلت النكبة إلى عمليّة مطاردة للإنسان الفلسطيني أينما حلّ ورحل، وتأخذ بعدًا وجوديًّا وشاملًا يطال الأرض والشعب والتاريخ والانتماء...

وحين هزمت الأنظمة العربية عام ١٩٦٧ واحتلت الضفة والقطاع وسيناء والجولان، تمرّد الشعب الفلسطيني على الهزيمة وعلى واقع الهزيمة وتداعياتها، أطلق ثورته الفلسطينية المعاصرة، التي أسهمت في إشعال ضوء الأمل من جديد، لدى الشعوب العربية المغلوبة على أمرها من أنظمتها العاجزة، ومنذ اللحظات الأولى لبزوغ العمل الفدائي، كانت الأنظمة تعد العدة لاحتوائه أو وقفه، ومطاردته، فكانت مجزرة أيلول عام ١٩٧٠، ومعارك الجنوب اللبناني مع السلطة الحاكمة، وحصار المخيمات الفلسطينية التي دكّت ودمّرت في أكثر من واقعة على مدار نصف قرن، وأقفلت البلدان العربية على الفلسطيني، ومثلت كامب ديفيد الفصل العربي الأهم في مسار النكبة السياسية، التي فتحت على فصولٍ عربية توالت لتعترف بالكيان الصهيوني على حساب الحق الفلسطيني، فكانت اتفاقية وادي عربة، واتفاق أسلو وما بعدها من تداعياتٍ عربيّةٍ تطبيعيّة...

مقاومــةٌ تلــدُ مقاومــة

وعلى الرغم من هول النكبة، وشموليّتها، واستمرارها، ومشاركة العديد من القوى المعادية في صناعتها، إلا أن الشعب الفلسطيني قد حقق استثنائيّةً في الصمود والمواجهة، ولم ييأس من هول ما عاناه على مدار سبعة عقود ونصف، فأطلق مشروعه الوطني السياسي، والتفّ حول ممثله الشرعي والوحيد (م.ت.ف) وأعلن أنّ المقاومة هي جسر العودة، ولم تتوقّف مسيرته من مرحلة إلى أخرى، ومن انتفاضة على أخرى، ومن جولة صراع إلى أخرى، كما تجلّى الصمود الفلسطيني في رفض الوجود للكيان الصهيوني على أرضه، واكتنز حلم العودة، وتمسّك بأرضه، وسطعت هويته الوطنية بتجلياتها السياسية والفكرية والوطنية والثقافية، وغدت هويةً عابرةً للإقليم والعالم...

وشكّل حضور الهُويّة الوطنية الفلسطينية على أرض الواقع، وبلدان اللجوء والشتات، حضورًا للوطن في الوعي والعقل الفلسطيني والعربي، وهنا جذر الاستعصاء الذي يواجهه الكيان الصهيوني، بعد أن منّى نفسه عبر روايته الوهمية، وعبر تصريحات قياداته التاريخية بأن لا وجود للشعب الفلسطيني، وعليه فإنّ مراهنته على الزمن قد فشلت حين أوهم نفسه بأن الكبار يموتون والصغار ينسون، وبرهنت الأحداث ومسار التاريخ الوطني أن الصغار تحوّلوا اليوم إلى قيادات تاريخيّة...

إنّ الكيان الصهيوني عبر قياداته التاريخية، وبعد انتصاراته في حروب (٤٨/٥٦/٦٧) وبعد الانكسار العربي في كامب ديفيد، ووادي عربة وأوسلو، تصوّر أنّه حقّق أحلامه في ترسيخ دولته، وطوى الملف الفلسطيني وأزاح عن كاهله العبء التاريخي المتمثل في الشعب الفلسطيني، لكن مرحلة الأوهام قد انتهت وكبارهم قد ماتوا وصغارهم اليوم يعيشون الوسواس القهري، ويواجهون لعنة العقد الثامن في قيام كيانهم...

وانتهى المنطق الإسرائيلي الذي تحدّث أنّ المسألة الفلسطينيّة، لم تعد هي الرقم الأهم والمقلق، ما دام العرب (الأنظمة العربية) قد انهارت أمام « واقعية الوجود الإسرائيلي» وأنّها الآن في حالة قَبول وتسوية وتطبيع مع «إسرائيل» وأن طي الملف الفلسطيني تحصيلٌ حاصل، بعد الانهيار العربي، هذا المنطق والوهم قد أنهته توالي جولات المعارك والصراع مع الكيان الصهيوني على مدار العقود العشرة الأخيرة، وكان آخرها معركة ثأر الأحرار وسيف القدس وانتفاضة الضفة في كل مدنها، ويعود رقم معادلة الصراع من جديد إلى موقعه الطبيعي، بأنّ الفلسطيني هو الأساس وهو القاطرة التي تفرض حضورها في الواقع العربي والعالمي...

إدارةُ الصراع ومعركةُ الوعي مع الكيان

إنّ الدرس الأهم من التجربة مع الكيان، هي ألا تعطيه فرصة «تنفس الصعداء» أو «الاستقرار والهدوء» وألا تعطيه أي أمل، أو تحقّق له اليقين بأنه باقٍ إلى الأبد...

وهنا قيمة أن تحدث خرقًا في بنية وعي المجاميع الصهيونيّة اليهوديّة والتوراتيّة، عبر ضرب يقينيّاتها السياسيّة والتوراتيّة، لتصل إلى ما وصل إليه الكثير من سياسييه ومفكريه وكتّابه من اهتزاز واضطراب ووسواس لا يتوقّف...

وحين يكتب (أبراهام بورغ) أحد أعمدة المؤسسة السياسية بالكيان في كتابه (لننتصر على هتلر) حول ما سمي بالمحرقة النازية (الهولوكوست) بأنها تحدد شكل السلوك السياسي ومضمونه للكيان، ليصل إلى الطلاق مع المنظومة السياسية الحاكمة، والنأي عما يسميه (صهيونية هرتزل) والتخلي عن (اليهودية الوراثية)، فإنه يعكس انكسارًا في وعيه، واهتزازًا في يقينياته الأولى، في محاولة للهروب إلى الأمام عبر الدعوة إلى (مشروع فكريّ جديد يستندُ إلى الإسرائيليّة المشتهاة النّظيفة...!!!)

وحين يكتب شلومو ساند في كتابه (اختراع أرض اسرائيل) ثم (اختراع الشعب الاسرائيلي) فهو يشكّك في الرواية التاريخيّة التوراتيّة والرواية الصهيونيّة، وأن كل تلك الرواية هي زيف وتضليل...

وحين يكتب (آري شبيط) بأن إسرائيل تلفظ أنفاسها الأخيرة...!! وأن لا طعم للعيش في هذه البلاد، ولا طعم للكتابة أو القراءة في هآرتس، فإنه يعبّر عن حالة إحباط عامة وليس اهتزازًا معنويًّا لفردٍ بعينه...

وحين يطرح رئيس وزراء «إسرائيل» السابق قاتل المناضلين (إيهود باراك) تخوّفه من قرب زوال «إسرائيل» قبل أن يتعدّى عمرها ثمانين عامًا، في مقاربة تاريخيّة بين العمر الزمني لدولة «إسرائيل» الموهومة في الرواية العبريّة التي لم يتعدّ عمرها (٨٠ عامًا) وبين واقع دولة الكيان الصهيوني الراهن، فإنّه في الواقع يشعر بالفزع من تفكك دولة الكيان قبل مرور ثمانين عامًا، وهنا يتجلّى الوسواس السياسي القهري الذي يرافق اليوم معظم الساسة الإسرائيليّون...

ولا تقف الأمور عند هذا الكاتب أو الوزير، فإنّ نتنياهو في إحدى جلساته المغلقة قال (إنّ مملكة الحشمونائيم نجت فقط ثمانون عامًا، وأنّه يعمل على ضمان أن «إسرائيل» سوف تنجح هذه المرة في الوصول إلى مئة عام) ثمة قدر عالٍ من القلق والهواجس التي تنتاب هذا الإرهابي المتغطرس، والشك بأن كيانه قد لا يصل إلى ما وصلت إليه دولة «إسرائيل» المزعومة في التأريخ العبري، وما غطرسته إلا انعكاسًا لهلع سياسيّ ونفسيّ وارتطام قناعاته السياسيّة والتوراتيّة بالواقع الفلسطينيّ ...

إنّ جزءًا من استراتيجية صراعنا مع الوجود الصهيوني، تكمن في قصف الوعي الإسرائيلي، لإحداث تحوّل في منظومة اليقينيات الفكريّة والدينيّة والسياسيّة لدى النخبة الإسرائيليّة والمجاميع اليهوديّة، كي تصل إلى الشكّ المطلق في استحالة بقاء الكيان، واستحالة هزيمة الإنسان الفلسطيني...

إنّ إحداث هذا التحوّل من غير الممكن تحقيقه إلا عبر المقاومة الشاملة، على كل أرض فلسطين، مقاومة فعّالة في سياق استراتيجيّة لا تعطي الكيان أي فرصة من تنفس الصعداء، وأي فرصة من استثمار الهدوء، وما سمي «بالهدن القصيرة أو الطويلة» التي بدأت مع اتفاقيات رودس عام ١٩٤٩، وتباعًا مع هبوط الأنظمة العربيّة في مقاومتها للكيان...

إنّ استدعاء «استراتيجيات التعويض» في مواجهة الكيان التي تنطوي على ابتداع أشكال نضاليّة مختلفة، تجعل من قوة الردع الإسرائيلي، آلةً متقادمةً ومتآكلة، وتفوّت عليه استخدام إمكانياته المتطوّرة وتكنولوجيا القوّة العسكريّة والسبرانيّة.

نكبةُ العربِ في ذكراها الخامسة والسبعين

أسامة العبدالرحيم
الأمينُ العام للحركة التقدميّة الكويتيّة/ الكويت

قبلَ أيّام حلّت الذكرى الخامسة والسبعينَ لأحد أكبر الجرائم التي عرفتها البشريّةُ في العصر الحديث، عندما قامت الحركة الصهيونيّة بتواطؤ كامل مع الانتداب البريطانيّ والإمبرياليّة العالميّةً باغتصاب أرض فلسطين العربيّة، وتشريد شعبها وحوّلتهم إلى لاجئين، أصبحوا الشاهد الحيّ على تلك الجريمة الكبرى بحقّ الإنسانيّة، التي ما زالت آثارها متواصلةً حتى يومنا هذا.

منذ ذلك الحين سعت الحركة الصهيونيّة؛ وهي حركةٌ عنصريّةٌ رجعيّةٌ عدوانيّةٌ وتوسّعيّة، ممثلةً بالكيان الصهيوني الغاصب إلى تصفيّة قضية اللاجئين، والقضاء على الهُويّة الجماعية للشعب الفلسطيني، وتمزيق وحدته السياسية، في محاولة بائسة للقضاء على تطلّعاته المشروعة في استعادة حقوقه الوطنيّة في الحريّة والعودة والاستقلال.

وعلى الرغم من شراسة العدوان الذي تعرّض له الشعب العربي الفلسطيني على مدى التاريخ، إلّا أنّه بقي صامدًا بكلّ شموخ وإصرار على خوض مسيرته الكفاحيّة، ولم يتوانَ عن تقديم التضحيات الجسام في سبيل نيل حقوقه العادلة.

إنّ القضيّة الفلسطينيّة ليست قضيّة الفلسطينيين وحدَهم، والنكبة ليست نكبة الفلسطينيين وحدَهم، بل نكبةٌ لجميع العرب وأحرار العالم، فالخطرُ الصهيوني لا يطال الفلسطينيين وحدَهم، وإنّما يستهدف جميع العرب، سواءً كان خطر الكيان الصهيوني الاستيطاني التوسّعي الغاصب المزروع على الأرض العربية قاعدةً متقدّمةً للهيمنة الإمبرياليّة على المنطقة، أو ما تمثّله الحركة الصهيونيّة العالميّة حركةً عنصريّةً عدوانيّةً رجعيّةً تستهدفنا شعوبًا وبلدانًا عربيّةً بمخطّطاتها وبمؤامراتها وبتحالفها مع القوى الإمبرياليّة المهيمنة، لإحكام قبضتها على منطقتنا وبلداننا ومواصلة نهب مواردنا وتعطيل طاقات مجتمعاتنا وتفتيت بلداننا، بحيث يتسيّد الكيان الصهيوني وتتكرّس التبعية أكثر فأكثر للمركز الإمبريالي العالمي.. ومن ثَمّ فإنّنا - نحن الشعوب العربية - مستهدفون ومعنيون بمواجهة الخطر الصهيوني.

فمنذ أن وطأ الاستعمار وطننا العربي، ومزّق بلداننا، وفرّق شعوبنا، وأوهن قوانا، ونهب ثرواتنا، واختلق الكيان الصهيوني وزرعه عنوةً في الأرض العربية ليتولى القيام بدوره الوظيفي التآمري في خدمة الهيمنة الإمبريالية، وهذا ما يؤكّد حقيقة أنّ الصراع مع الصهيونية لا يمكن أن ينفصل عن الصراع مع الإمبريالية، وأنّ تحرير فلسطين مرتبط بالضرورة بتحرير شعوبنا، وتحرّر بلداننا وتضامنها ووحدتها.

وعند حدوث أي مشكلة في العالم نجد القوى الإمبريالية والأمم المتّحدة والدول الغربية بأجهزتها الإعلامية وحكوماتها تصيح، كما حصل مع الصين في فترة كورونا، وحصل في الحرب الروسيّة الأوكرانية على سبيل المثال، ولكن عند الوصول إلى فلسطين المحتلّة نجد التناقض الفاضح بدعم الكيان الصهيوني في ظلّ التخاذل المخزي لدولنا العربية، وتواطؤ بعضها وتآمرها مع الصهاينة.

إنّ تراكم جرائم الكيان الصهيوني الأخيرة وصمود شعبنا الفلسطيني وتضحياته ومقاومته للاحتلال، تعكس أزمةً داخليّةً وجوديّةً لهذا الكيان الغاصب من جهة، وتقهقر الإمبرياليّة الأمريكيّة بالتبدّلات السياسيّة الدوليّة لعالم ما بعد القطب الواحد الذي كان يخدم هيمنة الصهاينة من جهة أخرى، وهنا نلاحظ تطوّر قوى المقاومة من الحجارة إلى الصواريخ، ما يفرض على شعوبنا العربيّة وقواها التحرّرية بل ويفرض على كل قوى التحرر في العالم، دعم مقاومة وصمود الشعب الفلسطيني.

في ذكرى النكبة نستذكر شهداء القضية الفلسطينية، ونجدد حملات المطالبة بتحرير الأسرى، وبضرورة دعم صمود الفلسطينيين وإسناد المقاومة، وكذلك التصدي لأي شكل من أشكال التطبيع مع الكيان الصهيوني الغاصب، ورفض أي محاولة لتصفية القضية، بالإضافة لفضح جرائم الكيان الصهيوني ومقاطعته وفرض طوق من العزلة عليه لتقوية المقاومة وخنق الصهاينة المحتلّين.

وفي الختام، نؤكّد على تضامننا مع الشعب العربي الفلسطيني الصامد، ودعمنا للمقاومة الفلسطينية الباسلة في مواجهة الاحتلال، وتلقينه ما يستحقّ حتى دحره وتحرير كل التراب الفلسطيني وإقامة الدولة الفلسطينية الحرّة المستقلّة وعاصمتها القدس.

عاشت فلسطين...

الخزي والعار للصهاينة المجرمين وحماتهم الإمبرياليين...

الحرية للأسرى والأبطال...

المجد والخلود للشهداء...

النكبةُ المستمرّة..
الفلسطينيُّ مرآةُ زمنِ المنافي

محمد صوان
كاتبٌ سياسيٌ فلسطينيّ/ تركيا

إنّ مصطلح «نكبة» الذي يُستخدم لوصف الكارثة الفلسطينيّة عانى التباساتٍ عديدة، فالمصطلحُ الذي صكّه المؤرّخُ العربيُ قسطنطين زريق سنة ١٩٤٨ دخل القاموس العربي بصعوبة، وهو اليوم بدأ يحتلّ موقعه في العالم مفردةً — عصيّةً على الترجمة — تختصّ بتعريف المأساة الفلسطينيّة، ومع ذلك، فإنّ القوانين العنصريّة الصهيونيّة تمنع الضحايا الفلسطينيّين المقيمين في وطنهم التاريخي، من إحياء ذكرى النكبة.

ارتبطت النكبةُ الفلسطينيّةُ بظاهرة التوسّع الكولونياليّ الأوروبي في أواسط القرن الثامن عشر، فالمهمّة «التمدينيّة» الأوروبيّة أنتجت ظاهرة الاستعمار الاستيطاني الذي قدّم نماذجه في أكثرَ من مكانٍ خصوصًا في إفريقيا — من الجزائر إلى جنوب إفريقيا — وكان المشروعُ الصهيوني، بحسب دعاته الأوائل، جزءًا من هذه الظاهرة.

صحيحٌ أنّ أصحاب المشروع «القوميّ اليهوديّ»، انطلقوا من الواقع غير السامي الذي ساد ثقافة القرن التاسع عشر في أوروبا الشرقيّة، إلا أنّ جوابهم على غير الساميّة لم يكن الخيار الوحيد.. فالخياراتُ اليهوديّةُ تراوحت حينها بين خيار الاندماج الذي مثّله «حزب البوند» وخيار رافض لفكرة «الدولة»، ومثله تيار «اليهوديّة الأرثوذوكسيّة» وتيّار الاندماج الكامل الذي مثّلته الفرق الليبراليّة والماركسيّة.. غلبة الخيار القوميّ الصهيونيّ التوراتي جاء متأخّرًا ومتطابقًا مع الاحتلال البريطاني لفلسطين بعد الحرب العالميّة الأولى، وتمّ تعويمُهُ بعد الحرب العالميّة الثانية، لكن هذا الخيار بقي مخلصًا لجذوره الكولونياليّة، فهو مشروعٌ استيطانيٌ استعماريٌ من جهة، ومشروعٌ قوميٌ دينيٌ من جهةٍ ثانية، وهنا يكمن تناقضه الداخلي...!

أغلبُ الظنّ أنّ دمج «الهلوكوست» في المشروع الصهيوني الاستيطاني هو الأسطورة الكبرى التي بنت عليها «إسرائيل» شرعيّتها، وأصبحت اليوم «الدرع الواقي» لمنع توجيه النقد إليها... إنّ نقد ممارسات الاحتلال الإسرائيليّ والمستعمرات غير الشرعيّة في الضفّة الغربيّة، ونقد حصار غزة التي حوّلها الصهاينة إلى أكبر «بانتوستان» في العالم، ونقد الفصل العنصري في فلسطين التاريخيّة، ونقد التطهير العرقي والإثني في القدس، يصبح عبر كيمياء الالتباس اللغوي لا ساميةً جديدة...!

يشترك «الهولوكوست» والنكبة بوصفهما حدثيْن عالميين يمسّان البشرية جمعاء على مستوى نضالها ضدّ العنصريّة، ومن هنا، فإنّ النضال من أجل أن يبقى «الهولوكوست» ذاكرةً إنسانيّةً مشتركة، لا يكتمل إلا بمقاومة الاستيطان الكولونيالي ودحره، حيث تشكّل الصهيونية موقعه الأخير في عالم اليوم.

هناك فخٌ يسقطُ فيه البعض بصرف النظر عن النيّات الطيبة، وهو التعامل مع النكبة الفلسطينيّة بوصفها ذاكرة. لعلّ «الهولوكوست» ذاكرة ينبغي التعلّم من دروسها بوصفه فعلًا همجيًا حدث في الماضي، بينما قضية النكبة مختلفةٌ بشكلٍ جذري. لقد بدت النكبةُ الفلسطينية التي حدث فصلها الدموي الكبير خلال التطهير العرقي والإثني في فلسطين سنة ١٩٤٨ كأنّها ذاكرة، خلال مرحلة عبثيّة اتفاق أوسلو سنة ١٩٩٣، يومها بدا أن سرديّة النكبة طويت عبر التنازلات التي قدّمها الطرف الفلسطيني، لكن ثبت أن اتفاق أوسلو كان وهمًا، لأنّه قُرأ بطريقتين مختلفتين: الطرف الفلسطيني قرأه بوصفه بداية النهاية لاحتلال الضفّة الغربيّة وقطاع غزة، ويسمح له بتأسيس «دولة» على مساحة ٢٠٪ من الوطن التاريخي، بينما قرأته المؤسّسة الصهيونيّة بوصفه صفقة تسمح لها بمتابعة بناء المستعمرات والتغوّل في سياسة الضم الزاحف، في مقابل منحها الرعايا الفلسطينيين حقّ إدارة الشؤون المعيشيّة للبانتوستانات المقطّعة الأوصال.

بداية الحدث النكبويّ:

تشيرُ وقائع الحياة اليوميّة في فلسطين إلى أنّ حرب ١٩٤٨ كانت بداية الحدث النكبوي الذي لم تنته فصوله لحظة توقيع اتفاقيات الهدنة مع الأنظمة العربيّة بين عامي «١٩٤٩ — ١٩٥١» فحرب الـ ٤٨ كانت البداية المستمرّة حتى هذه اللحظة، والنقاش الذي تركّز حول وجود خطّة للاقتلاع والتهجير، وهو ما أكّده الباحث إيلان بابيه في كتابه «التطهير العرقي في فلسطين» ، أو عن وجود ممارسة فعليّة للطرد مثلما برهن على ذلك الباحث بني موريس.

إنّ طرد الفلسطينيين واقتلاعهم من بيوتهم وقراهم ومدنهم سنة ١٩٤٨، لا يسوّغ «لإسرائيل» منعهم من العودة إلى وطنهم الأصلي، ومصادرة ممتلكاتهم بحجّة أنّها «أملاك غائبين» فقانون أملاك الغائبين الذي وصل ذروته مع مقولة «الغائبين الحاضرين» هو فداحةٌ من الطرد والتحوّل من حدث إلى حالة دائمة، ويكفي أن ندقّق بوقائع ما يُسمى «القرى المهجّرة داخل إسرائيل».

إنّ سياسة مصادرة الأراضي في «إسرائيل» لم يتوقّف، وحتى القرويين الذين بقوا في قراهم ومدنهم ولم يتحولوا إلى حاضرين غائبين فإنّ «إسرائيل» واصلت سياسة مصادرة أراضيهم الزراعية من أجل هدفها المعلن وهو تهويد الأرض، حتى بالنسبة للفلسطينيين الذين حرموا من أصلهم القومي، وصاروا يسمون «عرب أرض إسرائيل» فإنّ نكبتهم لا تزال مستمرّةً إلى يومنا هذا، ولعلّ مصادرة منازل حي الشيخ جراح، وسلوان في القدس، وهدم الخان الأحمر أكثر من مرة، وتدمير قرية العراقيب في النقب أكثر من مئة مرة خلال ثمانية أعوام يقدّم دليلًا صارخًا لواقع الحال.

إذا كانت نكبة عام ١٩٤٨ المستمرّة داخل فلسطين التاريخيّة تتغطى بالقوانين والتشريعات التي يقرّها «الكنيست» فإنّ النكبة تبدو عاريةً في الضفة والقدس وغزة.. فالأراضي المحتلّة سنة ١٩٦٧ تخضع «للقانون العسكري الإسرائيلي» والاستيطان يعربد في جميع أنحائها، من القدس التي تختنق بالمستعمرات، إلى الضفة، وصولًا إلى غور الأردن، كما أنّ القمع والاعتقال الإداري والقتل من المسافة صفر، صارت ممارسات يوميّةً ممأسسة، لقد بنت «إسرائيل» نظامًا متكاملًا من الأبارتهايد قوامه الطرق الالتفافيّة الخاصّة بقطعان المستوطنين، وجدار الفصل العنصري الذي مزّق أراضي الفلسطينيين وصادرها، والمعابر والحواجز التي جعلت الانتقال من بانتوستان فلسطيني إلى آخر عملية تعذيب يوميّة.

تتجلّى شراهة هذه النكبة المستمرّة بشكلٍ صارخ في مدينة القدس والخليل ونابلس، حيثُ يتغلغل المستوطنون بين السكان الأصليين مغلقين الطرقات، ومحوّلين الحياة إلى كابوس يومي، وهي تصل إلى ذروتها عبر تحويل قطاع غزة إلى أكبر سجنٍ في الهواء الطلق في عالم اليوم...!

لقد خلق إنشاء «دولة إسرائيل» سنة ١٩٤٨ كارثةً إنسانيّةً وأخلاقيّةً وقوميّةً لشعب فلسطين وللمنطقة، تمثّلت في سلب فلسطين بالكامل، وتشريد نحو «٩٠٠،٠٠٠» لاجئ فلسطيني من بيوتهم وأراضيهم وأصبحوا اليوم «٩» ملايين لاجئ في الشتات والمنافي، وما زالت «إسرائيل» تمنعهم من ممارسة حقّهم في العودة إلى وطنهم الأصلي رغم العديد من القرارات الدولية التي طالبتها بذلك، وعلى رأسها قرار الجمعية العامة رقم «١٩٤» الصادر بتاريخ ١٩٤٨/١٢/١١.

لا يتنصّل قادة الكيان الإسرائيلي من هذه المجازر ولا من هذه الأساليب الوحشيّة والإرهابيّة التي لجؤوا إليها لإنشاء دولتهم، رئيس وزراء «إسرائيل» السابق إسحق شامير يقول علنًا: إنه «لا أخلاق اليهود ولا التقاليد اليهوديّة تستبعد الإرهاب باعتباره وسيلةً للقتال»، بل إنّ «الإرهاب له دورٌ كبيرٌ يؤديه في حربنا ضدّ الفلسطينيين والإنجليز»! ومن جانبه اعترف رئيس وزراء «إسرائيل» السابق مناحيم بيغن بأهمية المجازر التي ارتكبتها العصابات الصهيونيّة لإنشاء دولة «إسرائيل» ففي كتابه المعنوَن: «التمرّد قصّة الأرغون» قال: «إنّ دولة إسرائيل ما كانت لتوجد لولا مجزرة دير ياسين».

أما بن غوريون فقد خاطب نحوم جولدمان رئيس المؤتمر اليهودي العالمي قائلًا: «لو كنت زعيمًا عربيًا لما كنت أتوصل إلى اتّفاق مع إسرائيل أبدًا، ذلك طبيعي، فقد أخذنا بلدهم.. لقد كانت هنالك لا سامية، ونازيون، وأوشفتز، ولكن هل هذه غلطتهم؟! إنهم لا يرون إلا شيئًا واحدًا هو أنّنا جئنا إلى هنا وسرقنا بلدهم».

خديعة الذريعة الأخلاقيّة:

استنادًا إلى ما تقدّم يتّضح أنّ الجرائم التي ارتكبت بحقّ اليهود في أوروبا، لا تبرّر أخلاقيًا إنشاء «دولة إسرائيل»، ولا تبرّر أيضًا هذا الانحياز الغربيّ الأعمى المتواصل لوجود هذه «الدولة وممارساتها» التي ارتكبت جريمةً إنسانيّةً وأخلاقيّةً وقوميّةً بحقّ الشعب الفلسطيني، وشرّدته من وطنه الأصلي، ومارست بحقّه جميع أشكال وأصناف الاضطهاد والتمييز العنصري، فالدعم الغربي الأخلاقي ينبغي أن لا يترتب عليه جريمةً أخلاقيّةً بحقّ شعب آخر، والتستّر الأوروبي والأمريكي وراء الدوافع الأخلاقيّة بدعم «إسرائيل» يخفي في حقيقته الأهداف والمصالح الكولونياليّة والإمبرياليّة التي سعت إليها الدول الاستعماريّة الأوروبيّة قبل وصول هتلر إلى الحكم، بل حتّى قبل نشوء الحركة الصهيونيّة سنة ١٨٩٧، بعقود خلت إلى تحقيقها، هذه الأهداف الغربيةً الاستعمارية للهيمنة والسيطرة على الوطن العربي لا تزال ثابتةً دون تغيير، وارتبطت منذ البداية بإنشاء كيانٍ يهوديّ في فلسطين يمنع وحدته ويعيق تطوّره وتقدّمه الحضاري والصناعي والتكنولوجي، غير أنّ الوسائل والمبرّرات لإنجاز هذه المصالح والأهداف هي التي تنوّعت وتبدّلت مع مرور الوقت. فكما أسهمت ألمانيا النازية بطريقةٍ غير مباشرة في إنشاء «دولة إسرائيل» من خلال المجازر «الهولوكوست» التي خدمت مشروع الحركة الصهيونيّة في تهجير يهود أوروبا إلى فلسطين، وبحجّة تعاطف العالم مع ضحايا النازية أسهمت ألمانيا الاتحاديّة اليوم من جانبها في تثبيت وجود «دولة إسرائيل» عبر دعمها الاقتصادي والدبلوماسي ودفع التعويضات المالية إليها، كذلك تفعل الولايات المتحدة لتمكين «إسرائيل» من احتلالها لفلسطين ومن بناء المستوطنات فيها، وتعزيز قدراتها العسكرية في مواجهة كفاح الشعب الفلسطيني.

خلاصة القول: الجلاد النازي في المحرقة هو نتاج العنصرية التي يجب النضال ضدها بشكلٍ دائم وعدم القبول بتجليّاتها المتنوّعة مهماً تتخذ من أسماء. أما النكبة الفلسطينية المستمرة فنتاج الاستعمار الاستيطاني الذي يختزن العنصرية، ويسعى لتطهير الوطن الفلسطيني من سكانه الأصليين مستلهمًا قاموسًا متعدّد المصادر، من «المهمة التمدينيّة» إلى التبشير الديني إلى فكرة الأرض الموعودة!

وفي الحالتين، وهما حالتان منفصلتان لا مكان للمقارنة بينهما.. العنصريةُ يجب أن تُقاوم حتى النهاية، الاستعمار الاستيطاني يجب أن يُفكّك.

«الهولوكوست» والنكبة ليستا حدثين متوازيين، فاليهودي -المتحرّر من الصهيونيّة — والفلسطيني يستطيعان أن يكونا مرآتين للألم الإنساني، اليهودي الذي كان مضطهدًا في أوروبا النازيّة ليس مرآة الفلسطيني فحسب.. كما أن الفلسطيني المقموع والمنفي في وطنه وخارجه ليس فقط مرآة اليهودي بل هو مرآة جميع المنفيين والمضطهدين، هو مرآة زمن المنافي الوحشيّة الذي افتتحته الألفية الثالثة باستغاثات اللاجئين الأفغان والعراقيين والصوماليين واليمنيين والسودانيين والليبيين واللبنانيين والسوريين، ومعاناتهم في بحر الموت المسمى الأبيض المتوسط...!

في هذا السياق نقرأ مقولة المفكّر الفلسطيني إدوارد سعيد عن الفلسطيني بصفته «ضحيّةَ الضحيّة» ونعيد اكتشاف القيم الإنسانيّة والأخلاقيّة التي تهدّدها الرأسماليّة والهمجيّة والعنصريّة والاستبداد بالاندثار.

التوثيقُ والذاكرةُ الشفويّة من روافع إحياء ذكرى النكبة..

إلهام الحكيم
كاتبةٌ فلسطينيّة/ تركيا

فَطِن العدوّ الصهيونيّ لأهميّة الإعلام والتوثيق منذ اللحظة الأولى لإطلاق فكرة بناء «دولة يهوديّة» في فلسطين.. تلك الفكرة التي أحياها وخطّط لها «نابليون بونابرت» إرضاءً لليهود في «آسيا وأوروبا» وكسْبًا لدعمهم لحملاته العسكريّة المتعثّرة على الشواطئ الفلسطينيّة بعد تحطّم طموحاته على أسوار عكا عام ١٧٩٩. خاطبهم قائلًا: «أيّها الإسرائيليّون انهضوا، فهذه هي اللحظة المناسبة، إن فرنسا تمد لكم يدها الآن حاملةً إرث إسرائيل، سارعوا للمطالبة باستعادة مكانتكم بين شعوب العالم» - انتهى الاقتباس -، كما أصدر بيانًا دعا فيه اليهود للالتحاق بحملته والقدوم إلى القدس تحت الراية الفرنسيّة، لقي نداء بونابرت ترحيبًا من الإعلام، وتحوّل إلى خبرٍ رئيسيٍ في الصحف الفرنسيّة...!

عاود وزير الخارجية البريطاني «بالمرستون» طرح الفكرة مجدّدًا على «يهود أوروبا» واقترح عليهم «إقامة وطن لهم في فلسطين» ليرضيهم من جانب، وليردّ على محاولةً «محمد علي» توحيد مصر وسوريا عام ١٨٤٠ فطلب من السفير البريطاني في إسطنبول محاولة إقناع الخليفة العثماني بأن الحكومة الإنجليزية ترى أن الوقت أصبح مناسبًا لفتح باب «فلسطين» لهجرة اليهود إليها. رفض العثمانيّون الطلب الذي قابله «أدموند روتشيلد» بتمويل إنشاء ٣٠ مستعمرةً يهوديّةً أهمّها «ريشون لتسيون» التي رفع فيها العلم «الإسرائيلي» الحالي، فكانت بداية المشروع اليهودي.

في عام ١٨٨٥ بدأ مصطلح «الحركة الصهيونيّة» بالظهور تمهيدًا للاستيطان في فلسطين التي حاول «تيودور هرتزل» إرساء مقولة إنها «أرضٌ بلا شعب لشعب بلا أرض»، أرسل إليها عام ١٨٩٦ رجُلَيْ دين يهوديَيْن لاستطلاع الأمر.. فكانت رسالة الردّ منهما: «إنّ العروس جميلةٌ جدًا ومستوفيّةٌ لجميع الشروط، ولكنّها متزوجةٌ فعلًا» - في إشارة إلى أنّ فلسطين فيها شعبٌ يسكنها منذ آلاف السنين — وهذا يناقض مقولاته التي روّج لها في كتاباته، ومع هذا فقد تابع هرتزل وأصدقاؤه المضي بمشروعهم الاستيطاني. في عام ١٨٩٧ عُقد المؤتمر الصهيوني الأوّل في بال بسويسرا الذي تبنى برنامج تأسيس «وطن معترف به لليهود في فلسطين»! وفي عام ١٩٠٧ سافر عالم الكيمياء البريطاني «حاييم وايزمن» إلى فلسطين، وافتتح مشروع شراء الأراضي بدعم من عائلة «روتشيلد» وتمويلٍ من الصندوق القومي اليهودي...

التنسيق اليهودي- الغربي لبناء الكيان الصهيوني:

مع وصول اليهودي هربرت صموئيل لمنصب «وزير بريطاني» بدأ العمل على تنفيذ المشروع الصهيوني من خلال عقد اتفاقية «سايكس — بيكو١٩١٦» التي اقتسمت فيها فرنسا وبريطانيا استعمار وانتداب العديد من الدول العربيّة، وطبعًا كانت فلسطين من حصّة الإنجليز والحلفاء الذين تابعوا إعطاء التسهيلات للمنظّمات اليهوديّة للتملّك وإقامة المستعمرات وتنظيم هجرة اليهود الأوروبيّين إليها وصولًا لبناء الدولة اليهوديّة المنشودة.

في عام ١٩١٧ أصدر وزير الخارجية «آرثر بلفور» وعده لليهود باسم الحكومة البريطانية ومنح «الأرض بلا شعب لشعب بلا أرض!» -حسب زعمهم - وكانت البداية الرسميّة لمأساة فلسطين، ومنذ تلك اللحظة تحوّل طريق هجرة اليهود الأوروبيين من أمريكا «بلد الأحلام» إلى فلسطين «أرض الميعاد». وبدأ التزوير الفعلي بمحو التاريخ والجغرافيّة والديموغرافيّة والثقافة، وكل ما له علاقةٌ بفلسطين ومقدّساتها وثرواتها واستبدالها بـ «الرواية الصهيونيّة المزيّفة»؛ بهدف إقناع العالم بـأحقيتهم بتلك الدولة، هذه الخطوة التي تبعها خطواتٌ من الخداع والتزوير والتدمير والمجازر والجرائم الوحشية وصولًا للنكبة والتشريد عام ١٩٤٨واحتلال بعض من فلسطين، ثمّ تبعتها هزيمة حزيران ١٩٦٧ واحتلال ما تبقى منّها... مع النجاة من المحاسبة والعقاب للمجرمين من جانب الهيئات والمؤسسات الحقوقية والقانونية الدولية وعلى رأسها الأمم المتحدة والهيئات المنبثقة منها رغم صدور المئات من المشاريع والقوانين التي لم يُنفّذ منها شيءٌ كون الماكينة الإعلامية الغربية المؤثرة تقع تحت السيطرة الصهيونية، وهي القادرة على قلب الحقائق والتحكّم بنشر ما تريده وما يخدم أجندتها أمام المجتمع الدولي الذي يتبنى الرواية الأقوى والصورة التي تخدم «دولة الكيان» بوجهها الإنساني المتحضّر المدافع عن «شعبها الأعزل ضد الإرهاب الفلسطيني»! إضافةً لاعتبارها واحة الديمقراطية في المنطقة، مع أن الواقع على الأرض يشي بالعكس،

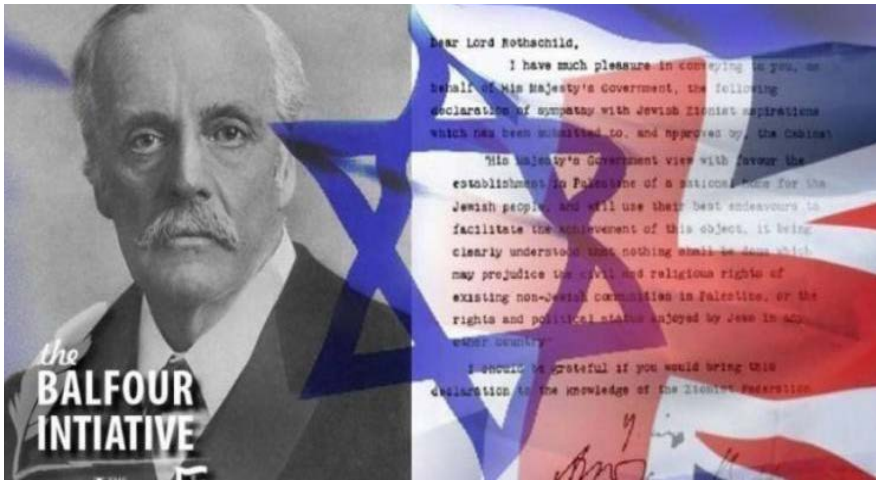

فوحشيّتها وممارستها سياسة الفصل العنصري يرقيان لمستوى جرائم الحرب، لكن ذلك الزيف والتوحّش يقابله الضعف الإعلاميّ الفلسطينيّ والعربيّ وعدم قدرته على إيصال الحقيقة والطعن بالدعاية الصهيونيّة وفضح «إسرائيل» وصولًا لتعميق عزلتها الدوليّة.

دور مؤسّسات المجتمع المدني بإحياء الذاكرة:

اعتمد الفلسطينيون في نضالهم على البندقية والعمليات الفدائية والانتفاضات المتتالية لاسترداد الحقوق والأرض، متيقنين بأنها الطريق الوحيد نحو النصر والتحرير... حتى الصحافة الفلسطينية كانت تركّز على تلك المحاور. ومع مرور الوقت تغيّرت بعض المفاهيم وتوصلت مؤسسات المجتمع المدني المختلفة لقناعة أن ذلك وحده لا يكفي، بل يجب أن يترافق مع التوثيق وإحياء الذاكرة الشفوية وإيصالها لمختلف الأجيال منطلقين من مقولة: «من لا يملك ذاكرة يموت» وباعتبار أن ذاكرة الشعب الفلسطيني حيّةٌ ومتّقدةٌ، لذا يجب توجيهها نحو كشف المحاولات الصهيونية الهادفة لطمس الذاكرة الفلسطينيّة، ومن ثَمّ إظهار الحقيقة عبر وسائل الإعلام المختلفة «المقروءة والمسموعة والمرئية» خاصّةً أنّ العدو يراهن على مقولة غولدا مائير: «الكبار يموتون والصغار ينسون » فكان الفلسطينيون بالمرصاد لتلك الأمنيات الصهيونية مستفيدين من التطور التكنولوجي وتحوّل العالم إلى قريةٍ صغيرةٍ ودخول النت إلى كلّ منزل؛ ما أدى لزوال بعض الحواجز وباتت القدرة على الوصول إلى المؤسسات المجتمعية كافةً والهيئات الدولية والفعاليات المختلفة بلا عوائق صهيونية، انتشرت «الرواية الفلسطينية» وتعرّف العالم إلى الحقيقة، فانقلب السحر على الساحر وتوسع التضامن الأممي مع القضية الفلسطينية، وتتالت زيارة الوفود الغربية للأراضي المحتلة للاطلاع على الواقع ونقله لشعوبهم التي لم تكن تعرف سوى «الرواية الصهيونية المزيّفة» حتى إن البعض منهم تولى مسؤولية الوقوف بوجه إخلاء المناطق الفلسطينية، وإقامة المشاريع الاستيطانية مكانها، وأقام البعض منهم مع العائلات المهددة بالتهجير وتوثيق مجريات حياتهم اليومية والصعوبات المعيشية والتعليمية في ظل سياسة التفرقة العنصرية والمضايقات المدروسة والإرهاب الصهيوني المنظم... فكان للصوت والصورة التي نقلها الشباب الفلسطيني والمتضامنون معهم الأثر الأكبر بكشف الحقيقة، وتغيير المواقف، وليس أدل على ذلك من الفعاليات المرافقة للنكبة ٧٥ ومنها:

- عقد جلسة للجمعية العامة للأمم المتحدة إحياءً لـ « الذكرى ٧٥ للنكبة » مؤخّرًا وهي المرة الأولى منذ عام ١٩٤٨ ما يؤكّد على تعميق العزلة الدوليّة لدولة الاحتلال الصهيوني.
- انتشار جملة «نكبة ٧٥» بكل اللغات على وسائل التواصل الاجتماعي كافةً وتحولها إلى تريند، وهذا مؤشّرٌ جَلِي على المتغيرات الدولية التي توجب المزيد من العمل عليها.
- تكثيف اللقاءات بالصوت والصورة مع «جيل النكبة» عبر السوشيال ميديا والحديث عن وقائع الاعتداءات والمجازر ضد الشعب الفلسطيني وأراضيه وممتلكاته ومقدساته وصولًا إلى نكبة عام ١٩٤٨ وهذا يفند المزاعم الصهيونية بأن فلسطين أرض بلا شعب.
- انتشار الفعاليات المتنوعة عبر الزوم ومختلف الوسائط الأخرى التي شارك فيها مختلف الأجيال الفلسطينية للتأكيد أن الكبار يسلّمون العُهدة للأبناء والأحفاد وأن الذاكرة الفلسطينية حية والإرث أمانة لن يتخلى عنها الشعب ما دام فيه طفل يرضع.
- إحياء الشعب الفلسطيني في كل مناطق اللجوء والشتات إضافة للداخل الفلسطيني المحتل للذكرى، وإلقاء الضوء على القرى والمناطق المدمرة والمهجرة عام ١٩٤٨ وتنظيم الرحلات والزيارات من قبل العائلات لها ترسيخًا لفلسطينيّتها وحقّ العودة إليها وإعادة إعمارها من جديد.

هذا نذر يسير من فعاليات ذكرى النكبة، لكن ذلك سبقه الكثير من النشاطات والإجراءات التضامنية ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

- ازدياد نشاط مؤسسات المجتمع المدني ومنها حملة مقاطعة البضائع الصهيونية «B D S» وتوسعها في العالم وتأثير ذلك على الاقتصاد الصهيوني، ما دفع قادة الكيان لتهديد القائمين عليها.
- توقف قرارات الإخلاء والتهجير للأحياء والمناطق المهددة «الشيخ جراح، الخان الأحمر، حي سلوان، حوّارة ..... وغيرها»، نتيجة توسّع الحملات التضامنيّة الدوليّة معها منعًا لإقامة المستوطنات مكانها.
- المظاهرات والاعتصامات الجماهيرية في مختلف دول العالم رفضًا لحصار غزة والاعتداءات الصهيونيّة المتكرّرة على القدس ومقدّساتها ومختلف مناطق الضفة الغربيّة المحتلّة.
- توسّع الحملات الإعلاميّة والفعاليات التضامنيّة للتعريف بالواقع الفلسطيني قبل النكبة ونشر «الطوابع، الصحف القديمة، العملات، المؤسّسات التعليميّة والصحيّة والثقافيّة والفنيّة والفعاليّات الاقتصاديّة من تجارة بحريّة وبريّة، خاصّةً بوجود شبكة المواصلات البرية والحديدية والبحرية والجوية، وغيرها»، ما يؤكد على أن فلسطين كانت من أكثر الدول ازدهارًا في المنطقة.

خلاصة القول: لن أقول لو أننا تنبهنا لأهمية الإعلام والتوثيق واللحاق بالركب العالمي ونشر الحقيقة لَمَا طال أمد الاحتلال وكنا توصلنا لأوسع تضامن دولي مع قضيتنا كما حصل مؤخّرًا، لكن.. «أن تصل متأخّرًا خيرٌ من ألا تصل أبدًا».

المصادر:

الجزيرة نت.. وسائل الإعلام المختلفة.. السوشيال ميديا.

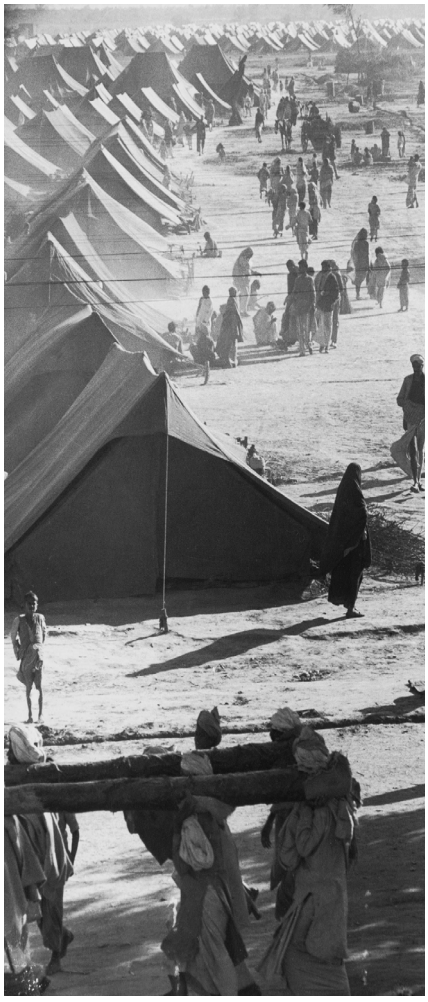

خمسة وسبعون سنة من عمرها
الانقسام داخل «إسرائيل» إلى أين؟
حربٌ أهليّةٌ أم حربٌ شاملة؟!

م. تيسير محيسن
باحث وكاتب سياسي/ فلسطين

أنهيتُ كتابة هذا المقال قبل العدوان على غزة، في الواقع النتائج التي تمخّض عنها العدوان، من وجهة نظري، لم تغيّر كثيرًا في استنتاجاتي الشخصيّة.

تضمّنت ورقة موقف صادرة عن معهد القدس للاستراتيجية والأمن (JISS) تحذيرًا قويًا للسياسيين الإسرائيليين على جانبي المتراس «إسرائيل بحاجة إلى الاستعداد لاحتمال الحرب»، و« الصراع الدائر حول الإصلاح القضائي قد يلحقُ أضرارًا جسيمةً بدولة إسرائيل». تسترشد الورقة بالمثل اللاتيني «إذا كنت تريد السلام، فاستعدّ للحرب»؛ باعتباره أكثر تعبيرًا عن الوضع هناك. في هذه المقالة سوف نحاول قراءة المشهد الإسرائيلي المنقسم، في ضوء ما جاءت به ورقة الموقف من تنبيهاتٍ وإشاراتٍ وتوصيات.

تنطلقُ الورقة من فرضيّة أنّ البيئة الاستراتيجيّة لدولة إسرائيل تغيّرت كثيرًا في العقد الماضي، وباتت أكثر تعقيدًا وخطورةً من الناحية الأمنيّة؛ حيث يكتسب أعداء إسرائيل مزيدًا من الثقة، بينما يراهنون على أنّ الصراع الداخلي سرعان ما سوف يفضي إلى تدمير الذات. وتستنتج الورقة، أن إمكانية الانزلاق نحو صراعٍ شاملٍ باتت أكثر احتمالًا من ذي قبل.

لا يخلو التحليل، بالطبع، من مبالغة وتهويل، ومن قدرٍ كبير من الشحن الأيديولوجي. فليس مؤكّدًا أن يفضي هذا الصراع إلى تدمير إسرائيل؛ وربما يحدث العكس؛ حيث يمكن أن يسهم الخلاف في إعادة هيكلتها وتقويتها. كما أنّ قوّة محور المقاومة مجتمعًا لم تصل بعد إلى الحدّ الذي تشكّل فيه خطرًا وجوديًا على إسرائيل (وربما كانت تبالغ في تصوير قدرة هذا المحور باعتباره خطرًا ماثلًا من باب شيطنة الخصم والاستقواء عليه قبل أن يصل إلى المدى الذي يشكّل فيه تهديدًا حقيقيًا عليها). تختم ورقة الموقف بمجموعة توصيات من قبيل تبني نموذج جديد يعطي الأولويةً لاحتياجات إسرائيل الأمنية، وإبعاد جيشها وعناصر الأمن الأخرى عن حلبة الصراعات السياسية والحزبية، وتزويده بكل الموارد اللازمة استعدادًا للحرب. الآن، دعونا نفحص، في ضوء ما يسمّى بالأزمة/ الانقسام، مجموعة من القضايا: حقيقة ما يجري داخل المجتمع والنظام السياسي في إسرائيل، احتمالات نشوب حرب شاملة، مستقبل الصراع الفلسطيني- الإسرائيلي ومساراته.

في الانقسام الإسرائيلي:

أثارت خطّة الإصلاح القضائي انقسامًا كبيرًا داخل «إسرائيل». تمنح الخطة المقترحة السلطة التنفيذية صلاحيات تعيين قضاة المحكمة العليا؛ ما يهدّد استقلالية القضاء، ويؤدي إلى تقويض الديموقراطيّة وسيادة القانون من وجهة نظر المعارضة، بينما يرى مؤيّدو الخطّة أنّ النظام القضائي الحالي مسيّس جدًا، وأنّ الخطّة سوف تزيد من إمكانية مساءلة النظام وشفافيته.

يضع الانقسام إسرائيل أمام أزمة تاريخيّة لم تشهد مثلها حتى أثناء الحروب، تمثّلت في التظاهرات الحاشدة والمستمرّة منذ أسابيع، التي قد تشكّل بداية انهيار «إسرائيل» وتفكيكها. حذّر باراك رئيس الوزراء الأسبق من قرب زوال إسرائيل قبل حلول الذكرى الثمانين لتأسيسها، بينما يرى يائير لبيد، زعيم المعارضة، أن الخطّة بشكلها الحالي بمثابة نهاية الديمقراطيّة وبداية عهد ديكتاتوري. هناك من يتوقع أن تصل الأزمة إلى التهديد بالإضراب والعصيان الشامل، وربما الحرب الأهلية. بالمقابل، يرى البعض أن الاحتجاجات في نظام ديموقراطيّ يعزز الدولة ولا يضعفها، بينما في الديكتاتوريات قد تصل حد إسقاط الدولة! وعليه، ستظل إسرائيل في نظر هؤلاء «جزيرة استقرار»، ولن تفقد «صورتها الإيجابية» على حد زعمهم.

يبدو أن الخلاف على الإصلاح كان مجرد شرارة فجرت برميل بارود من كراهية الذات والحقن الشعبوي، وأطلقت مارد سياسات الهوية، طائفية ودينية وقومية وحزبية، وجاء خروج الآلاف إلى الشوارع والميادين تعبيرًا عن انعدام الثقة، والإحباط، عن الصراع بين الصهيونية العلمانية مع توجهات «اشتراكية»، والصهيونية الدينية مع توجهات نيوليبراليّة (رأسمالية الخنازير).

للأزمة أسبابٌ وعواملُ يمكن وضعها في ثلاث مجموعات: أسبابٌ وعواملُ عقلانيّة، مرتبطةٌ بكيانات سياسيّة واجتماعيّة وطائفيّة تحركها اهتمامات واعتبارات ومصالح متباينة (الائتلاف والمعارضة). المجموعة الثانية تضم العوامل الثقافية، تباين القيم والأيديولوجيات والخطاب، وتصورات «الأنا والآخر» (القيم الغربية، استبعاد وتهميش الشرقيين، الليبرالية الجديدة، تداعيات «فكّ الارتباط» ثقافيًا). أما المجموعة الأخيرة، فتضمّ عواملُ هيكليّةٌ تشمل طبيعة السلطة والدولة والمجتمع والعلاقة بينها (الجمود السياسي، انهيار النظام القديم، نتائج حرب ١٩٦٧ باعتبارها عاملًا مؤثّرًا في الواقع السياسي، ضغوطات الأمن/الموقف من الأراضي الفلسطينية المحتلة بين الفصل والضم والحسم، الترتيبات المصاحبة للنشأة / غياب الدستور/ عدم الفصل بين الدين

والدولة/تداخل الأمني مع المدني).

للانقسام تأثيراتٌ وتداعياتٌ سياسيةٌ واقتصاديةٌ واجتماعيةٌ عميقةٌ على الوضع الداخلي سلبية، غالبًا: تآكل التصنيف الائتماني، تدهور قطاع الهايتك، هيمنة خطاب عام فظ (متطرف) ومغترب، تصدع التماسك المجتمعي والوطني، انقطاع الاتصال وعدم الرغبة في التسوية أو الحوار بين الأطراف، تضعضع ثقة الجمهور في القضاء، تأجيج تشققات الهُويّة، ترسيخ الاستقطاب السياسي وصعوبة الوصول إلى توافق أو إجماع حول أي من القضايا العامة، تزايدَ أعداد الإسرائيليين الذين بدت تظهر عليهم علامات القلق الدالة على اليأس، ويتقدّم الكثير منهم بطلبات للحصول على الجنسيّة الأجنبيّة (تزايد الشُعور بالتهديد)، أكثر من نصف الإسرائيليين يعتقدون أنّ الديمقراطية الإسرائيليّة في خطر شديد (وخاصة في صفوف اليسار)، تضرّرَ القدرةَ على تشكيل حكومات مستقرّة ومستدامة، تعمق الشرخ بقوة بَين اليهودَ المتطرفين وبين اليسار والعلمانيين، تعزيز قوة الائتلاف والتقليل من القيود المفروضة عليه، انتهاك التوازنات الدقيقة والقيود الديمقراطية على الأغلبية، ثمة ضررٌ يقع على فلسطيني ٤٨، اقتصاديًا (تفاقم الفقر والبطالة) وسياسيًا (زيادة التمييز العنصري ضدّهم). بالمقابل هناك من يرى أن المجتمع الإسرائيلي ونظامه السياسي قد يصبحان أكثر استنارةً وانخراطًا في العمليّة الديمقراطيّة من خلال النقاش العام حول مزايا الإصلاحات المقترحة وعيوبها، وقد يفتح النقاش حولها فرصةً لإرساء إجماعٍ واسعٍ على الأساس الدستوري لإسرائيل.

التأثير على الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي:

إسرائيل هي الطرف الرئيس الثاني في هذا الصراع الدائر منذ قرن، ولذا فكل ما يحدث فيها ولها من شأنه أن يؤثر في مجرياته. من بين موضوعات الخلاف (ليس كبيرًا) بين الائتلاف والمعارضة بخصوص الموضوع الفلسطيني تحتلُ التصوّرات المختلفة لوضع الضفة الغربيّة ومستقبلها مكانةً بارزةً من منظور دينيّ وقوميّ وأمنيّ. على الرغم من صعوبةِ التنبُؤ بكيفيّة تأثير الانقسام الإسرائيلي على مجريات الصراع بصورة دقيقة، إلا أنّنا يمكن أن نرصد بعض المسارات للتأثير المحتمل وكيفياته: قد يفضي الانقسام إلى ضعف حكومة اليمين وتصبح غير مستقرة، ومن ثَمّ غير قادرة على اتخاذ قرارات حاسمة، مما قد يؤدي إلى مزيد من التدهور، بينما نجاح حكومة اليمين في تمرير خطتها الإصلاحية، سوف يقويها ويدفعها إلى تنفيذ رؤيتها الاستيطانية التوراتية في الضفة الغربية وتكريس فصل قطاع غزة، ومفاقمة التمييز العنصري ضد سكان إسرائيل العرب. المؤكّد أن إسرائيل بالانقسام أو دونه لن تكون جاهزةً للتفاوض والتسوية السياسيّة. إحدى النظريات ترى أن تصدير الأزمة الداخلية من المرجّح أن يتم من خلال عملية عسكرية في شمال الضفة أو حملة جديدة على غزة (وهو ما حدث فعلًا في «الدرع والسهم»).

قد يبدو للبعض أن الاحتجاجات والخلافات حول الإصلاح القانوني لن تغيّر كثيرًا في مجرى صراع ممتدّ له أسبابٌ جذريةٌ عميقة (أي تأثير مُحتملٌ للانقسام السياسي في إسرائيل على الصراع الفلسطيني الإسرائيلي لن يكون العامل الوحيد أو الحاسم في هذا الصراع المعقد)، وهذا صحيحٌ إلى حد ما، لكن كما أسلفنا فإن أي حدث داخل إسرائيل، سلبي أم إيجابي، سوف يؤثر بالضرورة. فقدان القدرة على بناء التوافق والإجماع سوف يشتمل على تنامي الخلاف السياسي بين الائتلاف والمعارضة حول الملف الفلسطيني ما من شأنه أن يزيد الصراع احتقانًا، كما قد يشجّع الجانب الفلسطيني على تصعيد المقاومة، وشنّ المزيد من العمليّات. بالطبع بمقدور الفلسطينيين أن يستغلّوا هذا الانقسام لتعميقه وتشجيع مزيد من التشقّق والاستقطاب بالصمت والمُراقبة وتفنيد مزاعم دولة الاحتلال بخصوص فرادتها الديموقراطيّة.

الحرب الشامـلة:

منذ اندلاع الاحتجاجات الصاخبة وحكومة اليمين تتخبّط بين شدة الحيرة وقلّة الحيلة؛ في معالجة واحدة من أخطر القضايا التي تواجه الإسرائيليينَ بعد ٧٥ عامًا على قيام كيانهم المزعوم. ومن دلائل التخبّط ما يطرح من احتمالية نشوب حربٍ شاملة، أو متعدّدة الساحات، بمبادرة من محور المقاومة أو باندفاعة غير محسوبة من حكومة اليمين المتطرف. الفكرة هنا بسيطةٌ فضعف الدولة وهشاشة المجتمع والنظام إما أن تغري محور المقاومة بالانقضاض (الحرب)، وإما أن تدفع حكومة اليمين الفاشي للقيام بمغامرة تجنّبها، ولو إلى حين المواجهة الداخلية. ولكن المعطيات تقول: إن الأمر لدى الطرفين لم يصل إلى هذا الحد، فالحرب الشاملة لا تغري ولا تشجع أحدًا على البدء بها والشروع فيها، بعد أن هزمت العروش (١٩٤٨) وكسرت شوكة الجيوش (١٩٦٧)، بدا أن البديل يتمثل في التشكيلات والجماعات الصغيرة، مع الوقت تبين أن هذه الكيانات، دون الجيوش المستندة إلى قوة الشعوب حقًا، لا يمكن أن تشن حربًا حقيقيّةً ضد إسرائيل. إسرائيل تفضل مواجهات من نوع الحملات بين الحروب على أن تضطر لمواجهة جيوش قويّة ومتّحدة. الانقسام الإسرائيلي لا يقول بانتهاء الحملة بين الحروب والذهاب إلى حرب شاملة، فمثلما هو «نتنياهو وحكومته غير مستعدين لمواجهة عسكريّة» كما يقول ليبرمان، فالعربُ أيضًا اليوم، في ظلّ المعطيات، يخشون مثل هذه المواجهة. ومع ذلك، فمن الصحيح القول: إن الانقسام السياسي وعدم الاستقرار يمكن أن يضعف قدرة البلدان على الاستجابة بفعالية للتهديدات الأمنية، يصرف الانتباه عن أولويات الأمن القومي الأخرى، ويعيق قدرة الحكومة على تنسيق استجابة متماسكة للتهديدات. إن خوض الحروب الشاملة تعتمد بالإضافة إلى القوة العسكرية على قوة الاقتصاد ومرونته، ومدى فعالية أجهزتها المخابراتية وكفاءتها، وأيضًا درجة التماسك المجتمعي والوحدة الوطنية، وقدرتها على تخصيص الموارد اللازمة، ومن البديهي أن الانقسام السياسي يمكن أن يضعف كل ذلك، فلا يتشجع أحد، والحال كذلك، على خوض حرب شاملة.

ربّمَا تملك إسرائيل فائضًا من الأيديولوجيا، قوميّة ودينيّة واستيطانيّة، لكنّها تتبنى طوال الوقت استراتيجيات تشتغلُ في ظلّ حالة مستديمة من انعدام الأمن. ويبدو أن هذا ما يشكّل ركائز القدرة الإسرائيليّة على البقاء في إقليم معاد، ووسط شعوب كارهة، عبر التحريضَ الدائم والتعبئة والاستنفار طوال الوقت. من بين أبرز هذه الاستراتيجيات اثنتان: الأولى بناء عوامل القوة ومراكمتها وخوض حروب استباقية «على أرض العدو»، الثانية ترويج رواية المظلومية

التاريخية وتكريس صورة الضحية أمام «عدو متوحش»، وفي الوقت ذاته تشجيع كل أنواع التشقق والفرقة في صفوف الخصوم. ربما يؤثر الانقسام الإسرائيلي على التقييم الاستراتيجي لقدرات إسرائيل من طرف محور المقاومة في المنطقة، لكنه لن يصل إلى الحد الذي يشجع على شنّ حرب شاملة عليها. فالحربُ الشاملة ضد إسرائيل، في هذه المرحلة، لا يمكن أن تقع دون مشاركة إيران مباشرة، وبكل قوتها وليس عبر حلفائها، وإيران لأسباب عديدة، ليس لديها فعليًا سوى بضع خيارات لا ترقى لمستوى تهديد إسرائيل بشنّ حرب شاملة. غاية ما يمكن أن تذهب إليه هو محاولة استغلال الخلافات والاحتجاجات فيها لتعزيز المواقف المناهضة لإسرائيل إقليميًا ودوليًا. بالمقابل، فذات الخلافات ستمنع حكومة نتنياهو من التوصل إلى توافق بشأن هجوم محتمل على منشآت نووية في إيران.

أكّدت معركة «ثأر الأحرار» أنّ إسرائيل وحكومتها اليمينية غارقةٌ حتى النخاع في أتون أزمة داخليّة عميقة، لكنها ليست على شفا حرب أهلية، وسوف يعزّز «التهديد» الذي شعر به المستوطنون أثناء المعركة شعورهم بالتوحّد. هذا وكشف العدوان الهمجي على شعبنا أن شعار «وحدة الساحات» ما زال يفتقر إلى مضمون عمليّ حقيقيّ؛ فقد تركت غزة وحيدةً أمام جبروت الآلة الصهيونيّة، واكتفى الباقون بالشجب والندب أو الدعم الخجول والمستتر.

ولذلك، من المبكّر جدًا القول: إنّ إسرائيل ربّما تذهب إلى حرب شاملة بسبب الانقسام، كما أنّها لن تشهد حربًا أهليّة حقيقيّة، وهي ما زالت قادرةً على إدارة أزماتها وصراعاتها الداخليّة بأقل الخسائر بالرغم من الضربات الموجعة التي تلقتها في الآونة الأخيرة وأثخنتها لكنّها لم تأتِ في مقتلٍ بعد!

النشاطُ الصهيونيُّ في مصر عشيّةَ النكبة

أحمد بهاء الدين شعبان
الأمينُ العام للحزب الاشتراكي المصري/ مصر

مع مقدم القرن العشرين، أولت الحركةُ الصهيونيّةُ العملَ في مصر اهتمامًا فائقًا. كانت عجلةُ العمل من أجل تأسيس المشروع، الذي دعا إلى إنشائه «تيودور هرتزل»، قد بدأت في الدوران، بقوّة، وعلى كلّ المستويات، مشمولةً بتعاطفٍ وتأييدٍ واضحين، على المستويين؛ المعنوي والمادي، من المراكز الرأسماليّة والاستعماريّة الكبرى، ومن ثَمّ، فقد كان طبيعيًا أن تكون مصر حاضرةً في بؤرة وعي الجماعات وتخطيط الهيئات والنظم والدول المعنية، التي أخذت على عاتقها مهمّة تهيئة الأوضاع لتحقيق هذا الهدف، على مستوى العالم، وفي المنطقة.

كانت مصر هي الدولة الأهم والأكبر في المنطقة، وهي تشكّل، بتاريخها وشعبها وقدراتها، الماديّة والبشريّة، وثقلها وتأثيرها، الفكري والحضاري في الوسط المحيط، أحد أهم العوامل التي يُمكن أن تؤدّي دورًا بارزًا في نجاح المشروع أو إخفاقه، فهي بموقعها الفريد، علي تخوم «الأرض الموعودة»، التي اتّجهت إليها الأنظارُ كي تكونَ موئلًا للدولة الصهيونيّة المُنتظرة، وبوقوعها تحت هيمنة الاحتلال البريطاني، «عرّاب المشروع»، وبسيطرة اليهود والأجانب على مُقدراتها الاقتصادية، وبطبيعة النظام القائم فيها، وبحدود وعي الطبقة الحاكمة، المُسيطرة على عملية صنع القرار بها، شكّلت بيئةً نموذجيّةً يمكن استغلالها لدعم المشروع، والانطلاق منها لإمداده «اللوجيستيكي» بالبشر والمال والسلاح والعتاد والحماية، كما أن يهودها أنفسهم، يمكن أن يشكّلوا «مخزنًا» نموذجيًا لإعداد العناصر الصهيونيّة المُتحمسة وتدريبها، المُهيئين لخدمة مشروع اغتصاب فلسطين، وإنشاء (الدولة)! بل إنّ أقسامًا من أرض مصر ذاتها، في سيناء والعريش، كانت محلًا لأطماع الحركة الصهيونيّة، في فترة من الفترات، قبل أن يستقرّ الاختيار لديها، ولدى صُنّاعها، بالتركيز على فلسطين، لما لها من «حمولات» عقيديّة، ومعنويّة، وتاريخيّة، وثقافيّة، وسياسيّة فريدة، أمكن استخدامها، بمهارة فائقة، للتمويه على الأهداف الحقيقية للمشروع، وعلى غاياته العدوانية الاستعمارية العنصرية الاستيطانية الكريهة، وحتى بعد ذلك ظل حلم «دولة صهيون الكبرى» التي تمتد حتى تطوى وادي النيل، راسخًا في «المخيال» الصهيوني، فقد ذكر «هرتزل» في مُذكراته: بعد أول اجتماع مع دوق بادن الكبير: «كانت رحلتنا مُريحةً. فتح «هكلر» خرائط فلسطين التي كانت معه وأخذ يشرح ساعات. يجب أن تكون الحدود الشماليّة الجبال التي تقابل «كبادوكيه»، أما الجنوبية فقنال السويس: وسيكون شعارنا: «فلسطين داود وسليمان»!

سيطرةٌ اقتصاديّةٌ تمهّد لوقوع الاحتلال:

عاش اليهود في مصر منذ أحقاب بعيدة، جزءًا من نسيجها الفريد الذي ضم مسلميها ومسيحييها، في تفاعل إنساني مشهود. وفي حين تعرّضت التجمّعات اليهودية في أوروبا، (بشرقها وغربها)، إلى موجات من الكراهية وأشكال الاضطهاد والمذابح، وجدوا في البلدان العربية والإسلامية ملاذًا آمنًا، مُتسامحًا، تمتعوا فيه بالرعاية والحماية، فتدفقوا إلى دول المنطقة، وخصوصًا مصر، التي مثّلت موقعًا جاذبًا فريدًا، منذ اعتلى «محمد علي» سُدة الحكم عام ١٨٠٥، حيث اتجه إلى الاعتماد على الأجانب، (وكثير منهم كانوا يهودًا)، في تأسيس جهاز دولته، وبناء أسس مُلكه، سعيًا على طريق مشروعه النهضوي الرائد. ومع تعثر هذا المشروع، وتحطيم أسطوله البحري الكبير في موقعة «نفارين»، (٢٠ أكتوبر١٨٢٧)، أحكمت عليه الدول الأوروبية الحصار حول «الباشا»، وسعت إلى تفكيك احتكاره لتجارة مصر وصناعتها، وفرضت الـ «Open Door Policy»، (سياسة «الانفتاح الاقتصادي» بالتعبيرات المُعاصرة)، وهو ما عني مزيدًا من تدفّق الأجانب، وانتشارهم، أفقيًا ورأسيًا، في الخلايا والشرايين الاقتصادية

والسياسية، الرئيسة، للبلاد.

وهكذا بينما كان عدد اليهود في مصر يُقدّرون، في عام ١٨٣٥، بنحو خمسة آلاف نسمة، من مجموع السكان البالغ عددهم نحو مليوني نسمة تقريبًا، ارتفع عددهم بعد عقدٍ واحدٍ من السنين، بمقدار ٤٠٪، فبلغوا نحوً سبعةً آلاف نسمة، ثم قفز عددهم في إحصاءات عام ١٨٩٧ إلى (٢٥٢٠٠) نسمة، من مجموع السكان البالغ (٩٧٣٤٤٠٥) نسمة، وحسب إحصاءات ١٩٤٧ بلغ عدد اليهود في مصر (٦٤٤٨٤) نسمة، تركـــز معظمهم في القاهرة (٣٦١٥٥)، والإسكندرية (٢٥١٨٣)، وانتشر بقيتهـــم في منطقة الدلتا، والملاحظ أنه لم يكن يحمل الجنسية المصرية من هذه الأعداد إلا نحو خمسة آلاف مواطن فقط، فيما آثر الباقون حمل الجنسيات الأجنبية، أو البقاء دون جنسية.

وقد سار خلفاء «محمد علي»، من بعده، على نفس المنوال، وهيأ مناخ التسامح الديني السائد، آنذاك، فضلًا عن فرص الكسب الوفير، وخصوصًا بعد انتعاش زراعة وتجارة القطن المصري، إثر اندلاع الحرب الأهلية الأمريكية، لتدفق جموع غفيرة من الأجانب، تضاعفت أعدادهم بعد (عام ١٨٥٨)، عام صدور القانون الذي يسمح لهم بتملُّك الأرض واستثمار أموالهم في مصر، وساعدت الظروف التي تلت وقائع انكسار الثورة العُرابية، والاحتلال البريطاني العسكري لمصر (عام ١٨٨٢) على توفير مناخ مواتٍ، سياسيًا واقتصاديًا، لهذه النوعية من القادمين، بإقرار تحصينهم بعدم جواز محاكمتهم أمام المحاكم الوطنية، وإنّما من خلال «المحاكم المختلطة» التي أُنشئت لهذا الغرض، وهو ما أدّى إلي إسباغ «الحماية» الأجنبية على الآلاف منهم، (ومن ضمنهم يهود مصريين)، تمتّعوا بميزات الحصول على الجنسية الأجنبية، مع ما كان يعنيه ذلك من مكانة وفرص واسعة للكسب، وامتيازات واستثناءات غير مسبوقة، تذرى أمامها الفرص المتاحة لأبناء الوطن الأصليين!

أغلبية يهودية هامشية و«متفرنجة الطابع»:

وعلى الرغم من أن اليهود قد عاشوا في منطقتنا، في أغلب الأوقات، في ظل مناخ من التسامح والمساواة والحرية الدينية، إلا أنه من المُلاحظ، بشكلٍ عام، انفصال اليهود الأشكيناز، والطبقة العُليا من اليهود

السفارديم، عن القضايا والمعارك الوطنية المصرية؛ إذ ظلت الجماعة اليهودية في مصر، على الرغم من المكاسب الاقتصادية الكبيرة والعوائد الاجتماعية الرفيعة التي تحقّقت لها، وبالإجمال: «هامشية ومتفرنجة الطابع»، في عاداتها وتقاليدها ولغتها واهتماماتها الأساسية، أما أغلبية شرائح الطبقتين: الدنيا والوسطي، من اليهود السفارديم، فقد كانتا الأقرب للاندماج في المجتمع المصري.

من الهيمنة الاقتصادية إلى الاستعمار الاستيطاني:

وتعدّدت آليات السيطرة اليهودية على الأوضاع الاقتصادية المصرية في عهد «محمد علي»، ثم في عهود خلفائه، وأهمها الدور النشط الذي أداه اليهود في الربط بين النشاط المحلي وبين النشاط الدولي لـ «الرأسمال المتروبولي». مع إحكام هيمنتهم على النشاط المالي والتجاري الداخلي، وعبر عمليات التنسيق بين الرأسماليتين المتنافستين، البريطانية والفرنسية، وبلغت السيطرة اليهودية ذروة تأثيرها في الدور الذي أدته في عملية بيع أسهم قناة السويس لإنجلترا، وفي القروض التي منحتها البيوتات المالية اليهودية للخديوي «إسماعيل»، التي شكّلت الحبل الذي تم خنقه، وخنق مصر معه، حتى تم إعلان إفلاسه في ٧ أبريل ١٨٧٦، ثم بصدور «ديكرتو» بتوحيد ديون مصر العامة وديون الدائرة السنية، وإنشاء صندوق الدين، الذي كان بمثابة «فاتحة الاحتلال» لمصر كلها.

ولم يكتفِ الرأسمال اليهودي بهذا الوضع، بل زحف للسيطرة على بورصة الأوراق المالية المعروفة باسم «بورصة العقود»، المُنشأة عام ١٨٦٨، و» بورصة البضاعة الحاضرة»، المُنشأة عام ١٨٧٢، وهيمن على عمليات الإقراض للقطاع الزراعي الخاص عبر «البنك العقاري المصري»، المُنشأ عام ١٨٨٠، و»بنك سوارس» المُنشأ عام ١٨٨٦، وأنشأت الجماعات المالية اليهودية المرتبطة بالرأسمال البريطاني «البنك الأهلي المصري»، عام ١٨٩٨، لتمويل المشروعات الخاصة بالتوسُّع الاقتصادي الكولونيالي البريطاني، و»لتحويل مصر، نهائيًا، إلى مزرعةٍ للأقطان لحساب المتروبول البريطاني، وكانتْ الأغلبية العظمى من العاملين في البورصة المصري من اليهود، وفي مطالع أربعينات القرن الماضي كان الرأسماليون اليهود يُشاركون في إدارة وتوجيه ثلث الشركات الموجودة بمصر آنذاك (١٠٣ شركة من مجموع ٣٠٨ شركة)، في مقدمتها أغلب شركات التأمين الرئيسة!

الصهيونية تتحرّك:

وهكذا، فمع مقدم القرن العشرين، كانت الظروف جميعها في مصر قد تهيأت لأن ينهض العمل الصهيوني وسط تجمعات اليهود به على قدم وساق!

في مجال العمل التنظيمي: تم تأسيس «جمعية باركوخبا الصهيونية »، أوّل جمعية صهيونية بمصر، عام ١٨٩٧، بعد عام واحدٍ من صدور كتاب هرتزل «الدولة اليهودية»، ونشط فيها، بشكل رئيس، اليهود الأشكيناز، وعملت على بث الدعاية الصهيونية، ونشرها، وافتتحت فروعًا لها في مدن مصر الكبري،

كالإسكندرية وبورسعيد والمنصورة، وأُنشأت عام ١٩٠٠، مدرسة صهيونية للأطفال، لتعليمهم اللغة العبرية وفق المنهج الصهيوني. ومع مقدم القرن الجديد، وخاصةً في أعقاب إعلان وعد «بلفور»، شهدت مصر تدفّقًا ملحوظًا ومتنوّعًا في تكوين الجمعيات الصهيونية، ومنها: جمعيات: «أمل صهيون، والأدب العبري، وأحباء صهيون، وأبناء صهيون، وشباب صهيون، وبني صهيون، وزئير صهيون، ولجنة التنسيق الصهيونية، وأبناء صهيون للأمام، واتحاد أطفال صهيون، والدائرة القومية اليهودية، ودائرة هرتزل، والاتحاد الصهيوني، وجمعية مصر للدراسات التاريخية اليهودية، جمعية أصدقاء الجامعة العبرية في القدس»، ... إلخ. ومع احتدام الحرب العالمية الأولى أُنشأت العديد من أشكال دعم المهاجرين اليهود، منها «صندوق إغاثة اليهود في فلسطين» وغيره.

في مجال العمل الدعائي والأيديولوجي:

استخدمت الحركة الصهيونية الوسائط الإعلامية المتاحة، وعلى رأسها الصحافة، أفضل استغلال، لحشد الأتباع والأنصار من جهة، وللرد على وجهات النظر والرؤى المضادة، من جهة أخرى، واهتمت الأوساط الصهيونية بالصحف والمجلات الموجّهة بشكلٍ خاص إلى الشباب اليهودي، وقد قدمت الباحثة «سهام نصار» في دراستها عن (الصحافة الإسرائيلية والدعاية الصهيونية في مصر) قائمة تتضمن أسماء ٤١ جريدةً ومجلةً أصدرت بواسطة عناصر الطائفة اليهودية فيها، (أولها «أبو نظارة»، لـ «يعقوب صنّوع»، وآخرها «الصراحة» التي أسسها «صول مزراحي»)، العدد الأغلب منها يصب في خدمة المشروع الصهيوني ويُروّج له، ويدافع عن مستهدفاته، وصادر من هيئات ومؤسسات صهيونية صريحة، مثل جمعية «باركوخبا» وأمثالها، أو باسم أفراد ينتمون للدعوة الصهيونية، ويتحمسون لنشرها والترويج لها، وتجنيد الأنصار لصفوفها. وحتى حينما دفعت التباينات التكتيكية، بين الاتجاهات الصهيونية، إلى انشقاق جناح «زئيف جابوتنسكي»، (المتطرّف)، مُكوّنًا «المنظمة الصهيونية الجديدة»، هيئةً تعمل تحت سيطرة «حزب التصحيحيين»، كان هذا الجناح حريصًا على الوجود النشط في مصر، فأسس فرعًا لها في القاهرة، عام ١٩٣٥، وآخر بالإسكندرية، في العام التالي.

وفي مجال التدريب والعمل العسكري: طرح «زئيف جابوتنسكي» مُبكرًا فكرة «العمل العسكري اليهودي»، باعتباره الوسيلة الرئيسية لبناء الدولة الصهيونية المنشودة، ومن أجل تنفيذ هذه الغاية قدّم إلي الإسكندرية في أكتوبر ١٩١٤، حيث عمل على إنشاء «قوة بوليس» من يهود المدينة، تحت زعم حفظ النظام بين المهاجرين اليهود، الذين تدفّقوا عليها هربًا من ويلات الحرب العالمية الأولي، كما طرح فكرة تكوين «الفيلق اليهودي» على القيادة العسكرية البريطانية، لمساندتها في الحرب من جهة، ولتدريب الشباب اليهودي على العمل العسكري المتقدم من جهة أخرى، ونجحت جهود هذا التيار في الحصول على الموافقة البريطانية على تكوين فرقةٍ يهوديّةٍ تحت اسم «فرقة البغال الصهيونية»، «Zion Mule Corps»، التي استعرضت صفوفها يوم ٢٣ من مارس ١٩١٥ في معسكر القباري بالإسكندرية، بوجود«حاييم ناحوم» الحاخام الأكبر في مصر، الذي ألقى كلمته فيهم، مُحتفيًا بهم، ومُشبّهًا إياهم بـ «جنود موسي الذين خرجوا معه من مصر»!

ومع تطور الحرب الأولى وافقت بريطانيا على تكوين «الكتيبة ٣٨» اليهودية، التي أُرسلت إلى مصر لاستكمال تدريباتها في فبراير ١٩١٨، وبعدها «الكتيبة ٣٩»، التي وصلت مصر في أبريل ١٩١٨، ثم أنشئ في كل من القاهرة والإسكندرية مكاتب لتجنيد اليهود، ومن يهود مصر وفلسطين تشكلت «الكتيبة ٤٠»، التي التحقت بالجيش البريطاني في فلسطين، تحت اسم «فرقة المُشاه الملكية».

ومع مقدم نذر الحرب العالمية الثانية كانت مصر تموج بالحركة، وانتشرت قطاعات جنود «الحلفاء»، وبينهم الكثير من الصهاينة، للعمل وسط شباب الطائفة، من أجل نشر الدعاية الصهيونية، ولجمع التبرعات وتجنيد الأنصار، ونشط جهاز مخابرات «الهاجاناه»، «علياه بيت»، لبناء شبكة تهريب المهاجرين الصهاينة، عبر مصر، إلى فلسطين، ولم تنقطع «زيارات» قادة الحركة الصهيونية الكبار إلى القاهرة والإسكندرية: ناحوم سولوكوف، حاييم وايزمان، ماير ديزنجوف، جروسمان، إسرائيل سيف، بن جوريون، إسحق بن زفي، إلياهو ساسون... وغيرهم.

كما تحركت المنظمات الصهيونية، وعلى رأسها «الهاجاناه»، بقوة، في أرجاء مصر مع اقتراب موعد إعلان الدولة الصهيونية، وأنشأت منظمة «شتيرن» الإرهابية «تنظيمًا مُتكاملًا» في مصر، نَفّذَ العديد من العمليات الإرهابية في القاهرة والإسكندرية وفي المعسكرات البريطانية، ومنها: اغتيال «اللورد موين»، مسؤول السياسة البريطانية في الشرق الأوسط، في حي الزمالك، يوم ٦ نوفمبر ١٩٤٤، للضغط علي قوات الانتداب البريطاني في فلسطين من أجل الإسراع بتأسيس الدولة الإسرائيلية، وكذلك محاولة نسف مؤتمر الجامعة العربية، وتهريب الأسلحة والذخائر إلي فلسطين... إلخ.

واستخدمت الحركة الصهيونية الهيمنة الاقتصادية اليهودية، المُشار إليها آنفًا، في جذب نفر من الساسة المصريين المتنفذين، ومنهم رؤساء الوزارات المصرية الذين جيئ بهم مع حكومات الأقليّة القمعيّة، الموالية للقصر والاحتلال، في عهود الانقلابات الدستورية، مثل «أحمد زيور باشا»، و«إسماعيل صدقي باشا» رجل اتحاد الصناعات القوي، و«علي ماهر باشا»، ومحمود فهمي النقراشي باشا» (الذي أمر بحل «الرابطة الإسرائيلية لمكافحة الصهيونية» وحبس مؤسسيها من اليهود المصريين، فيما كان يتم التغاضي عن النشاط العلني للدوائر والجمعيات الصهيونية، بل وعن أنشطتها ذات الطابع العسكري المكشوف!).

وتعاونت الحكومة المصرية مع الحركة الصهيونية في إجهاض الحركة الشيوعية المصرية، بعد أن تغلغلت في الأوساط اليهودية الفقيرة والعاملة، خلال أعوام (١٩٤٦ ـ ١٩٤٨)، ويذكر الباحث «سيد عبد المنعم عبد الرحمن» في دراسته «الصهاينة في مصر حتى ثورة يوليو» أن «النخبة السياسية الحاكمة في مصر، في الأغلب الأعم، لم تكن ترى في الصهيونية خطرًا على منظومة الحكم، بل كانت تنظر للنشاط الشيوعي (في مصر) بعينٍ ملؤها الرعب، حتى لو كان هذا النشاط في صالح الأمن القومي المصري، وفي صالح الأمة العربية»!

وهكذا فحينما أزفت الساعة لاستكمال المخطط الاستعماري ـ الصهيوني والانقضاض على فلسطين منذ ثلاثة أرباع القرن، وهذا هو الحال في أكبر الدول العربية وأقواها آنذاك، مصر.. كان من الطبيعي أن يحدث ما حدث، وأن تنهار القلاع العربية كقصور الرمال، بعد أن تم اختراقها من الأعماق، وأن تسقط بلا مقاومةٍ تذكر، وأن تنتصر المؤامرة!

بين ليلى والذئب والسينما
على حافـةِ النكـبة

وليد عبد الرحيم
كاتبٌ ومخرجٌ سينمائيٌ فلسطينيّ/ سورية

... سينمائيًا وفنيًا أيضًا، يصعبُ فصلُ قرنٍ من الصراع الدامي المؤسّف في وعلى فلسطين عن جانبه الإنساني والأخلاقي، بل هما جانباه الأهم، وبلا شكّ من جانبه السينمائي، مما يُنتج مفردات ثقافته الصراعيّة الفريدة في مناحيه كافةً، بما في ذلك رومانتيكيّة النظر إلى الأرض والوطن والتاريخ والمستقبل مقابل النقيض المتخشّب الدّهائي.

يمكنُ النظر إلى الضحايا الفلسطينيين بعين، والنظر إلى اليهود بالعين الأخرى، فكلاهما ضحيّةٌ من زاويةٍ ما، لنقل من الجانب الأخلاقي، الفلسطيني ضحيّة مصالح الحكومة الماليّة والاستعماريّة الصهيونيّة العالميّة، واليهودي العادي ضحيّة الوهم والأسطورة الدينيّة، فالصهيونيّة لم تحتل فلسطين بدايةً، بل احتلت أوّلًا عقل اليهودي العادي، خاصّةً ذاك الذي كان يعيش وقت صياغة أوراق الصهيونية الأولى في وطنه بكل أمانٍ في مختلف البلدان، فتمّ ترحيله منها، إنه استغلالٌ فجٌّ للدين والوهم والدعاية والصورة، هكذا اشتغلت الصهيونيّة ليس فقط عبر حلم الرب يهوه أو وعده المزعوم، بل عبر مساحات تمدّدٍ استعماريّ أخرى إلى جانب الاستعلائيّة الأوروبيّة، ومن ثَمّ فأوّل احتلالها كان لعقل اليهودي ذاته، من هنا يبدو الخطاب « الإنساني» والسياسي عند اليهود الصهاينة بخصوص فلسطين خطابًا مرتبطًا بالوهم الديني المرتبط بمصلحيّةٍ نفعيّةٍ وصرّةٍ مختلقة، في حين يتوضح ذلك بمفرداته وفحواه عند الفلسطينيين بشكله الروحاني الوطني التضحوي، الأوّل يضحي بالقيم الإنسانيّة والارتقاء الفني أخلاقيًا عبر تبريريّةٍ نفعيّةٍ دينيّة، والثاني- الفلسطيني يدفع بروحه افتداءً لمعشوقته- جولييت.

أصبحت فلسطين بالنسبة لثقافة اليهودي مكانًا غنيًا مُنح له من الرب يهوه للاستثمار العنصري وبورك بدعم الدول الاستعماريّة، وسحر المناخ المعتدل والطبيعة الساحرة، أما بالنسبة للفلسطيني فهي تاريخُ حالة حب وذاكرة وهُوية وحلم، اليوم يقاتلُ الصهيوني باعتبارها قوّةَ احتلالٍ مسلّح، ويقاتل الفلسطيني عاشقًا ولهانًا، لهذا يحشد الجهد الصهيوني كلّ قوّته الثقافيّة والإعلاميّة تجاه الاقتناع بالأساطير والخرافات والوقائع الكاذبة، أما الفلسطيني فلا يفكّر كثيرًا في طرق لإقناع العالم بالأحقيّة، هو يشعر ويدرك باليقين والتلقائيّة بأنّ وطنه هنا ولن يكون له سواه، من هذه القاعدة بدأ اهتمام الصهيوني بالهيمنة على السينما ووسائل الإعلام للترويج باعتباره ضرورةً، ولم يبدأ كذلك بالنسبة للفلسطيني إدراكًا منه لوهج الحقيقة البديهي، هذا هو السرُ الحقيقي لبقاء الضعيف، لذا لم يضطر روميو بتقديم شرح لدليل حبه لجولييت، في حين يحاول فرانكشتاين منذ أكثر من قرنٍ خلا الهيمنة ماليًا وتلفيق المعلومات والخبر والرواية والصورة؛ لكي يثبت بأنّه مخلوقٌ طبيعيّ، هنا يكمن الجوهر العميق للمسألة!.

تبدو السينما منتوجًا مناسبًا للجهد الإعلامي المشفوع برغبات سياسيّة واقتصاديّة ترويجيّة، لذا فكلّ ما تمّ إنتاجه من العالم بأسره ويذكر فلسطين حتى وإنْ بشكلٍ عرضيّ يبدو حاملًا لفكرة ما، فكرة نتجت أوّلًا بناءً على معلومة- مفردة دينيّة، ثم تحوّلت إلى تاريخ.

بالنسبة للطرح المعلن روّجت الصهيونيّة « لإنقاذ» اليهوديّ من الغيتو الأوروبي، لكنّها في الحقيقة قامت بإغراقه في غيتو القتل سرًا لخدمة الحلف الإمبريالي العالمي، ومن هنا بدت الحاجة للسينما منذ البداية أمرًا حتميًا في مقدّمة الأمور الضروريّة الأخرى لتحقيق «دولة رعاع بملمح ديمقراطيّ» مما يوجب حشد المال والمخْتصين والتقنيات ومواكبة كل ابتكارٍ إعلاميّ جديد، بدأ ذلك منذ نهايات القرن التّاسع عشر بما فيها محاولاتُ سرقة اختراع آلتي التصوير والعرض من صاحبهما ومخترعها العالم الشهير «توماس أديسون».

فقد سعى يهوديٌ مرتبطٌ بالحركة الصهيونيّة يدعى «كارل لاملي»، وهو ذات الاسم الذي أضحى فيما بعد صاحب ومؤسّس كبرى شركات الهيمنة السينمائيّة في هوليوود إلى سرقة اختراع أديسون للآلة السينمائيّة والادّعاء بأنّها ملك براءة اختراع حصري له، إلا أنه فشل في مسعاه بسبب شهرة أديسون ومرموقيته وموثوقيته عالمًا، وتعدّد اختراعاته ومكانته العلمية، كان هذا في البدايات، لكن المال اليهودي وجد طريقةً التفافيّةً أخرى بعدها للهيمنة، ألا وهي ضخّ رأس المال لتمويل وترويج صناعة وتوزيع الأفلام وتوجيه دفتها لصالح المشروع، فقام «كارل لاملي» مع مجموعات منظمة بتقليد ونسخ اختراع أديسون للآلة السينمائية ثم نشرها وإرسالها لأصدقاء في أوروبا وعدة ولايات أمريكية. ثم أنشأ وشركاءَهُ اليهود عقب ذلك في الولايات المتحدة شركة تختص بتوزيع المنتجات السينمائيّة، وهي شركة «يونيفيرسال» الشهيرة حتى اليوم!

منذ بداية السينما والهبة الإعلامية، لم تجد الكتلة المالية الصهيونية اليهودية في أميركا وهوليود بدعةً أفضل من إطلاق تهمة المعادة للسامية لمن يغرّد خارج سربها، فإلى جانب الضخ المالي بدعم سخيّ من آل روتشيلد والبنوك المرتبطة بمًا يعرفّ اليوم في أروقة السينما بحكومة المال، وكما في السياسة، اتهمت الحكومة الخفيّة من يقف في طريق هيمنة اليهود على الإنتاج السينمائي والإعلامي بمعاداة السامية، حتى إن أديسون المسكين نفسه وُصف بـ«كاره اليهود»، وهكذا بدأت حمأة الهيمنة في بواكيرها واتضحت قوة الكتلة اليهوديّة تدريجيًا بعد فشل وارتباك واضحين في البدايات، إلا أنها احترفت الأساليب والخبرة بسرعة فائقة.

في عام ١٩٢٣ أسس والت وشقيقه روي ديزني شركة والت ديزني التي تُمثّل إحدى شركات السينما ووسائل الإعلام والترفيه العملاقة على مستوى العالم. كانت قد بدأت على شكل إستوديو لفن الإنيميشن- التحريك- الكرتون، في البداية لم يرضخ والت ديزني للضغوط

كما هو معلوم، وعقب فشل الكتلة الصهيونية في إخضاع ديزني بدأت باستخدام تهمة «اللا سامية» الجاهزة في الأدراج، خاصةً عندما أنتج ديزني فيلمًا لا يخلو من براءة كوميديّة بعنوان «الخنازير الثلاثة الصغيرة» إذ إنه أظهر في هذا الفيلم ذئبًا على هيئة بائع يهودي، حيث يقوم البائع بخداع الخنازير الصغيرة المسالمة لإقناعها بفتح باب المسكن - في تشابه مع قصة ليلى والذئب -، كان هذا الفيلمُ مادةً مناسبةً للصدام مع والت ديزني، ولشنّ حملة مشفوعة بعبارات العنصرية ومعاداة السامية، ما دفعه مجبرًا لحذف المشاهد المتعلّقة بالبائع اليهودي وأحداثها المتعلّقة بخداع الخنازير الصغيرة البريئة من الفيلم، إلّا أنّ المنظمة اليهوديّة استمرّت في محاربته من أبواب أخرى، فحين قلّص ديزني عمله وخفّض أجور العاملين وسرّح عددًا من العمّال لديه بعد خسائرَ ماليّة متكرّرة، تم دفع العمال إلى تنفيذ إضرابات واحتجاجات، وقد صرّح هو بنفسه بأنّها من «ترتيب اليهود»، إلى أن ضعف ورضخ للتمويل فيما بعد وتلقى قروضًا وأبرم عقودَ تعاونٍ مع الكتلة اليهوديّة عبر «لوبي السينما».

... انزعج اللوبي من قيام أوروبيين بالتوجه نحو فلسطين مبكرًا لتصوير أفلام فيها، لا سيما من قبل الأخوين لوميير، وهما الفنانان الفرنسيان اللذان أنجزا فيما بعد أوّل أفلام السينما عالميًا، حيث قاما بتصوير عدة مدن ومعالم حضارية ودينية في فلسطين، لا سيما في عاصمتها القدس، وسردا عبر الصورة حياة الناس فيها بشكلٍ توثيقيّ مدفوع بإيمان مسيحي كونها الأرضَ المقدّسة السّاحرة، كان هذا في ١٨٩٦ أي بعد عام واحد فقط من ابتكار توماس أديسون للكاميرا السينمائية، وقبل ابتكارهما لمفاهيم الفيلم السينمائي المتكامل وأسسه بسنوات، إذ إنهما قاما بعرض أول الأفلام السينمائية في صالات باريس عام ١٩٠٥، إلا أنّ ذلك بدوره أزعج الحركة الصهيونيّة الناشئة، فقد كانت تروّج بأنّ فلسطين صحراء لا سكان فيها، وهي تنتظر عودة الشعب المختار، وعلى هذا اشترت بمال مغر العديد مما تم تصويره في فلسطين من الأرشيف الفرنسي والبريطاني وأخفتها ثم أتلفته على أرجح تقدير!

إلى جانب قوة وحنكة رأس المال، يعكس ذلك بكل تأكيد ذكاءً وخبثًا عاليين بخصوص إدراك أهمية الصورة المرئية السينمائية مبكرًا من قبل اللوبي الذي لم يكن بعيدًا أيضًا عن المساهمة في الامتداد العالمي للسينما بما فيها السينما العربية.

إبراهيم وبدر الأعمى «لاما» هما مؤسّسا السينما العربية، قاما بإنشاء أول شركة إنتاج في الوطن العربي « كوندور فيلم»، وصنعا

أول فيلم سينمائيّ عربيّ « قبلة في الصحراء» عام ١٩٢٦، كما وأول استوديو تصوير، كان إبراهيم في الأصل مصورَ فوتوغراف، ومخرجًا مسرحيًا، ثم أصبح فيما بعد سينمائيًا، أما شقيقه بدر فممثّلٌ مسرحيٌ ثمّ سينمائيّ.

هما فلسطينيان من مدينة بيت لحم، كانا مهاجرين في أميركا اللاتينية، إبراهيم لاما «الأعمى» وبدر، قررا العودة نهائيًا إلى الوطن، وقد خططا مسبقًا للإقامة في حيفا على الساحل الفلسطيني فحملا كاميراتهما ومعداتهما وتوجّها على متن باخرة ركابٍ نحو الوطن.

ألمّتْ الحُمّى ببدر وهما على متن الباخرة، فاضطرا للنزول في الإسكندريّة بمصر، هناك سمعا واطّلعا على ما يحدث في فلسطين من ثورات واضطرابات، فقرّرا الانتظار في الإسكندريّة ريثما يهدأ الوضع، لكنّهما سرعان ما استقرّا فيها تلقائيًا وبدآ العمل السينمائي، فوضعا أولى أسس السينما في الوطن العربي. لكن، كان الذئب في المرصاد وليلى على براءتها!

... «توجو مزراحي»، منتجٌ ومخرجٌ يهوديٌ إيطاليٌ يعيشُ في الإسكندرية بمصر، قام بعد سنوات من إنجاز الأخوان لاما لفيلمهما الأول بتأسيس إستوديو سينمائي، بعد أن عاد من فرنسا التي مكث ودرس فيها وحصل على شهادة الدكتوراه في الاقتصاد، حيث بُهر بالسينما أثناء سنوات مكوثه في فرنسا ومشاهدته لمراحل تصوير الأفلام، فقرر العمل في المجال السينمائي، خاصةً بعد أن دأب على زيارة إستوديو «جومون» للتصوير، ذلك الشهير في باريس.

بعد عودته من فرنسا التي مكث فيها عشر سنوات، ولم يزر مصر أو يمكث فيها منذ عام ١٩٢٠- حتى ١٩٣٠. أخرج توجو مزراحي وأنتج أول فيلم له باسم «الهاوية» بمجرد عودته لمصر، وهو فيلم روائي طويل (صامت) أُنجز بعد أربعة أعوام من إنجاز لاما لفيلم «قبلة في الصحراء» وعرضه. الطويل الصامت أيضًا عام ١٩٢٦ وعلى الرغم من ذلك يصر البعض حتى اليوم على تأريخ السينما العربية باستثناء فيلم لاما ويطرح فيلم مزراحي أول فيلم عربي وعلى أنه المؤسس للسينما العربية ورائدها!

كانت أسرة مزراحي من عائلات الثراء المعروفة في الإسكندرية، ما أتاح له الكثير، ثم إنه كان قد عقد اتفاقًا مع شركة عالميّة منحته المال مسبقًا، وهو في فرنسا، وذلك قبل أن ينجز أي فيلم! بل ودربته هناك على الإخراج والتصوير، فعاد إلى الإسكندريّة يحمل المعدّات والمال عام ١٩٣٠.

تعرف مزراحي بعد حين بالفنانة الصفديّة الفلسطينية اليهودية الشّهيرة ليلى مراد، صنع لها العديد من الأفلام، وهي التي قالت ذات يوم بحسب رواية نجيب الريحاني».. صرحت ليلى مراد على مسمعي بأنها لم تكن تُعرّف نفسها إلا بكونها عربيةً فلسطينيةً أحبت بلدها كما أحبت مصر حتى التقت بمزراحي وعملت في أفلامه، يضيف على لسانها «فصرت يهوديّةً أوّلًا»!

كما أخرج مزراحي وأنتج فيلم «سلامة» للسيدة أم كلثوم وعدة أفلام كانت مساهمةً بلا شكّ في بدايات السينما العربيّة، لكنّه دونما أدنى شك لم يكن مؤسّس السينما العربيّة عام ١٩٣٠ وليس قبل عام ١٩٢٦ بكلّ تأكيد!

في ذكـرى النكـبة الـ 75..
الشعبُ الفلسطينيُّ في الاتّجاه الصحيح

محمد أبو شريفة
كاتبٌ سياسيٌّ فلسطينيّ/ سورية

تتجدّد المأساة الفلسطينيّة وتعيدنا معها إلى البدايات، سبعة عقود وبضع سنوات والسرديّة الفلسطينيّة ما تزال على حالها، تروي الألم الدائم والمستمرّ وتأمل الخروج من دائرتها. فبعد احتلال فلسطين بالكامل كانت الحكوماتُ الصهيونيّةُ المتعاقبة تخرج وتعلن الانتصار وتحقيق الأهداف، وهو الأمرُ ذاته الذي أعلنه نتنياهو بعد انتهاء الجولة العدوانيّة الأخيرة على قطاع غزة، وبأنّ (إسرائيل) تمكّنت من تدمير قدرات المقاومة الفلسطينيّة وإضعافها إلى المستوى الذي لا يمكنها من استرجاع عافيتها بسهولة. ولكن اللافت أن نتنياهو الذي يحتاج هذه الحرب العدوانيّة لاعتباراته، لن يكون قادرًا وفق استطلاعات الرأي الإسرائيليّة على تحمّل كلفتها، ولا كلفة استرضاء جمهور الناخبين الذين سيغيرون موقفهم الداعم لحكومته في استمرار العدوان إلى تبادل التهم، سيما في ظلّ المناكفات والتصدّعات داخل مجتمع الاحتلال التي تزيد من حدة الصراعات والانقسامات.

تجدّدت الجولات خلال العقدين الأخيرين لتثبت المقاومة أنّها تمتلك قدرات أقوى من الجولة التي قبلها. وفي المواجهاتِ الثلاثة الأخيرة (سيف القدس)، (وحدة الساحات)، (وثأر الأحرار)، شهد العالم على أداء مغاير لقوى المقاومة تمثّل بتطور نوعيّ في القدرات التسليحيّة، تجسد بالقذائف الصاروخيّة التي جعلت كل التجمع الاستيطاني في فلسطين المحتلّة تحت مرمى الصواريخ، إضافةً إلى قدرة غرفة العمليات المشتركة على إدارة المواجهة، وفقًا لمقتضيات الواقع السياسي والميداني ومراكمة الخبرات للتحكم بإيقاع المعركة.

ليس هذا حدثًا طارئًا في ميزان القوى العسكري، لكنه تغييرٌ واقعيٌّ يلقي بتداعياته على المشهد السياسي في المنطقة، ويؤكّد قاعدةً مهمّةً بأنّ الشعب الفلسطيني ما يزال مستعدًّا للاشتباك والتضحية ومقاومة الاحتلال بكل الوسائل المتاحة ولن يستسلم لأوهام سرديّة سيطرة القوي وإنهاء القضيّة، قبل أن ينال حقوقه المشروعة. وبالرغم من الانقسام الفلسطيني القائم، إلا أنّ وحدة الشعب الفلسطيني في الضفة والقطاع، أنجزت معمّدة بالتضحية والدم. وكان من أهم تفاعلات العدوان على غزة، ما أظهره الشعب الفلسطيني في الضفة الفلسطينية من استعداد لتطوير أدوات المقاومة النوعية والمسلحة وأشكالها، وانتفاضة الفلسطينيين في الداخل المحتل، والروح الكفاحية التي برزت في عموم الشارع العربي، نصرةً للحق الفلسطيني، وأيضًا سقوط معادلات سياسيّة وأمنيّة كانت قائمةً وكأنّها مسلّمات، حيثُ سقطت معادلة الاحتلال والأمن في فلسطين، ومعادلة التطبيع العربي مع (إسرائيل) سقطت هي الأخرى.

إذن، فقوى المقاومة تفرض حضورها وثقلها بنجاحها باجتياز الضغوطات، فلا تهدئة ولا أمن قبل أن ينعم الشعب الفلسطيني بالأمن والحرية ومحاولات تغيير الوضع القائم، باستهداف قيادات الميدان تفجر أشد مواجهة مسلحة، وهذا مكسبٌ كبيرٌ للشعب الفلسطيني ويصب في مصلحة جميع الأطراف، وهنا تغدو الحاجة ملحّةً لتفعيل آليات الوحدة الوطنية على أساس الثوابت والقواسم المشتركة.

إنّ المنطقة تتغيّر ويتعيّن على الدول صاحبة المصلحة أن تجاري هذا التغيير، فالمقاومة في الضفة وغزة ليست مجرد مقاومة فصائل فلسطينية فقط، بل أضحت لاعبًا مهمًّا في المعادلة العربيّة والإقليميّة لا يمكن تجاهلها، والشعب الفلسطيني الذي يصنع المستحيل ويبتكر كل يوم أساليب كفاحيّة ونضاليّة جديدة، هذا الشعب، أثبت أنه أكبر من قياداته، وسيمتلك القدرة بدعم أمته العربية وأحرار العالم على تحقيق الانتصار وطرد الغزاة عن أرض فلسطين.

أكثر من سبعة عقود والشعب الفلسطيني يواجه بصدره العاري جرائم قتل وحشيّة في الضفة والقدس وغزة، مترافقةً مع اقتحامات للمدن واعتداءات يوميّة على المسجد الأقصى، واعتقالات وسلب ونهب للأراضي وتوغّل استيطانيّ وتدمير للمنازل وتهويد للقدس ومحيطها. هذه الجرائم ما تزال مستمرة، ويعلن العدو صراحةً أنّها بمثابة عملية عسكرية مفتوحة تتطلب الاستنفار العام، لذلك فإن العمليّة العدوانية الأخيرة على القطاع حققت بنظر الحكومة الصهيونية عدة أهداف، أهمها: إرضاء نتنياهو لليمين الديني العنصري والسياسي الإسرائيلي، وتمكين موقع حكومته ومكانتها أمام المخاطر من انهيارها بسبب الخلافات داخلها، وإرجاء المخاطر المحتملة ضد حكومته من الشارع الإسرائيلي لاعتبارات عديدة، وتحسين شعبية الحكومة في نظر الناخبين باعتبارها تتخذ زمام المبادرة بشن عمليات استباقية أو انتقامية من الفلسطينيين، إلا أن هذه النظرة تدحضها استطلاعات الرأي الإسرائيلية

الأخيرة والتي أشارت إلى أن أكثر من ٧٠ ٪ من الإسرائيليين غير راضين عن السياسة الأمنية الإسرائيلية.

الدم الفلسطيني لا يتوقف عن النزيف منذ قرن مضى، وكلما أرادت حكومةٌ صهيونيّةٌ تحسين شعبيتها، ترتكب الجرائم بحق الفلسطينيين، بذرائع مختلفة، وعلينا أن نترقب إلى أين تذهب كل فلسطين خلال الأشهر القليلة المقبلة؛ لأنّ رد فعل الفلسطينيين سيولد رد فعل إسرائيلي، بما يجعل كل فلسطين أمام حربٍ كبيرة. فما يحدث ليست مجرّد عمليّات عسكريّة تقليديّة للاحتلال، بل هي مجازرٌ والمجتمع الإسرائيلي الهش أساسًا، لا يحتمل ردّ الفعل خصوصًا، إذا جاء موحّدًا وقويًا، وستخرج الأصوات التي تندد بالحكومة الإسرائيلية والأكثر تطرّفًا، الذي يقوم بإدارتها نتنياهو باعتباره هو الذي قاد مجتمع الاحتلال إلى مستنقع الدم في توقيت يزخر بالأزمات. ولذلك يتطلب هذا الواقع من الفلسطينيين استنفار الطاقات المتراكمة عبر السنين الماضية بتحقيق الوحدة الوطنية الفلسطينية وإنهاء الانقسام ورفع الصوت عاليًا أمام العالم أجمع لسحب الاعتراف بالكيان الصهيوني، فهل يعقلُ أن يستمرّ الاعتراف الرسمي الفلسطيني بمجموعة من المجرمين والإرهابيين على رأسهم نتنياهو وبن غفير وغيرهم؟!

أيضًا يتطلّب الواقع الراهن إلغاء اتفاقات أوسلو بكل ملحقاتها وبلورة استراتيجيّة عمل فلسطيني، تقوم على قاعدة خيار الاشتباك بجميع أشكاله وعلى رأسه المقاومة المسلحة خيارًا استراتيجيًا في مواجهة الاحتلال الذي يعيش مأزقًا وجوديًا، نتيجة تناقضاته الداخلية العميقة ونتيجة صمود الشعب الفلسطيني على أرضه ونمو وتصاعد قوة قوى المقاومة في المنطقة والتحولات الكبرى على المستوى الدولي وبداية إمكانية تشكّل نظام عالميّ متعدّد الأقطاب تنتهي فيه الهيمنةُ الأمريكية والإمبريالية في السيطرة على العالم.

لا شكّ أن كفاح الشعب الفلسطيني يدخل مرحلةً جديدة، فنحن أمام جيلٍ فلسطينيّ جديد لا يعرف المستحيل ولا يخشى قوىً الإرهاب الصهيوني، جيل فلسطينيّ جديد مشتبك يتبنّى خيار الاستنزاف في وجه المحتلّ ويدفع باتجاه تطوير الأداء الكفاحي، وذلك لتمكين الشعب الفلسطيني من الحصول على حقوقه في تقرير مصيره، هذا الجيل الفلسطيني الجديد الذي كان من المفترض أن ينسى القضية وفقًا للرواية الصهيونيّة، أثبت أنّه صامدٌ على أرضه ويستطيع خوض المعركة بمفرده رغم محاولات تزييف الوعي الذي تعرض لها في العقود الأخيرة. ومنذ زمنٍ بعيد قالت غولدا مائير وقادة صهاينة آخرين بأنّ الكبار من الفلسطينيين سيموتون والصغار سينسون، وجاءهم جيلٌ فلسطينيٌّ جديدٌ لم ينسَ شيئًا من رواية الآباء والأجداد، وواصل الاشتباك والكفاح والمقاومة والصمود بعزيمةٍ أشدّ وإرادةٍ لا تلين.

ما بين نحن وهم تتعمق الجراح وتتخذ شراسةً غير معهودة، فالمتأمل لتاريخ الصراع يرى أن هذا العدو ازداد من توحّشه وهمجيّته عبر فعله الدموي المتواصل، ثمّة من يفسّر توحش المحتل بصمود الرواية الفلسطينية، عبر أهلها الشجعان الذين واصلوا دفاعهم عن الأرض والتاريخ والمقدسات. إن منسوب توحش الأعداء يذكرنا دائمًا بالتجارب الداخلية للشعوب قاطبةً التي خرجت من أسر محتليها بعد أن تكشف الصراع الدموي على أرضه، فلا غرابة أن يدخل عدوّنا ضمن هذا القانون الإنساني الذي لا يشذ، فزوال الاحتلال وعودة الأهل إلى الديار لم تعد مجرد أحلام متناثرة، بل تحوّلت عبر المسيرة النضاليّة للشعب الفلسطيني إلى برنامج عملٍ أثبت فيه الشعب الفلسطيني حضوره الفعال.

ولو تعمقنا أكثر ونظرنا بعينٍ مفتوحةٍ إلى ما يجري في الخندق المقابل، سنرى حجم التهتكات في بناه السياسية والأيديولوجية، فاللغاتُ الذي ينضح بها خطابهم السياسي حول رؤيتهم لأنفسهم وللآخر والمحيط لا تشي بأن الأعداء ما زالوا ضمن نطاق التفكير الإنساني، ففي كل تفصيل من خطابهم، نرى أنهم غير قادرين على بناء كينونتهم الذاتية دون القفز على جراحنا.

ومن تلك المعادلة التي رست في العقدين الأخيرين ما زال الفلسطيني يبحث عن أخوة السلاح وعن النصير وعن كل ما يتطلبه الأمر من مواصلة كفاحه، والمشهد هنا ليس رديًا على الإطلاق وفيه من الدم ما يكفي لكي يصبغ وجه الإنسانيّة.

٧٥ عامًا والأمل ينتج إرادة وفعل ومقاتلين، والمسيرة ما تزال مستمرةً، صحيحٌ أنّها تبطئ في بعض اللحظات وتتراجع أحيانًا، لكن الرواية الفلسطينيّة حاضرةٌ في وجدان الشعب الفلسطيني وكل الشعوب العربية والشعوب المناصرة لهذا الحق، وما تزال فلسطين عنوانًا أساسيًا من عناوين الاشتباك ما بين خطين لا ثالث بينهما، خط الحق وخط الباطل، مهما حاول الاستبداد العالمي تغيير المعاني والدلالات للمفاهيم والمصطلحات التي اجترحتها الإنسانيّة منذ فجر التاريخ وحتى الآن. ففي فلسطين كسرت معادلة البقاء للأقوى وفق المعايير الغربيّة، فالأقوى هنا من بقي صامدًا، فيما الطرف الآخر يعود إلى التيه بعد أن حرقته أيديولوجيّته المجنونة.

في الذكرى الـ ٧٥، علينا أن نعيد الاعتبار لكل مجريات المسيرة، وأهمّها الاعتبار للذات الفلسطينيّة التي راكمت عبر تلك السنوات الكثير من نقاط القوّة، التي بدورها ما تزال تشاغلُ فيه هذا العدو، فالنكبةُ لديها وجهان؛ الأول: يطلّ على كل مآسينا، والثاني: وفي مختبره صنعت فيه الهُوية الفلسطينيّة التي لا تفنى.

النكــبة..

عندما تمّت رشـوة التـاريـخ !

أكرم عطا الله

كاتبٌ صحفيّ/ بريطانيا

النكبة ... هي اللحظةُ الأكثرُ إيلامًا بمسيرة شعب، والكلمةُ الأكثرُ دقّةً في توصيف كارثةٍ لحقت بالشعب الفلسطينيّ المستقرّ على أرضه لآلاف السنين، نما وتطوّر وطوّر ثقافتَه التاريخيّة التي أنتجت فرادة هُويته وتميّزه باعتبار فلسطين كانت أرضًا للأديان والأساطير، ومنطقةً تفجّرت فيها صراعاتٌ منذ فجر التاريخ، وفيها تم اكتشاف الزراعة، كان للفلسطيني ما يعكس هذا التميّز وتلك التجربة الأكثر استقرارًا.

التاريخُ أحيانًا ساخرٌ، مثل لعبة الدومينو، حيث كان للحرب العالمية الثانية، التي وزعت مأساتها على كلّ مدن أوروبا، أن تجمع تلك المآسي وتحطّ بها في فلسطين، وهكذا كان. انتهت الحرب العالميّة، وأعيد الذين هجّروا في أوروبا إلى بلدانهم ومدنهم، لكنّها تسبّبت بهجرة شعبٍ على بعد آلاف الأميال، كيف ولماذا؟ تلك سخريةُ التاريخ.

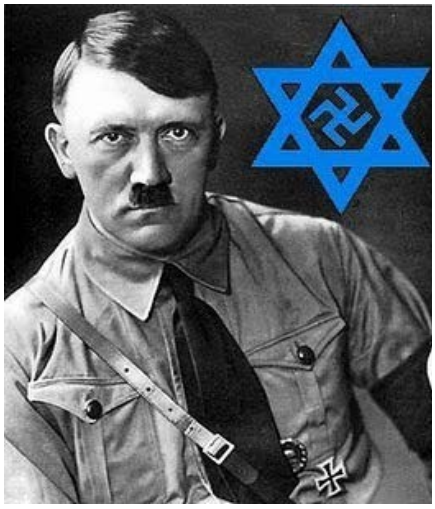

ارتكب هتلر حماقته التاريخيّة ليحول اليهوديّ الأوروبيّ الذي يعيش في غيتوات معزولة في تلك القارة خوفًا من الاندماج بالشعوب، وتلك عرّضته للنبذ في عديد من دولها ليتحوّل اليهودي إلى ضحيّة التاريخ الجديدة، هكذا كانت أوروبا بدولها تعيد تطهير ضميرها من المحرقة بتلويثه من جديد في جريمةٍ جديدةٍ ارتكبت بحقّ الشعب الفلسطيني.

صحيحٌ أنّه كان هناك من بريطانيا ووزير خارجيّتها بلفور وعدٌ بإعطاء وطنٍ قوميّ لليهود في فلسطين، لكن ذلك الوعدُ لم يكنْ يكفي لإقامة تلك الدولة التي أقيمت على أنقاض الفلسطينيين وطردهم من أرضهم، فالهجراتُ اليهوديّةُ إلى فلسطين ظلّت محدودةً قبل وصول هتلر للسلطة في ألمانيا، ولم يكن عدد اليهود يكفي لإقامة دولة، ولا الزخم الدولي كان مسكونًا بهاجس المسألة اليهوديّة رغم نشاط الحركة الصهيونيّة لوضعها على الأجندة الدوليّة المشغولة آنذاك بصراعات القارة، فلم يكن سوى بريطانيا التي كانت تسيطر على فلسطين وحدها تحمل لواء المشروع الصهيوني، لكن الظروف الدولية المشغولة بذاتها لم تكن عاملًا مساعدًا لإنضاج مشروع تكفّلت به بريطانيا لولا الحرب العالمية الثانية والمحرقة.

النكبة كانت الحدث الأبرز في منطقتنا، حيث يتمّ اقتلاعُ شعب كامل وتهجير شعوب كاملة من جنسيّات أوروبيّةٍ متعدّدةٍ لتحلّ مكانهُ في أسوأ ما تفتق عنه العقل الأوروبي، حيث الاقتلاع والتشرد والقتل الذي قامت به العصابات الصهيونيّة التي كانت تتكاثر تحت غطاء الانتداب البريطاني في الكيبوتسات تدريبًا وتسليحًا، في محيط عربيّ كانت قد تمّت السيطرة عليه بعد الحربُ العالميّة الأولى بتقسيمه بين بريطانيا وفرنسا بالأساس؛ ما استكمل تجريد الحالة العربيّة من ممكنات قوتها، حيث خضوع جيوشها وتسليحها لسيطرة المحتل آنذاك ما أبقاها لا تصلح للحروب، بل لمواجهة جماهيرها في الداخل ولمواجهة التظاهرات في أبعد الحدود وليس للحرب.

تعرّض الشعب الفلسطيني لأبشع عملية تهجير دام في التاريخ، وتشتّت في دول الجوار، وهذا أسوأ ما حصل، حيث حدث ما يشبه انفراط تماسكه فكف عن النمو الطبيعي مجتمعًا متماسكًا، وتوقّف تطوّره الحضاري، حيث احتلت إسرائيل الشريط الساحلي لفلسطين، وسيطرت على كل المدن المطلّة على البحر المتوسّط، ولم تبق سوى غزة المدينة الساحلية التي كان لا بدّ وأن تعيد بعث الحركة الوطنيّة الفلسطينيّة، ولم يكن ذلك من مصادفات التاريخ، ويعود لأسباب كثيرة لكن موقعها الساحلي كان يدفع تجاهَ إعادةِ البعث تلك.

توزّع الشعب الفلسطيني خارج فلسطين، حيث الكتلة الرئيسية لجأت إلى دول الجوار؛ الأردن شرقًا، ولبنان وسوريا شمالًا، أما من بقي في داخل فلسطين التاريخيّة فقد توزّعوا على ثلاث مناطق في الضفّة الغربيّة وغزّة، ومن تبقّوا داخل مناطق الـ ٤٨، وهكذا كادت الهُويّة الفلسطينيّة تندثر مع هذا الانتشار تحت إدارة نظم سياسيّة متعدّدة بين الأردن ومصر وسوريا ولبنان أمّا ما تعرّض له فلسطينيو الداخل كان الأكثر قسوةً، حيث تم فصلهم عن محيطهم العربي وتعرّضوا لعملية أسرلة أريد لها انتزاع تلك الهوية التاريخية لصالح إسرائيليّة مشوّهة، بل وخضعوا للحكم العسكري الإسرائيلي في الداخل، واستمر ذلك حتى عام ٦٦ بعد الخضوع لعملية تخويف وتجريف لثقافتهم، بدأت إسرائيل بدمجهم في المجتمع الاسرائيلي في إطار عملية الأسرلة والتدجين والتشويه تلك ربّما كانت الأكثر ضراوةً أن يتماثل هذا الجزء الذي تبقّى من الشعب مع من اغتصب أرضه وشرّد شعبه وارتكب المجازر بحقّه أريد له أن يصبح جزءًا منه.

ونتاج هذا الزلزال اختفت القيادة التاريخية الفلسطينية التي كانت جزءًا من الهزيمة الكبرى والنكبة ولعقدين، بعدها كان الشعب الذي تعرّض لها هائمًا بلا قيادة وبلا مشروع ولم يعد مجتمعًا متماسكًا، بل مجموعاتٌ من البشر التي توزّعت وخضعت لأنظمة مختلفة ومتعارضة أحيانًا في ثقافاتها، أي أنّ العقدينُ اللذين تبعا النكبة كانا أسوأ عقدين مرّا على الشعب الفلسطيني المصدوم لولا تشكّل منظمة التحرير الفلسطينيّة بفكرة الزعيم التاريخي للأمّة جمال عبد الناصر، التي تكفّلت بإعادة لملمة صفوف الشعب الفلسطيني وتجميعه على شعارٍ موحّد وبرنامجٍ موحّدٍ وكان للفصائل التي تشكّلت

منتصف ستينات القرن الماضي الدور البارز في إعادة تجميع صفوف الشعب الفلسطيني وإخراجه من صدمة ضياع الأرض والوطن وصدمة اللجوء.

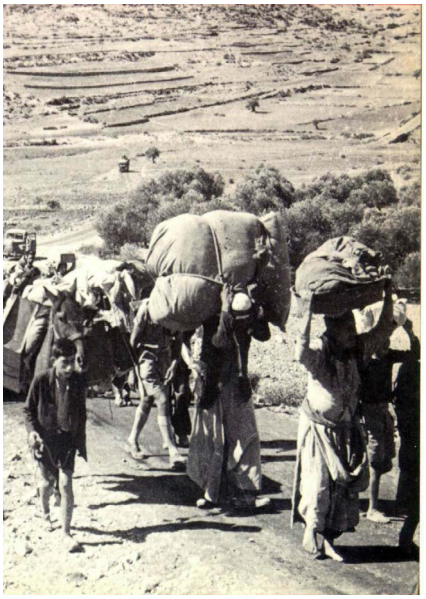

لم يكن رحيل الفلسطينيين عن مدنهم وقراهم يتمّ لولا المذابح التي ارتكبتها العصابات آنذاك، التي بدأت ظاهرة المؤرخين الجدد التي نشطت في تسعينات القرن الماضي، وأبرزهم الباحث بني ثيودور كاتس الذي كشف حقائق مذبحة الطنطورة التي ارتكبها لواء الإسكندرون في الهاجاناة، وقد وفّر المؤرخ بني موريس من الوثائق ما يجعل من الجرائم والمجازر التي ارتكبت ما يندى له جبين العالم الذي أسهم بإقامة إسرائيل، هذا كان من شهادات إسرائيليّة أما الشهادات الحية الفلسطينية فقد كانت حديث الفلسطينيين الذين عايشوا تفاصيل تلك المجازر والمذابح، وظلت تسبّب جرحًا عميقًا في ذاكرتهم حيث قتل المصلوبين على الجدار ودفن الأحياء، وتم إلقاء البعض في آبار المياه تلك كانت مسيرة شعب ونكبته شاء قدره أن يكون ضحية التاريخ وضحية صراعات الكون.

لعقود طويلة بلغت سبعة ونصف العقد ظل الشعب الفلسطيني بعيدًا عن أرضه، ولم تتحقّق أحلامه الوطنيّة بالاستقلال، فهو لم يتعرّض للطرد فقط من المناطق التي احتلّتها إسرائيل، وأقامت عليها دولتها، بل لاحقت من تبقى في فلسطين خارج إسرائيل لتحتلّه وتتحكّم به، وهو يتعرّض يوميًا للملاحقة والسجن والإذلال، كل هذا يحدث أمام مؤسّسات دوليّة أقيمت لإنصاف الشعوب وإصدار أحكام على تجاوزات حقوق البشر، وتتكدّس محاضرها ومواثيقها بما يكفي من تلك القيم والمبادئ، ولكن تلك المؤسسات بات واضحًا أنّها أعجز من إصدار موقف أخلاقيّ بحقّ الفلسطينيين وليس حلّ قضيّتهم.

الولايات المتّحدة الأميركيّة الراعي الرئيسي للمشروع الإسرائيلي بعد أن تكفّلت أوروبا بإقامته، وقفت ضد الفلسطينيين مبكرًا فهي لم تكف عن اتهامهم بالإرهاب حين قاتلوا لنيل حريّتهم ضدّ الاحتلال المعرّف بأنّه منافي للشرعية الدولية ومبادئها واحتكرت التصرف بالتسوية لتعطي إسرائيل متّسعًا أكبر لاستكمال الاحتلال والاستيطان، وقامت بتأميم المؤسّسات الدوليّة لتشكّل غطاءً على تصرّفات الاحتلال، كل هذا وأكثر، كانت الولايات المتّحدة طرفًا على النقيض من القيم الإنسانيّة.

لأوّل مرّة تحيي الأمم المتّحدة ذكرى النكبة في مقرّها في نيويورك في احتفاليّة غابت عنها الدول الراعية لإسرائيل بريطانيا سابقًا والولايات المتّحدة لاحقًا فيما يشبه إنكار مأساة لحقت بشعب؛ قامت الدولتان: الأولى بتأسيس مشروع تهجيره وترحيله، والثانية: تكفلت برعاية استمرار المشروع والإنفاق عليه واستمرار العداء للشعب الذي تعرّض لأبشع عمليّة تطهير عرقي في القرن الماضي وما زالت المأساة مستمرّةً ولم تتوقّف عند طرده، بل إنّ ما يجري هو استمرارٌ لنزيف الشعب الفلسطيني على أرضه بالقتل والسجن وبناء المستوطنات حتى على الجزء خارج المناطق التي احتلتها إسرائيل منذ الإقامة، بل تتجاوزها بما هو أبعد وبموافقة المجتمع الدولي الصامت الذي انتفض فجأةً لما حدث في أوكرانيا رغم تشابه الأمر، ما يكشف تلك الازدواجيّة غير الأخلاقيّة التي تحكم معايير العالم.

ولكن رغم كل ما حدث طوال خمسة وسبعين عامًا متواصلة من القتل الملاحقة، لكن الشعب الفلسطيني ظلّ رافعًا لواء حريّته، بقي من تبقى على الأرض صامدًا، غاب الجيل الأول الذي حضر النكبة، وسلّم مفتاح الدار لورثته من الأبناء للأحفاد الذين يواصلون المشوار، وبإرادة أقوى، مؤمنة بحقوقها وبعدالة الطريق، مهما كلّف من تضحيّات ومهما تمّت رشوة التاريخ.

المقدّماتُ الرسميّةُ للتسوية والتطبيع

دور اتفاقيّات الهدنة العربيّة الإسرائيليّة في تكريس النكبة

د. عابد الزريعي
مدير مركز دراسات أرض فلسطين للتنمية والانتماء/ تونس

كثيرةٌ هي الكتاباتُ التي تتحدّث عن النكبة، لكن التركيز قليلٌ في أغلبها على اتفاقيات الهدنة بوصفها الفصلَ الأهمّ في تلك النكبة؛ لأنّه كان بمثابة ترسيم وتكريس لها على مدى الخمسة والسبعين عامًا الماضية. فإذا كانت النكبة بمعناها الأشمل هي اللحظةُ التاريخيّة لتحوّل التراكم الكمّي الاستيطاني على أرض فلسطين، إلى كيفيّة ونوعيّة جديدتين حملت اسم «دولة إسرائيل» فإنّ اتفاقيات الهدنة التي ولدت على أرضية النتائج التي تمخّضت عنها حرب عام ١٩٤٨، كانت بمثابة الإقرار والاعتراف بذلك التحوّل. وقد تجسّدت تلك الاتفاقيات في مجموعة الاتفاقيات الموقّعة خلال عام ١٩٤٩ بين «إسرائيل» والدول العربيّة التي شاركت في حرب عام ١٩٤٨ باستثناء العراق.

وتمثّلت حسب الترتيب التاريخي في الاتفاقية الموقّعة مع مصر في ٦ يناير ١٩٤٩، ومع لبنان في ٢٣ مارس ١٩٤٩، ومع الأردن في ٣ ابريل ١٩٤٩، ثمّ مع سورية في يوليو ١٩٤٩. وهدفت إلى وضعّ حدّ «للأعمال العدائيّة» الرسميّة للحرب العربيّة - الإسرائيليّة ١٩٤٨. ولقد جاء التوقيع على هذه الاتفاقيات تنفيذًا لقرار مجلس الأمن رقم ٦٢ الصادر في ١٩٤٨/١١/١٦ والداعي إلى إقامة هدنة دائمة «رغبةً في تمهيد الطريق للانتقال من الهدنة الحالية إلى سلم دائم في فلسطين». وقد أصدر مجلس الأمنَ قرارًا بتاريخ ١٩٤٨/١١/٢٦ دعا الطرفين؛ اللبناني والإسرائيلي إلى التفاوض لإقرار هدنة وَفقًا لأحكام المادة (٤٠) من ميثاق الأمم المتّحدة، وأنشأت الأمم المتحدة وكالات للإشراف وتقديم التقارير، لرصد خطوط الهدنة المقرّرة. وبالإضافة إلى ذلك، أدّت المناقشات المتعلّقة بإنفاذ الهدنة إلى التوقيع على الإعلان الثلاثي المنفصل لعام ١٩٥٠ بين الولايات المتّحدة وبريطانيا وفرنسا، وتعهّدوا فيه باتّخاذ إجراء داخل الأمم المتّحدة وخارجها لمنع انتهاكاتً الحدود أو خطوط الهدنة، كما أوضح التزامها بالسلام والاستقرار في المنطقة، ومعارضتها لاستخدام القوّة أو التهديد باستعمالها، وكرّرت الإعراب عن معارضتها لتطوير سباق التسلّح. لقد ترتّب على هذا التوجّه الأممي الذي وقّعت الاتفاقيات على أساسه مجموعة نتائج تتبدى فيما يلي:

أوّلًا: التشتيت الديمغرافي والتقسيم الجغرافي

ترتّب على اتفاقيات الهدنة من حيث المبدأ الإقرار بالنتيجة الديمغرافية التي تضافرت جميع أشكال الإرهاب الصهيوني على إنتاجها، وتمثّلت في تهجير ما يزيد على ٨٠٠٠٠٠ فلسطيني، ولم يبقَ إلا ١٦٠٠٠٠ منهم في مناطق الجليل والناصرة ويافا والنقب. وكذلك الإقرار بالنتيجة الجغرافية الناجمة عن العدوان والتكيف معها، فقد قسم الخط الأخضر (الأخضر نسبة إلى لون القلم الذي رسمت به خطوط الهدنة) الناجم عن اتفاقيات الهدنة فلسطين إلى ثلاثة أقسام. الأوّل وتبلغ مساحته ٥٠٧٧٧ كلم أي ٤,٧٧ ٪ من مساحة فلسطين أقيمت عليه «إسرائيل». والثاني وتقدر مساحته ٥٨٧٨ كلم أي ٣,٢٠ ٪ من مساحة فلسطين، ويعرف بالضفّة الغربيّة، ألحق بالأردن. والثالث وتبلغ مساحته ٣٦٣كلم أي ما يعادل٣,٢ ٪ من مساحة فلسطين، ويعرف بقطاع غزة، وضع تحت الإدارة المصريّة، وبذلك تكوّنت المنطقة السياسيّة الفلسطينيّة من قسمين متباعدين، هما الضفة الغربية وقطاع غزة، تفصل بينهما أراضي دولة معادية، وبذلك أنهت النتيجة الجغرافية الناجمة أيّة إمكانيّة لتنفيذ قرار الأمم المتّحدة رقم ١٨١، وهو الهدف الذي سعت العصابات الصهيونيّة إلى تحقيقه من خلال الاستيلاء عنوةً على جزء كبير من الإقليم المخصّص لإقامة الدولة العربيّة. هذا إضافةً إلى جملة من الانعكاسات السلبيّة السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والإداريّة على حياة أبناء الشعب الفلسطيني.

ثانيًا: تفكيك التمثيل السياسي للشعب الفلسطيني:

أدّت اتفاقيات الهدنة دورًا حاسمًا في نفي الشخصيّة التمثيليّة للشعب الفلسطيني ومصادرتها وتقسيمه، فقد حُرم الفلسطينيّون بعد النكبة من وجود إطار سياسيّ موحّد، بعد أن سُلبت الأرض وشُرّد السكّان وتوزع القرار السياسي. وقد تبدى ذلك من خلال استبعاد الشعب الفلسطيني تمامًا من تلك الاتفاقيات التي لم تتطرّق لوجوده بوصفه ممثّلَ منطقة القلب «فلسطين». ولم يُسأل الفلسطينيون رأيَهم في الخط الأخضر أثناء التوقيع على تلك الاتفاقيات، وبالنتيجة قُسم الشعب الفلسطيني ووزّع بين من هم داخل «إسرائيل»، ومن هم تحت الحكم الأردني، ونالوا الهُويّة الأردنيّة؛ بسبب إلحاق الضفة الغربية بمملكة شرقي الأردن، استنادًا لمقررات مؤتمر أريحا، في أول كانون الأول ١٩٤٨، الذين وقّعوا تحت الحكم المصري في قطاع غزة ونالوا الهُويّة المصريّة، إضافةً إلى من تشتّت في مختلف البلدان العربيّة. كما انقسم العرب بشأن الاعتراف بحكومة عموم فلسطين التي رفضت كلّ من الأردن والعراق الاعتراف بها؛ بهدف ضمان استمراريّة إلحاق الضفة بشرقي الأردن.

ثالثا: استلاب مزيد الأراضي والموارد لصالح إسرائيل:

تسبب توقيع اتفاقية الهدنة بين مصر وإسرائيل في خسارة ٥٩ كلم مربع من مساحة قطاع غزة البالغة ٥٦٥ كم لصالح إسرائيل، وبموجب اتفاقية «التعايش» الموقعة بين الطرفين في العوجا سرًا بتاريخ ٢٢ شباط ١٩٥٠، أي بعد سنة من اتفاقية الهدنة، وسجّلت في مجلس الأمن في ١٧ آذار١٩٥٠، اقتطع على أثرها ٢٠٠ كلم مربع من مساحة القطاع ليصبح ٣٦٥ كلم مربعًا تفتقر للموارد الاقتصادية وتفتقد للاتصال بالعالم الخارجي إلا عبر مصر، كما قسم خط الهدنة مدينة

القدس إلى قسمين منفصلين. كذلك طالت عملية القضم منطقة المثلّث التاريخيّة التي تقع جغرافيًا ضمن نفوذ جبال نابلس، وتمتدُّ من جنين شمالًا حتى مدينة نابلس جنوبًا وطولكرم غربًا، ذلك أنّ إحدى بنود الاتفاقية ينص على أن تقوم المملكة الهاشمية الأردنية بإعادة القسم الغربي من منطقة المثلث لإسرائيل، التي تمتدُّ من كفر قاسم جنوبًا حتى مفترق مجدو شمالًا على طول ٥٠ كلم وعرض ٥ كلم على شكل مستطيل، كما تجاهل خط الهدنة بين الضفة الغربية و«إسرائيل» انتشار أراضي الفلسطينيين وموارد رزقهم، فقطع أثناء سيره أراضي ٧٥ قرية، يبلغ عدد سكانها نحو ٩٦ ألف نسمة، إضافةً إلى عشرات الآلاف من السكان من سكان القدس وقلقيلية وطولكرم. ومنع القرويين في المنطقة الحدوديّة من الوصول إلى أراضيهم السهلية الموجودة في مرج بن عامر والسهل الساحلي ومدنه. إضافةً إلى ذلك تمّ رسم خطّ الهدنة في الضفة الغربيّة بين منطقة جبليّة مرتفعة في الشرق، ومنطقة سهليّة منخفضة في الغرب، بما يسمح بوضع يد إسرائيل على مخزون المياه الجوفيّة، وهو الهدف الذي سعت إليه وتمكّنت منه من خلال الضغط على لجنة الهدنة، في قطاع غزه، بحجّة منع المتسللين للاستيلاء على أراضي عبسان وخزاعة، لتقليص مساحة القطاع قدر الإمكان، والاستيلاء على المياه الجوفية في شماله.

رابعًا: تأسيس الاعتراف بإسرائيل :

ليست خطوط الهدنة بالمعنى الاصطلاحي حدودًا سياسيّةً أو إقليميّة، ويتلخّص هدفها في تعيين الخطوط التي يجب ألا تتجاوزها القوّات المسلّحة التابعة للأطراف المتحاربة. لكن في الحالة الناجمة عن اتفاقيات الهدنة العربيّة الإسرائيليّة، فقد تطابقت تلك الحدود إلى حدّ ما مع حدود فلسطين في عهد الانتداب البريطاني، وجرى فيها تحديد الخط الأخضر الذي أصبح حدودًا رسميّةً بين إسرائيل والدول العربية، بما ترتّب عليه من مكاسبَ جغرافيّة صافية لإسرائيل، وبذلك أسفرت موضوعيًّا عن الاعتراف بها، وتحديد حدودها، بما سمى بـ«الخط الأخضر» الذي بات يمثّل سياجًا ذهنيًا لما تمّ السيطرة عليه. وبالنتيجة القبول بها ـــ بغض النظر إن كان ضمنيًّا أو صريحًا ـــ خنجرًا في قلب الوطن العربي، وربط كل حديث أو صيغ تسوية معها بالحدود المترتّبة على تلك الاتفاقيات.

خامسًا: تأسيس مبدأ الحماية و«السيادة»:

ترتّب على الترسيم الحدودي المترتّب على تلك الاتفاقيات، تحمل الدول العربية الموقعة مسؤوليّة أي اعتداء تتعرّض له إسرائيل عبر تلك الحدود، وبالنتيجة منع مقاومة الشعب الفلسطيني، وقيامها بدور حارس الحدود والحامي لإسرائيل؛ الأمرُ الذي يفسّر عمليات قمع المقاومين سواء قبل ١٩٦٧ إلا باستثناءات قليلة أو بعدها. ومن المفارقات في هذا الجانب أن مناهضي المقاومة اللبنانية يتذرعون باتفاقيات الهدنة للمطالبة بسحب سلاح المقاومة، ولم يتورع هؤلاء عن القول بوضوح: «لا يزال الالتزام باتفاقية الهدنة من جانب لبنان الرسمي؛ لأنّ هذا الالتزام ميثاقي لبناني توافق عليه اللبنانيون على أساس أنّه جزءٌ أساسيٌّ من استراتيجية معالجة الوضع الجنوبي وتحرير الأرض من الاحتلال. إنّ اتفاقية الهدنة تلزم كلتا الدولتين الموقعتين عليها بضبط القوى غير النظاميّة وشبه العسكريّة التي تستخدم أراضيهما لإطلاق عمليّات عسكريّة ضدّ الطرف الآخر. ومن ثَمّ من ضمنَ الالتزامات القانونية الملقاة على عاتق الدولة اللبنانية، بموجب الاتفاقية أن تعمل الدولة على منع المنظمات غير النظامية ومنها الميليشيات المسلحة اللبنانية والفلسطينية عن القيام بأي عمل حربيّ أو عدائيّ ضد القوى العسكريّة أو شبه العسكريّة للفريق الآخر أو ضد مدنيي أرض واقعة تحت سلطانه أو أن تتعدى أو تجتاز خطّ الفصل للهدنة».

سادسًا: تأسيس مبدأ الاتفاقيات المنفردة:

جاءت اتفاقيات الهدنة لتكرّس مبدأ التفاوض المنفرد باعتبارها سابقةً تفاوضيّة، لم تكن غائبةً عن ذهن المفاوض الإسرائيلي والأطراف الدوليّة منذ ذلك الحين، فالدول العربيّةُ لم تتفاوض فريقًا واحدًا، وإنّما تفاوضت إسرائيل مع كلّ دولة على حدة، حيث وقعت مع مصر بتاريخ ٢٤ فبراير ١٩٤٩ ثمّ لبنان في ٢٣ مارس ١٩٤٩ ثمّ الأردن بتاريخ ٣ أبريل ١٩٤٩، ولينتهي الأمر بسوريّة بتاريخ ٢٠ يوليو ١٩٤٩. وقد شكلت الاتفاقية المصريّة الإسرائيليّة الأرضية التي حكمت مسارات التفاوض بين (إسرائيل) ولبنان والأردن وسورية للتوقيع على اتفاقات هدنة دائمة، وقبول نصوص لعلّه ما كان ليرضى بها لولا توقيع الاتفاقية المصريّة ـــ الإسرائيليّة أوّلًا، وهذه أحد أساليب العمل الإسرائيلي، وهو جرّ دولة عربيّة إلى اتّخاذ مواقفَ معيّنة تصبح حجةً تجابه بها الدول العربيّة الأخرى، مستوى مقبولًا من التعامل بين الطرفين، وهو المسار الذي شق طريقه في اتفاقيات التسوية والتطبيع اللاحقة.

خاتـمة

كانت اتفاقيات الهدنة بمثابة الترسيم والإقرار بوجود «إسرائيل» بوصفها الحالة الكيفيّة الجديدة الناجمة عن التراكم الكمّي للتموضع الاستيطاني في فلسطين، وهو إقرارٌ دوليّ وعربيّ في الوقت ذاته، ترتّب عليه مجموعةٌ من النتائج الكارثيّة على الشعب الفلسطيني ومستقبل الصراع مع الكيان الصهيوني؛ الأمرُ الذي يفرضُ تسليط الضوء عليها لنقدها ونقضها تمامًا، مثل اتفاقيات التسوية والتطبيع التي لم تكن إلا امتدادًا لها.

٧٥ عامًا على النكبة..
فلسطين بشعبها ومقاومتها ستنتصر حتمًا

د. سمير دياب
المنسّق العام للّقاء اليساريّ العربيّ/ لبنان

الخامس عشر من أيار عام ١٩٤٨، يوم النكبة، ومفصل التحوّل التاريخي المصيري في مجرى الصراع الفلسطيني والعربي ضدّ المشروع الاستعماريّ الإمبرياليّ — الصهيونيّ وأهدافه العدوانيّة. فجوهر القضيّة الفلسطينيّة هو نفسه جوهر القضيّة العربيّة بشمولها، أي قضيّة التحرّر الوطني الثوريّة للشعب العربي برّمته. لذا، فإنّ استراتيجيّة النضال العربي في سبيل استعادة الشعب الفلسطينيّ أرضَه ووطنَه وحقّه في العودة وإقامة دولته الوطنيّة المستقلّة وعاصمتها القدس، لا يمكن أن تكون استراتيجيّةً صحيحةً موصلةً إلى الهدف دون الربط بين القضية الفلسطينية وحركة التحرر الوطني العربية. كون القضية الفلسطينية تشكل جزءًا عضويًا من القضية العربية الشاملة، ملتحمةً بها التحامًا كليًا. وكون النكبة بأهدافها الاستعماريّة وطابعها الصهيوني العنصري الإجرامي التهجيري تستهدف تطهيرًا كليًا للشعب الفلسطيني وإلغاء تاريخه وهويته الوطنية، كما تستهدف تطويق المدّ التحرري العربي، والقضاء عليه.

لذلك، فإنّ مفاعيل النكبة، استمرّت من خلال العدوان الثلاثي ١٩٥٦، حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧، واجتياح لبنان عام ١٩٨٢، وعدوان تموز عام ٢٠٠٦، وكل الاعتداءات الصهيونيّة على الضفة والقطاع ولبنان وسوريا.. هي حروبٌ متمّمةٌ لأهداف المشروع الإمبريالي — الصهيوني العدواني أوصلت إلى شرذمة المواجهة العربية، وإذعان البعض لعقد اتفاقيات «سلام» مع العدو الصهيوني - كامب ديفيد، ١٧ أيار، أوسلو، وادي عربة والإبراهيمية برعايةٍ إمبرياليّةٍ أميركيّة، وما استتبع ذلك من فتح سوق المكاتب والعلاقات التجاريّة والدبلوماسيّة مع المحتل الصهيوني، ثم تحولها إلى ملعب لسباق التطبيع والترسيم البحري والاعترافٍ بالكيان الصهيوني.

هذا الواقع، لا يمكن أن يحجب الجانب المشرق في مجرى الصراع، فأن يقاوم شعب فلسطين المحتل الصهيوني على مدى ٧٥ عامًا، دون تعب أو تراجع لهو شعبٌ أسطوريٌّ يليق بفلسطين. وأن يُستمرّ هذا الشعب الصامد في تناقض مع سلطته المتّيمة بحبّ السلام مع عدوٍّ صهيونيّ توسعيّ لا يريد السلام بطبيعة تكوينه وعقيدته وممارساته والأهم وظيفته في فلسطين والمنطقة العربية لهو شعبٌ يستحقّ فلسطين.

فالنكبة مستمرة، يقابلها صمود ومقاومة مستمرة، رغم إحكام الإمبريالية خطتها الاستعمارية الاستراتيجية التي نجحت لحد الآن في حماية كل الممارسات الفاشية للكيان الصهيوني بحق الشعب الفلسطيني، وتغطيه جرائمه الفظيعة في المحافل الدولية، وتطويع القوانين الدولية لمصلحته، حيث تراه يمعن في توسعه الاستيطاني وارتكاب المجازر الوحشية بأبشع صورها وآخرها قبل أيام في قطاع غزة، لأنّه يدرك تمامًا أنّه مدعومٌ بقوّة من الإمبرياليّة الأميركيّة، وكل الحلقات الدائرة في فلكها، ولأنّه يدرك أن الانقسام الوطني الفلسطيني أضعف من ردعه، ولأنّه يأمن جانب أنظمة التطبيع الخيانية، والباقي غافلة عن القضية الفلسطينية لأسباب كثيرة من ضمنها انشغالها بأزماتها وصراعاتها الداخلية الطائفية والمذهبية والقبلية والإثنية لأنظمة مأزومة تشكّل حملًا ثقيلًا على فلسطين بدل أن تشكّل الرافعة لقضيّتها.

لكن ما يدركه العدوّ الصهيوني - رغم كلّ ما يمرّ به من أزمات - ويخاف منه، لا يتأتّى من هذه الأنظمة المتهالكة التي خبر طبيعتها وتركيبتها وحفظ مواقفها وشعاراتها الفضفاضة، ولا من سلطتين متنافستين ومنقسمتين، إنّما يخاف هذا المحتلّ الغاصب من قدرة استمرار صمود الشعب الفلسطيني وقوة إرادته وعزيمته، رغم الحصار والتقطيع والحرمان، والقادر على تجديد انتفاضاته الشعبيّة وتنامي دور مقاومته وعمليّاتها البطوليّة. يعني، قلق هذا العدو وخوفه من إبقاء القضية الفلسطينية حيّةً وحيويّةً ومتوهّجةً وفرضها مجدّدًا على أولويات الجدول العالمي الغائب عن فلسطين.

٧٥ عامًا على النكبة، تتطلّب بالضرورة البحث والعمل لوضع استراتيجيّة مشروع المواجهة، لسببين:

أوّلهما، لأنّ الكيان الصهيوني — يتصهين ويتوحش أكثر بعدوانيّته، ما يشكّل أساسًا للقول: إنّ حاضر الصراع ينطوي على حروب قائمةٍ ومؤجّلة لحين إزالة هذا الكيان العنصريّ المصطنع، في وقتٍ يزداد هذا الكيان تطرّفًا وفاشية، ويزداد إنكاره لحقوق الشعب الفلسطيني، ويتفنّن في خطة قضم الأراضي الفلسطينيّة لتوسّعه الاستيطاني، ويسعى

لتهويد القدس مقدّمةً لتهويد فلسطين، ويغلق الباب أمام حقّ عودة اللاجئين إلى ديارهم.

ثانيهما، يتمثّل في جدلية العلاقة بين الإمبرياليّة الأميركيّة والكيان الصهيوني، وهي علاقة تحالف بنيويّة، تزداد ثنائيتها العدوانيّة في كلّ مرحلةٍ من مراحل الصراع ومتغيراتها.

لذا، من الطبيعي، وجوب أن تبقى الهُويّة الوطنيّة التحرّريّة حاضرةً في الوعي الفلسطيني، وهي المستندة إلى خبرة عقود من الكفاح، كون الصراع مع هذا المحتلّ الصهيوني مصيريًا، وسيبقى. وما هدف العدو الصهيوني الأساس من وراء إبرام «اتفاق أوسلو» إيجاد حل للقضية، إنما إدارة الصراع، وفق ديناميّة تفكيكيّة وتطهيريّة للشعب الفلسطيني وتصفيّة قضيته، وشطب حقوقه الوطنية المشروعة، وما مسيرة أكثر من ثلاثة عقود من المفاوضات إلا مضيعة للوقت،

واستنزاف لقدرات الشعب الفلسطيني، بدليل نتائجها الكارثية على القضية. أما ما يقال عن «حل الدولتين» فذلك، مجرد سراب، في وقت يلجأ المحتلّ الصهيوني إلى بناء المستوطنات وتقطيع المناطق والأشجار وبناء جدار الفصل العنصري وهدم منازل الفلسطينيين وتشريدهم.

أمّا فرضية تراجع الدور الوظيفي للكيان الصهيوني في ظلّ المتغيّرات الدوليّة بالنسبة للإدارة الأميركيّة ارتباطًا بتعديل أولويات معركتها الاستراتيجية اليوم في مواجهة الصين وروسيا، فإن صحة ذلك، لا يقلل من أهداف المشروع الإمبريالي الاستعماري، ولا من استراتيجية دعمه المطلق للكيان الصهيوني وحمايته، ولا يخفف من حروب الإمبريالية وتدخلاتها وحصاراتها وعقوباتها في المنطقة، وما مشروع «الشرق الأوسط الجديد» سوى حلقة من حلقات هذا المشروع للسيطرة على المنطقة ونهب ثرواتها وتفتيتها إلى كيانات طائفيّة ومذهبيّة وعرقيّة وإثنيّة... ما يعني وظيفة الكيان الصهيوني كانت وما تزال تشكل «القاعدة الحيوية» للاستعمار الإمبريالي ونظام عالمه الجديد.

أما عن أن الكيان الصهيوني يواجه بعد ٧٥ عامًا مأزقًا بنيويًا استراتيجيًا بفعل فائض الأطماع والأهداف، فأمرٌ صحيحٌ لا شكّ فيه، لكن تعميق هذا المأزق يتطلب تغييرًا جذريًا في استراتيجية المواجهة وفي إدارة الصراع، تبدأ من خلال التخلّي نهائيًا عن خيار المفاوضات والاتفاقات والتطبيع، بتأكيد خيار المقاومة الشاملة، في إطار مشروع فلسطينيّ وعربيّ مقاوم، والتأكيد على أنّ «القضيّة الفلسطينية — هي القضية العربية المركزية - تشكل بأبعادها الوطنية والطبقية، قضية تحرر وطني عربية، وفي المقدمة تحرير فلسطين وعودة اللاجئين وإقامة دولة وطنية مستقلة على كامل تراب فلسطين وعاصمتها القدس، وهي حقوقٌ تحرّريّةٌ إنسانيّةٌ غير قابلة للتصرّف، ولا تسقط بتقادم الزمن، مهما طال أمد الاحتلال الصهيوني، ومهما تعامت الإمبريالية ومؤسساتها الدولية عن إلزام الكيان الصهيوني تنفيذ مقرّارات الأمم المتحدة، ولا سيما القرار ١٩٤ في حق العودة والتعويض. ومهما حاولت أنظمة الذل والعار العربية تغليف مراسم التطبيع بتريرات وفذلكات تتعلق بموازين القوى وغيرها.. لكن تبقى فلسفتها في تاريخ النضال الوطني والشعبي هي الخيانة. والخونة إلى مزبلة التاريخ.

لكن هذا الأمر، يتطلب من جهة ثانية، ضرورة الخروج نهائيًا من حالة الشللية والإنقسام في الجسم الفلسطيني؛ الأمرُ الذي يدعم جذوة النضال الوطني ويحصنها، ويعزز اللحمة الوطنية ويدفع المسيرة الكفاحية قدمًا عبر خيار الوحدة والمقاومة سبيلًا وحيدًا لإستعادة نبض الثورة، وبعث روح شهدائها، ويدعم أسراها، وهو الخيار الذي يعيد إشعال انتفاضة شعبيّة، فصمود الشعب الفلسطيني ونضاله وتضحياته.. وفق هذه المعايير يتشكّل الجواب الثوري لحلّ القضيّة جذريًا، وليس انتظاره من مؤتمرات وبيانات جامعة دول عربيّة المهزومة أصلًا، أو انتظاره عبر تبدّل مفاجئ في ترجمة قرارات الأمم المتّحدة ذاتَ الصلة بالقضيّة الفلسطينيّة في عصر هيمنة الإمبريالية الأميركية على قراراتها. فالعدو الصهيوني لم يرحم شعبنا الفلسطيني طيلة ٧٥ عامًا، وليس بوارد ذلك وفق معادلة أوسلو والتنسيق الأمني والأنقسام العمودي الحاد، ولن يتراجع المحتلّ الغاصب عن ارتكاب المجازر والقتل والاعتقال والتنكيل والطرد والتدمير لتهجير وتطهير ما تبقى من شعبنا الفلسطيني لتكريس دولته اليهوديّة العنصريّة في فلسطين.

إنّ الارتقاء في رفع القضية الفلسطينية يجب أن يكون على قدر ما يستحق هذا الشعب الصامد المقاوم: في وحدة وطنيّة فلسطينيّة ضروريّة، وفي استعادة الدور لمنظمة التحرير الفلسطينية، وفي وضع خارطة طريق لمقاومة وطنيّة شاملة تقود إلى التحرير وحقّ العودة لشعب فلسطينيّ يحفظ عن ظهر قلب تاريخه، ويحافظ بدمه عن هويته الفلسطينية العربية، ويتقن تعليم أجياله خارطة فلسطين وأسماء شوارعها وقراها ومدنها وقيمها وتراثها، ويسلم الراية ومفتاح الدار من جيل إلى آخر. شعب يقاوم بإرادته وعزيمته وكرامته وباللحم الحي، هذا الشعب يستحيل كسر إرادته أو القدرة على هزيمته. سيبقى هذا الشعب بصلابته يبهر العالم بصموده ونضاله ومقاومته حتى دحر المحتل الصهيوني من فلسطين.

أما الإطار النضالي للمعركة فهو الإطار الذي صاغته، تاريخيًا وواقعيًا، حركة التحرر الوطني العربية نفسُها في مدى مسيرتها كلّه.. وهي مسيرة شعوب عربيّة وأحزابها ومنظماتها الوطنية والتقدميّة، الّتي شاركتْ جميعًا، بنسَب متفاوتة أيضًا، في إحراز كل نصر حقّقتْه هذه النضالات.. وما دامت المسيرةُ لم تقف بعد، ولن تقف، فالإطار الكفاحي هذا نفسه لا يزال قائمًا ولا بديل عنه، أي المواجهة العربية الشاملة، وَفْقَ مشروع ثوريّ لحركة التحرر الوطني العربية، وقد حدّدت لنا الشعوب العربية بصمودها ومقاومتها، وآخرها المقاومة في فلسطين (غزة) قبل أيام، مهمّات هذه الحركة، أهمها وأعمقها أثرًا للمنطق العملي الثوري، هي مهمّة بناء جبهة مقاومة وطنيّة عربيّة شاملة.

من هذا المنطلق، فإنّ قوى اليسار الثوريّة أمام تحدّيات نظريّة وعمليّة جديدة، ومهمّاتها حاضرةٌ مع الجماهير في الميادين التي تشهدُ ملاحم بطوليّة في خوص الصراع الوطني والاجتماعي ضدّ الإمبرياليّة والصهيونيّة والرجعيّة العربيّة، هذه الجماهير تحتاج بالضرورة إلى رافعة ثوريّة ومشروع لحركة تحرّر وطنيّ عربيّة بقيادة وبرنامج ثوريين بخلاف ما هو متكون وقائم، ما يعني أن قوى اليسار عليها أن تكون على قدر مسؤولية مهمتها التاريخية الثورية من أجل تحقيق أهداف الشعب الفلسطيني والعربي في التحرر الوطني الجذري الشامل، وفي المقدمة فلسطين.

في الذكرى الـ (٧٥) للنكبة:

خطاب التسوية يندحرُ أمام نهج المقاومة واستراتيجيّتها في التحريـــر والـــعـــودة

عليان عليان
باحثٌ وكاتبٌ سياسيّ/ الأردن

في الذكرى الـ (٧٥) للنكبة، ذكرى تشريد (٩٠٠) ألف فلسطيني من ديارهم وممتلكاتهم جرّاء سياسة المجازر والتطهير العرقي، التي نفّذتها العصابات الصهيونيّة، وقيا م دولة الكيان الصهيوني على أرض فلسطين في ١٥ مايو/أيار ١٩٤٨، يقفُ الشعب الفلسطيني والأمّة العربيّة أمامها ليس من أجل البكاء على الأطلال وجلد الذات، إنّما لاستعراض المحطّات السياسيّة التي مرّت بها قضيّة اللاجئين الفلسطينيين سواءً في مرحلة النضال السياسيّ التعبويّ أو في مرحلة المقاومة المسلّحة، أو في مرحلة التراجع عن الثوابت الفلسطينيّة في ظلّ نهج التسوية، من أجل الإجابة على الأسئلة المتّصلة بالمشروع الوطني الفلسطيني، والأخطار التي تتهدّد حقّ العودة المقرون بنهج التحرير.

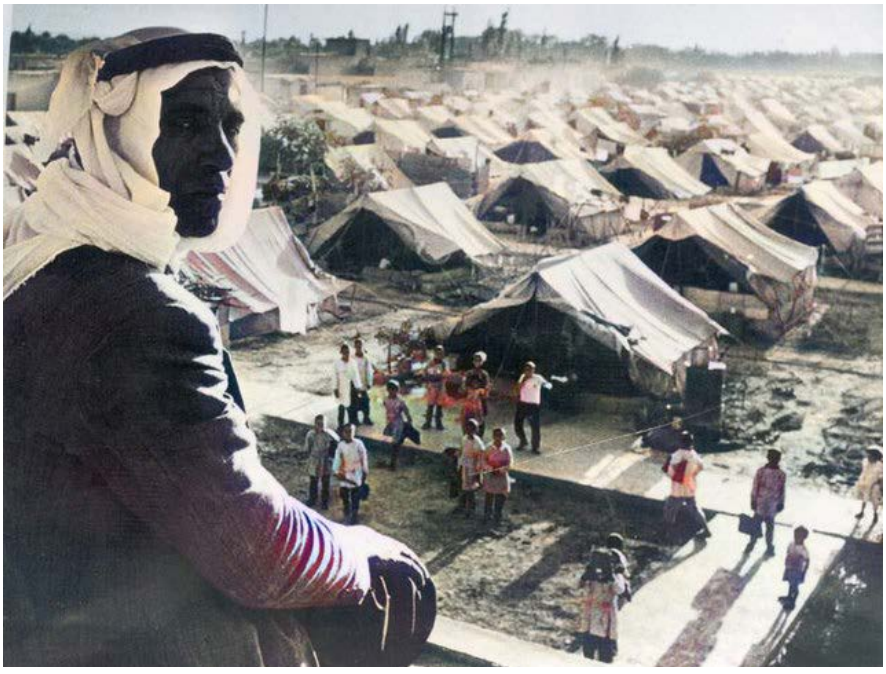

متغيّراتٌ لمصلحة القضيّة الفلسطينيّة:

وقبل استعراض المحطّات، التي مرّت بها قضيّة اللاجئين الفلسطينيّين، منذ نكبة ١٩٤٨ وحتّى اللحظة الراهنة، من الضروري أن نشير ابتداءً إلى أنّ إحياء ذكرى النكبة هذا العام، يتمُّ في ظلّ متغيّرات وعواملَ دوليين، وعربيّة، وإقليميّة، وفلسطينيّة جديدة تنبئ بتحولات لصالح القضية والنضال الوطني الفلسطيني، ممثّلةً ببداية انكفاء الهيمنة الأمريكيّة وتبلور نظام عالميّ متعدّد الأقطاب، وانعقاد قمّة جدّةً، التي أعادت الاعتبار للقضيّة الفلسطينيّة بوصفها القضيّة المركزيّة للأمّة العربيّة، والاتفاق السعودي- الإيراني برعاية الحزب الشيوعي الصيني، الذي سينعكس بالإيجاب على قضايا المنطقة الرئيسيّة وعلى رأسها القضيّة الفلسطينيّة، لجهة خلخلة منظومة التطبيع الإبراهيمي.

لكن المتغيّر الفلسطينيّ يظلُّ هو الأبرز في هذه المرحلة، لجهة صعود المقاومة، وانكفاء نهج التسوية، حيث جاءت معركة «ثأر الأحرار» لتفشل باقتدار محاولة الحكومة الأكثر فاشيةً ترميم ردعها المتآكل، ولتبني على مخرجات معركة سيف القدس، في تعميق الأزمة الوجوديّة للكيان الصهيوني وللمستوطنين، ولتفتح آفاقًا جديدةً أمام استراتيجيّة التحرير والعودة.

نشوء النكبة:

لقد تعرّض حق العودة للاجئين الفلسطينيين، منذ صدور قرار الأمم المتحدة رقم ١٩٤ في ١١-١٢-١٩٤٨، إلى أخطار كبيرة تستهدف شطبه، وقد أدّت الأمم المتّحدةُ آنذاكً دورًا كبيرًا في ذلك من خلال (أوّلًا) تجاوزها للشرط الخاص بقبول (إسرائيل) عضوًا في الأمم المتحدة، ألا وهو تنفيذها القرار ١٩٤، ذلك الشرط الذي رفضت (إسرائيل) تنفيذه في مؤتمر لوزان، في آذار١٩٤٩، الذي عقد لهذا الغرض وأوصى بعودة ٩٠٠ ألف لاجئ فلسطيني. (وثانيًا) حذف الأمم المتحدة للقضية الفلسطينية، من جدول أعمال الأمم المتحدة آنذاك بوصفها قضيّة شعب شُرّد من وطنه، وتحويل هذه القضية إلىً قضية لاجئين إثر صدور قرار من الأمم المتحدة في ٨ كانون أول ١٩٤٩، بإنشاء وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين؛ إذ إنّه بالتنسيق بين الولايات المتحدة والكيان الصهيوني والأمم المتحدة، تم حذف قضية فلسطين من دورات الجمعية العامة للأمم المتحدة، واستبدالها ببند يحمل عنوان «التقرير السنوي للمفوض العام لوكالة غوث اللاجئين».

لقد مرّت قضيّة اللاجئين الفلسطينيّين وحقّهم في العودة، بمحطات عدّة منذ نشوء النكبة وحتى اللحظة الراهنة، وأبرز هذه المحطّات:

١-المحطّة الأولى: محطّة رفض مشاريع التوطين التي طرحت مباشرةً بعد النكبة منذ نشوء النكبة، صدرت على امتداد فترة خمسينات القرن الماضي ومطلع الستينات سلسلة من المشاريع الأمريكيّة، ومن وكالة هيئة وإغاثة تشغيل اللاجئين الفلسطينيين (الأونروا) التي تستهدفُ توطين اللاجئين الفلسطينيين، في الأقطار العربيّة المضيفة، لكنها فشلت جميعًا جرّاء تمسك اللاجئين بوطنهم التاريخي، وإصرارهم بعناد على حق العودة الذي عبروا عنه بتمسّكهم بمفاتيح

بيوتهم، وبانضمامهم للتنظيمات القوميّة (حركة القوميين العرب وحزب البعث العربي الاشتراكي) ولحركة فتح وبقية التنظيمات الفدائيّة الفلسطينيّة، التي أدت دورًا تعبويًا ضدّ هذه المؤامرات، ورفعت شعارات تتصل بالتحرير والعودة سواءً من منظورٍ وطنيٍّ أو قوميّ.

المحطّة الثانية: محطّة الكفاح المسلّح الفلسطيني وربط العودة بالتحرير. لقد أعادت فصائل المقاومة الفلسطينيّة بعد حرب عام ١٩٦٧ الاعتبار للقضية الفلسطينيّة، ليس بوصفها قضيّة لاجئين، بل بوصفها قضيّة تحرّرٍ وطني، يشكّل حق العودة جوهرها الرئيسي في إطار ربط هذا الحق بالتحرير، وفقًا لما جاء في الميثاق القومي الفلسطيني الذي صاغه الأستاذ أحمد الشقيري، إثر تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٦٤ وفي الميثاق الوطني الفلسطيني، بعد أن آلت قيادة المنظمة إلى فصائل المقاومة بعد حرب ١٩٦٧.

وفي ضوء الحضور البارز للمقاومة ونهج الكفاح المسلح، تم قرع جرس الأمم المتحدة بقوة لإعادة الاعتبار لحق العودة، حيث عدّت الجمعية العامة للأمم المتحدة في قرارها رقم ٢٥٣٥ في ديسمبر/كانون أول ١٩٦٩ «أن مشكلة اللاجئين العرب الفلسطينيين ناشئةٌ عن إنكار حقوقهم في وطنهم، الواردة في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان»، ولم تتوقف الأمور عند هذا القرار، بل صدرت قراراتٌ أخرى تؤكّد على حق اللاجئين الفلسطينيين في العودة، نذكر منها: القرار ٢٦٢٨ في تشرين ثاني ١٩٧٠، القرار ٢٦٧٢ في كانون أول ١٩٧٠، القرار ٢٧٨٧ في كانون أول ١٩٧١، القرار ٢٩٤٩ في كانون أول، وصولًا للقرار الأبرز، وهو قرار الأمم المتحدة الشهير رقم ٣٢٣٦ الصادر بتاريخ ١٩٧٤/١١/٢٢، الذي جاء فيه في البند (٢) ما يلي: «ونؤكد من جديد أيضًا حقّ الفلسطينيين غير القابل للتصرّف في العودة إلى ديارهم وممتلكاتهم الذين شرّدوا منها واقتلعوا منها وتطالب بإعادتهم». ومنذ ذلك التاريخ باتت قضية اللاجئين الفلسطينيين هي قضية حق عودة فردي وجماعي لكل الفلسطينيين خارج وطنهم.

المحطة الثالثة: محطّة التراجع عن حقّ العودة بعد توقيع اتفاقيات أوسلو (١٩٩٣). لم يجر توظيف صعود المقاومة في انتفاضتي الحجارة (١٩٨٧- ١٩٩٣) وانتفاضة الأقصى (٢٠٠٠-٢٠٠٦) من قبل القيادة المتنفّذة في منظمة التحرير، تجاه استثمارهما، لإنجاز الحقوق الفلسطينيّة المشروعة ومن ضمنها «حق العودة، في السياق المرحلي المزعوم»، بل جرى استثمارها بشكلٍ معاكس لاحقًا، تجاه القبول بحكم ذاتي محدود الصلاحية في اتفاقيات أوسلو ١٩٩٣، وإلغاء مضمون الميثاق الفلسطيني في دورة المجلس الوطني — المهزلة عام ١٩٩٦.

ويمكن التأريخ بشكلٍ رسميّ لبداية التراجع عن حق العودة، ومقايضة هذا الحق بفكرة الدولة المزعومة التي لم تتحقق، باتفاقيات أوسلو ١٩٩٣، فالديباجة المتكررة في البرنامج السياسي الفلسطيني الذي أصطلح على تسميته «بالمرحلي» كانت تتضمنُ عبارة «الحق في العودة وتقرير المصير وقيام الدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس» لكن مفردة «العودة» بدأت تتراجع بالتدريج، ويحل محلها مشاريع التوطين والتأهيل الواردة في خطة سري نسيبة- أيلون، وخطة خارطة الطريق (٢٠٠٣)، وفي وثيقة جنيف ٢٠٠٣ وفي مبادرة السلام العربية في قمة بيروت عام ٢٠٠٢، التي انطوت على نصّ مساوم على قضيّة حقّ العودة على نحو «حلٍّ عادل مُتفق عليه لقضية اللاجئين الفلسطينيين وفقًا للقرار ١٩٤»؛ إذ إنّ عبارة «متفق عليه» تعني أن يخضع هذا الحق للمساومة، وأن يكون الكيان الصهيوني طرفًا في هذه المساومة وغيره من الأطراف، وفي المحصلة فإن كل المشاريع التفريطية كانت الوليد الطبيعي لاتفاقيات أوسلو، التي رحلت قضية اللاجئين الفلسطينيين إلى مفاوضات الحل النهائي، دون إسنادها بالقرارات ذات الصلة، خاصةً تلك القرارات التي صدرت في ضوء مناخ المقاومة بعد حرب ١٩٦٧.

المحطّة الرابعة: محطّة الصراع ما بين نهج المقاومة ونهج التفريط والتنازلات، وهذه المرحلة بدأت بالتبلور بعد إجهاض انتفاضة الأقصى في مؤتمر مكافحة الإرهاب في شرم الشيخ بمشاركة السلطة الفلسطينيّة، ففصائل المقاومة الوطنيّة بدأت تراكم نضالاتها بالاستناد إلى حاضنة شعبيّة، وإلى مناخ شعبي مقاوم، فكانت هبة الدهس والسكاكين عام ٢٠١٥، وهبة إفشال البوابات الإلكترونية عام ٢٠١٧، وهبة باب الرحمة المقدسية ٢٠١٩، وهبة رمضان في عموم الضفة الفلسطينية عام ٢٠٢١ في مناخ معركة سيف القدس التاريخية، وهذه الهبات وضعت موضوع الدولة والدولتين وراء ظهرها، وأعادت الصراع إلى مربّعه الأوّل «مربع التحرير والعودة — مربع الدولة الديمقراطيّة المرتبطة بحبلٍ سريّ مع القوميّة العربيّة والمشروع النهضويّ العربيّ...».

لقد انخرطت قيادة السلطة مبكرًا في مشروع مناهضة المقاومة، عبر نهج التنسيق الأمني المذل، حيث أعلن رئيس السلطة مرارًا وتكرارًا «بأنّه لم يسمح باندلاع انتفاضة جديدة... وأنّ نهج التنسيق الأمني مقدّس»، وفي الوقت ذاته أعلنت قيادة السلطة تخلّيها عن حقّ العودة، وأنّها تقبل بعودة رمزيّة لبضعة مئات أو آلاف من اللاجئين الفلسطينيين، وفي الذاكرة (أوّلًا) تصريح أبو مازن في ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠١٢ بشأن تنازله عن حقّ العودة إلى مدينته صفد، ما أثار في حينه ردود فعل شاجبه في الشارع الفلسطيني التي عدّت أنه «تخلّى عن حقّ العودة، وعن المقاومة من دون الحصول على شيء». وفي الذاكرة (ثانيًا): موقف رئيس السلطة الفلسطينية الرافض لحق العودة، الذي تمثّل في الخطاب الذي ألقاه في جلسة افتتاح ما يسمى بمنتدى الحرية والسلام الفلسطيني في مقرّ السلطة في مدينة رام الله، في ٧ شباط — فبراير ٢٠١٩، الذي ضم شخصيّات فلسطينية وإسرائيلية، وأعلن فيه «بأنه لن يسمح بعودة (٥) ملايين لاجئ فلسطيني إلى ديارهم مكذبًا ادعاءات الإعلام الإسرائيلي بهذا الصدد... الخ.

وأخيرًا: لقد تراجع نهج التسوية الأوسلوي التصفوي، لصالح بداية تسيد نهج المقاومة وباتت قضية التحرير والعودة، هي المسألة الرئيسية في استراتيجية المقاومة بعد معركة سيف القدس التاريخية في مايو (أيار) ٢٠٢١، خاصةً بعد مفاجأة الأهل في المحتلّ من وطننا في مناطق ١٩٤٨، الذين صنعوا الفارق في المواجهة، وبات سؤال الوجود لدى الكيان الصهيوني، سؤال نهاية العمر الافتراضي للكيان والتفكير بالهجرة منه، هو الشغل الشاغل لدى مختلف المستويات الأمنية والسياسية والإعلامية، وذلك بعد أن باتت الضفة الفلسطينية مركز الثقل الأساسي للمقاومة، يتكامل فيها بشكل شبه يومي الفعل المقاوم لكتائب المقاومة، مع الفعل المقاوم للأسود المنفردة، وبعد أن باتت المقاومة تستند إلى ظهير استراتيجي ممثّلًا «بمحور المقاومة».

وجاءت مؤخّرًا معركة «ثأر الأحرار» في إطار غرفة العمليّات المشتركة، لتكسر مجدّدًا الردع الإسرائيلي، ولتشعل «حريقًا» في وعي المستوطنين، لإيصال رسالة لهم بأنّ هذا الوطن هو الوطن التاريخي للشعب الفلسطيني، وأنّه لا يقبل القسمة على اثنين، في إطار حل الدولتين الذي تتشبث فيه سلطة أوسلو، رغم نبذ الكيان الصهيوني له، كما جاءت هذه المعركة لتؤكد مجدّدًا (أوّلًا) عزلة وانزواء وانكشاف بؤس خيار أوسلو والتسوية عمومًا، ولتؤكّد (ثانيًا) أنّ نهج المقاومة هو النهج الذي تلتفّ حوله جماهير الشعب الفلسطيني.

فـي ذكـرى النكـبة:
عـودةٌ إلى الثوابت الكبرى

معاد الجحري
عضو اللجنة المركزيّة لحزب النهج الديمقراطي العمالي / المغرب

في الذكرى ٧٥ للنكبة، يأبى الضبعُ «الإسرائيلي» إلا أن يُغرق فلسطين، في الدم والدمار في إطار عدوانه المتصاعد على الشعب الفلسطيني (عدوان الأيام الخمسة على غزة في شهر ماي ٢٠٢٣). نرى أن الكيان الصهيوني يطبق ما سبق أن ردّده المجرم الفاشي ايتمار بنغفير بقتل الفلسطينيين ولو لمجرد رميهم العدو بالحجارة. الحقيقة أنّ قوّات الاحتلال قبل عهد هذا المجرم، الذي أشرف على إحراق حوارة بالضفة الغربيّة، كانت وما زالت تقوم بقتل العديد من الفلسطينيين، فقط من أجل القتل، مجسّدةً شهيّةَ وغريزةَ القتل لدى نظام الأبرتهايد الصهيوني. كان هذا وما زال منذ النكبة. (١)

لكنّ الوجه الآخر لمقولة بنغفير هو خوفه من حجارة الشعب الفلسطيني، ومن إمكانية تطوّرها إلى بركانٍ يهزّ أركان نظام الأبارتهايد الصهيوني، ويلقي به في مزبلة التاريخ. قال زعيم حربِ الريف ومؤسّس جمهوريّة الريف، العظيم محمد بن عبد الكريم الخطابي في استجواب من إقامته في مصر: «أن تلقي بالحجارة على المستعمر، فتلك حركةٌ بسيطةٌ، لكن في بساطتها تكمن عظمتها».

في الذكرى ٧٥ للنكبة، لا بدّ من إعادة التأكيد على بعض الثوابت والمبادئ والمنطلقات الأساسيّة على طريق تفكيك الصهيونيّة ودحر العدو الصهيونيّ بصفة لا رجعة فيها.

١- يتعلّق الأمر أوّلًا بمركزية الصراع ضد الإمبرياليّة العالميّة وعلى رأسها الإمبرياليّة الأمريكيّة في منطقتنا، وفي مختلف مناطق العالم.

هنا، يؤدّي مفهوم الإمبرياليّة، دورًا مركزيًا. فهو أوّلًا مفهومٌ علميٌّ ينتمي للاقتصاد السياسي الماركسي ويعني الرأسماليّة الاحتكاريّة، وهو أغنى وأخصب من مفهوم الاستكبار العالمي الفضفاض الذي تميل إليه بعض مكونات الإسلام السياسي. إنّ التركيز على هذا المفهوم المركزي يعني أن تحرير فلسطين، جزءٌ من معركة شاملة ضدّ الإمبرياليّة وعلى رأسها الإمبرياليّة الأمريكيّة، التي تمثّل الدعامة الأساسيّة والاستراتيجيّة والحيويّة للكيان الصهيوني وهي العدو الأكثر شراسةً للإنسانيّة جمعاء. وفضلًا عن ذلك فهو ضروريٌّ لفهم تطوّرات الأحداث التاريخيّة المتعلّقة ببروز الحركة الصهيونيّة بتهجير اليهود واغتصاب فلسطين. ذلك أن هجرة اليهود، بعد السبي البابلي والاحتلال الروماني الذي وضع حدًّا لقيام كيانٍ يهوديّ على أرض فلسطين، اتجهت إلى ضفتي المتوسط والجزيرة العربية والبلدان المحاذية وحتى نهر الدون في روسيا. ولكن لا علاقة ليهود أوروبا الشرقية والغربية وأمريكا بهؤلاء النازحين من فلسطين نحو سنة ١٣٥ ميلادية، كما أنه لا علاقة عرقية لهم مع يهود شمال إفريقيا الذين كانوا يسكنون القبائل الأمازيغيّة قبل ذلك التاريخ.

الحقيقة أنّ الصهيونيّة فعلٌ إمبرياليٌّ انطلق من أوروبا الشرقية بالأساس خلال القرن التاسع عشر، وهذا راجعٌ إلى تطوّر البلدان الرأسماليّة وتعاملها مع اليهود الذين كانوا محرومين من الأرض بسبب القوانين المسيحيّة، ويشتغلون، من ثمّ، في الحرف والتجارة (التي يستبعدها المسيحيون بسبب رفضهم للربا). ففي بلدان أوروبا الغربيّة التي كانت تمثّلُ المراكز المتقدّمة للنظام الرأسمالي، تمّ على العموم النجاح في إدماجهم، ومن لم يدمج هاجر إلى أوروبا الشرقية التي كانت وما زالت تحتل موقعًا طرفيًّا في هذا النظام. وهكذا تكرّس التهميش للحرفيين اليهود أمام الصناعة الصاعدة وانهزم «الربوي» المكروه الذي يكدس الأموال أمام المصرفي العصري والتاجر اليهودي الصغير أمام التاجر المسيحي الصاعد وهكذا (٢). وإلى جانب هذا لا يمكن إنكار مظاهر الاضطهاد التي تعرّضوا لها هنا، التي تم استغلالها بشكل خبيث من طرف البرجوازيّة العليا اليهوديّة التي تشكّل الأساس الطبقي للحركة الصهيونيّة.

الحقيقة، أنّ فكرة العودة لم تكن مطروحةً عند اليهود، بل هي في الأصل فكرةُ المسيحيين الإنجلاكيين les evangilistes الذين يدعمون اليوم بقوة دونالد ترامب والكيان الصهيوني. ومن المعطيات التاريخيّة الدالة أنّ ٧٨ حاخامًا من أصل ٨٠ رفضوا عقد المؤتمر الصهيوني بألمانيا ولهذا السبب تم عقده في بازل بسويسرا (٣).

وهكذا انبثقت الصهيونيّة إيديولوجيّةً استعماريّةً عنصريّةً من أحشاء الرأسماليّة الإمبرياليّة الأوروبيّة على النقيض من قيم حقوق الإنسان والمواطن والمساواة بين الشعوب.

إنّ الصهيونيّة ترتكز على فكرة مفادها أن اليهودي لا يمكن أن يعيش، أو يتعايش مع غير اليهودي، وهذا طبعًا مجرّد ادّعاء مناقض لمعطيات التاريخ. لقد أرادت الحركة الصهيونية بهذا الادعاء الممسوج، السيطرة على فلسطين، مركز الأرض، للسيطرة على العالم. لقد استولت على فلسطين كما استولت على اليهوديّة في آنٍ واحد. إذ تعدُّ أن هجرة اليهود إلى «أرضهم»، هي الحل لوضع حدّ «لمأساتهم» ووضع حدّ لفساد شخصيّتهم.

لكن العديد من الحفريّات والأبحاث الأركيولوجيّة الصادرة عن الجامعات «الإسرائيليّة» نفسها تقول العكس تمامًا. لقد أصبح اليوم بديهيًّا بأنّ عددًا كبيرًا من الأحداث التاريخيّة، لم تجر لا في الأماكن المذكورة، ولا على الطريقة التي تمّ وصفها بها. أكثر من ذلك فإنّ بعض الحلقات الأكثر شهرةً في الإنجيل، بكلّ بساطة، لم تحدث أصلًا (٤). الحقيقة التي تفقأ العين هي أن اليهود كسائر البشر هم من أعراق مختلفة وشعوب مختلفة، واعتنقوا الديانة اليهودية في ظروف وأزمنة مختلفتين، وإن البحث اليوم عن جينٍ موحّدٍ مفترض لليهود عبر العالم يعد مهزلةً كبرى. وينطبقُ هذا على اليهود المغاربة، فليس لهم علاقةٌ بعرق اليهود الذين هاجروا من فلسطين، لأنّهم بكل بساطة كانوا يعيشون في القبائل الأمازيغية المغربية كغيرهم قبل تاريخ الهجرة المذكور أعلاه (٥). وبدل النظر إلى يهود شمال إفريقيا يهودًا اعتنقوا الأمازيغية ثمّ العربيّة يجب النظر إليهم كأمازيغ وعرب اعتنقوا اليهودية وأن اليهود والمسلمين في المغرب الكبير يتقاسمون نفس الأصول في إطار مجالٍ أمازيغي - عربي (٦).

إنّ تجاهل هذا المعطى التاريخي وتشويهه من طرف تجار العمل الجمعوي باسم الأمازيغية هو تبريرٌ للتطبيع والتعاون مع الكيان الصهيوني، وهو مشاركةٌ في الجرائم اليوميّة التي يقوم بها هذا الكيان الغاصب في حق الشعب الفلسطيني، ومساهمةٌ في ضرب السيادة الوطنية لبلادنا، وتنكّرٌ وتشويهٌ لتاريخ الشعب المغربي بكلّ مكوّناته الأمازيغيّة والعربيّة الذي تسكن القضيّة الفلسطينيّة في وجدانه.

٢- الحل الماركسي المتمثّل في بناء الدولة الفلسطينيّة الديمقراطيّة والعلمانيّة على كامل التراب الفلسطيني وعاصمتها القدس، وحق اللاجئين في العودة إلى ديارهم واسترجاع ممتلكاتهم.

هذه النقطةُ عميقةٌ للغاية وتعني أوّلًا عدم الاعتراف بالكيان الصهيوني «إسرائيل» كمشروعيّة. وتعني ثانيًا عدم التساوق مع اتفاق أوسلو التفريطي الذي تعمل على أساسه السلطة الفلسطينيّة ومجمل الأنظمة العربيّة الرجعيّة العميلة، وخاصّةً المطبّعة منها، وعلى رأسها النظام المغربي. وتعني ثالثًا أنّ حلّ الدولتين ليس حلًّا عادلًا حتّى لو كان صادرًا عن الأمم المتّحدة (الشرعيّة الدوليّة)، وقد طواه الواقع، واقع زحف الاستيطان، حيث تحوّلت قرى ومدن الفلسطينيين بالضفة الغربيّة إلى جزرٍ صغيرة أو بانتوستانات تحيط بها المستوطنات الصهيونيّة من كلّ ناحية. إنّ الدولة الديمقراطيّة هي دولةٌ علمانيّةٌ بالضرورة، لأنّ العلمانيّة شرطٌ للديمقراطيّة ومن مقوّماتها، وهي دولةٌ واحدةٌ وموحّدةٌ بلا مستوطنين/مستعمرين، وهي دولةٌ بالحقوق كافةً ومواطنة كاملة للجميع، وهذا هو الحل الماركسي للقضية الفلسطينية. وتعني رابعًا، أنّ القدس برمزيّتها، هي درّةُ التاج، وأن بوصلةً لا تشير إلى القدس مشبوهةٌ، كما قال مظفر النواب، وهذا لا علاقة له بتكريس منظور ديني للقضية الفلسطينية كما قد يفهم البعض خطأ، بل على العكس فإنّ قطعان المستوطنين المحميين من طرف جيش الاحتلال، هم من يسعون جاهدين إلى تحويل القضية إلى قضيّة صراع دينيّ من خلال الاقتحامات اليوميّة للأقصى وباحاته.

وقد سبق للراحل أبراهام السرفاتي أنّ أوضح في رسالة مكثّفة إلى «إيمانويل لفين» في سنة ١٩٧٠، بأنّ بناء الدولة الفلسطينيّة الديمقراطيّة والعلمانيّة على كامل التراب الفلسطيني، أفقًا، لا يعني البتة تجاهل الإرث الثقافي والديني الغني اليهودي والإسلامي (وأضيف المسيحي أيضًا)، بل على العكس من ذلك فإنّ الثورة الاشتراكيّة في الشرق تتطلّب إدماج هذا الإرث المشترك لشعوب المنطقة (شعوب أهل الكتاب) (٧).

وأضاف أبرهام في الرسالة نفسها أنّ الثورة الاشتراكيّة البلشفيّة قد وضعت حدًّا لمذابح اليهود في روسيا، كما أنّ التضحيات العظيمة لشعوب الاتحاد السوفياتي شكّلت عنصرًا أساسيًّا في دحر النازية، كما يشهد الأعداء قبل الأصدقاء عن اضمحلال مظاهر التمييز على أساس عرقيّ أو دينيّ وسيادة الأخوة بين اليهودً والمسلمين. ولكن موقف الاتّحاد السوفياتي، بمساندة قرار التقسيم وإنشاء دولة يهوديّة على أرض فلسطين كان خطأً تاريخيًّا فادحًا وتخلّيًا عن المنظور البلشفي الماركسي للمسألة اليهوديّة، وتبعته في ذلك ستة من البلدان الاشتراكيّة، وأغلب الأحزاب الشيوعيّة التي كانت تدورُ في فلكه بما في ذلك من العالم العربي (٨).

ومع ذلك، فإنّ انهيار وتفكّك الاتّحاد السوفياتي يعد خسارةً كبرى للقضيّة الفلسطينيّة، وزاد الطين بلّةً تراجع البناء الاشتراكي وانطفاء أضواء الماوية في الصين التي يقتفي الرفاق في الفيتنام أثرها ونموذجها، وكم أحزنني التعاون العسكري والزراعي الوثيق بين فيتنام و«إسرائيل» (٩)؛ غير أنّ الحلّ الماركسي الجذري المشار إليه الذي يعني تحرير الوطن، يتطلب شرطًا ضروريًّا القضاء على الإمبريالية التي تعد المصدر الأساسي للشرور الحالية والعدوان على الشعوب. أعتقد بأن الهزائم التي تلقتها الإمبريالية الأمريكية في المشرق العربي والشرق الأوسط عمومًا والتوجّه نحو عالم متعدّد الأقطاب كلّها مؤشّراتٌ على تراجع، إنْ لم يكن اضمحلال الإمبراطورية الأمريكية(١٠).

٣ - الطريق إلى فلسطين: وصية الشهيد إبراهيم النابلسي : لا تتركوا البارودة.

إنّ المشاكل الكبرى للإنسانيّة لا يمكن أن تحلّ دون قدرٍ معيّن من العنف الثوري المنظم، هذا كانَ حالَ كل الثورات الكبرى ومعارك التحرر الوطني. إن تحرير فلسطين يتطلب وضع الكفاح المسلح على رأس أشكال المقاومة كافة. لقد طورت المقاومة الفلسطينية أساليب هذا الكفاح وأدواته، وكل عدوان تتعرّض له تستفيدُ منه لإحداث قفزة نوعيّة جديدة. وقد صرّح ليبرمان وزير جيش الكيان السابق، وزعيم حزب «إسرائيل بيتنا»، بأن «الجولات العسكرية التي

يخوضها الكيان، بين حربٍ وحربٍ ستجعل الكيان يجد نفسه أمام حزبِ الله فلسطيني، على الحدود الجنوبية خلال ثلاث سنوات على أعلى تقدير» (١١).

وأجزم بأن إعادة بناء المقاومة المسلحة في الضفة الغربية يسير رغم كل الصعوبات بخطى حثيثة نحو هذا الهدف الذي سيقلب الموازين، وإذ نؤكد على هذا لا نبخس أبدًا أشكال المقاومة الأخرى ولا نزايد، بل نؤكّد على تكاملها مع جميع أشكال المواجهة الشعبيّة والمدنيّة والمقاطعة الاقتصاديّة التي تقودها حركة البي. دي. أس، التي ينبغي أن تتحول إلى حركة عالميّة جارفة، ويتكامل مع المواجهة الثّقافية والفكرية لتفكيك الرواية الصهيونيّة. وأؤكّد في ختام هذا النص على تمفصل نضالات الشعب الفلسطيني مع نضالات شعوب منطقتنا وشعوب العالم (البعد الأممي).

(١) انظر المقال الهام «نازيون في مركز الأرض . مروان عبد العال. الهدف الرقمية عدد ٤٨، أو الصيغة الورقية عدد ١٥٢٢. ص.١٠

(٢) انظر في هذا الصدد الدراسة المطولة التي قام بها مكتب الدراسات التابع للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين.

(٣) Shlomo Sand: comment la Terre ?dfilsraël fût inventée

(٤) I.Finkelestein et N.A.Silberman: la bible dévoilée

(٥) المرجع رقم(١)

(٦) https://www.contretemps.eu/ /berberes-juifs

(٧) http://revueperiode.net/en-tant-que-juifs-antisionistes-lettre-dabraham-serfaty-a-emmanuel-levyne/

(٨) تقرير منظمة Grain بالعربية. https://grain.org/article/٦٩٨٧

(٩) كتاب السوفييت وتقسيم فلسطين: إضاءات على كارثة تاريخية وايديولوجية وجيو-سياسية. مسعد عربيد. نشرته بوابة الهدف الاخبارية على ١٠ أجزاء.

(١٠) من تحرير الوطن الى الاستدوال. في نقد فكرة الدولة في الحالة الفلسطينية. وسام فقعاوي. مجلة التحرر التي يصدرها حزب النهج الديمقراطي العمالي. المغرب. عدد ٨

(١١) اتفاق أيار-بروفات لنصر قادم. راسم عبيدات. الحوار المتمدن.١٥ ماي ٢٠٢٣

مبدأُ حقّ تقرير المصير والقانـون الدولـي

د. عبد الحسين شعبان
مفكّرٌ وباحثٌ / العراق

مقدمـة:

لعلّ الظهور القانوني لفكرة حقّ تقرير المصير Self Determination ارتبط بصعود فكرة الدولة القوميّة، ولا سيّما في أوروبا في مرحلتها الأولى. وإثر اندلاع الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤، وبعد انعقاد مؤتمر السلام الذي أعقبها، راجت فكرةُ حقّ تقرير المصير، خصوصًا لدى الشعوب والجماعات الإثنيّة من أجل نيل استقلالها(١).

رافعتان لحقّ تقرير المصير:

رافعتان أساسيتان أسهمتا في الإعلاء من مبدأ حقّ تقرير المصير: الرافعة الأولى هي الحركة اليساريّة الاشتراكيّة وتيّارها الأساسي الماركسي الذي تجسّد في مؤتمر الأمميّة الثانية المنعقد في لندن عام ١٨٩٦ الذي اتّخذ قرارًا بشأن حقّ تقرير المصير حين أعلن «... تأييده لحقّ جميع الأمم التام في حريّة تقرير مصيرها»، كما أعرب عن تعاطفه مع: «كلّ بلد يقاسي حاليًا من نير الاستبداد العسكري والقومي أو غيرهما» داعيًا: «عمّال جميع البلدان للانضمام إلى صفوف العمّال الواعين طبقيًا في العالم أجمع، للنضال معهم في سبيل تحطيم الرأسماليّة العالميّة وتحقيق أهداف الاشتراكيّة الديمقراطيّة»(٢)

وقد أوضح لينين المقصود من فكرة حقّ الأمم في تقرير مصيرها، حين أشار إلى أنه «يعني بوجه الحصر حقّ الأمم في الاستقلال بالمعنى السياسي، في حرية الانفصال السياسي عن الأمة المتسلّطة المضطهِدة» ووصف الذين انتقدوا الفقرة التاسعة من برنامج حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي (البلشفي) التي أكّدت على حق تقرير المصير، بالنفاق السياسي وخداع جماهير الشغيلة، وتسهيل سياسة الإمبرياليّة وتمريرها، مبيّنًا ثلاثة نماذج من البلدان من حيث حقّ الأمم في تقرير مصيرها.

ومن الناحية العملية أيّد البلاشفة استقلال بولونيا وفنلندا وأوكرانيا وليتوانيا، وكان لينين مثل سائر الماركسيين يعتقدون أن القوميات إحدى مظاهر الحقبة الرأسمالية التي ستزول مع زوال الرأسمالية نفسها، ولذلك فقد كان خياره قيام الدولة - الأمة التي هي الخطوة الحيوية للوصول إلى بناء المجتمع الاشتراكي (٣). الأمرُ الذي يحتاج إلى اليوم إلى قراءة جديدة في ضوء التجربة التاريخيّة المتراكمة، وفي ضوء الواقع وما أفرزه من ظواهر جديدة، متداخلة ومتشابكة.

ودعا مرسوم السلام الذي صدر غداة ثورة أكتوبر حكومات البلدان المتحاربة وشعوبها للبدء فورًا بمباحثات سلام عادل وديمقراطي، وهو السلامُ الذي فسّرته الحكومة السوفييتية بأنّه: سلامٌ بلا ضمّ أو استيلاء على أراضي الغير، وإلحاق شعوبٍ أجنبيّة بالقوّة بها، وعدّ المرسوم أنّ الحربَ جريمةٌ ضدّ الإنسانية، وألغى الدبلوماسيّة السريّة والمعاهدات غير المتكافئة ومن ضمنها معاهدة سايكس بيكو التي قامت بين بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية، بخصوص البلدان العربية، المبرمة عام ١٩١٦.

وأقرّت السلطة البلشفية حق تقرير المصير في أول دستور سوفييتي صدر عام ١٩١٨ باعتباره ركنًا أساسيًا من أركان المبادئ القانونيّة للدولة الجديدة (٤) وبعد ثورة أكتوبر طبّق لينين مبدأ حق تقرير المصير على الإمبراطوريّة الروسيّة، حيث أصدر في ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧ «إعلان حقوق شعوب روسيا» The Declaration of rights of peoples of Russia الذي تضمّن حقّ تقرير المصير بما فيه حق الانفصال وتكوين دولة مستقلّة. وبغضّ النظر عن التطبيقات المشوّهة، فقد كانت رافعة ثورة أكتوبر مهمة جدًا لجهة حق الأمم والشعوب في تقرير مصيرها، لا سيما في النضال على المستوى الدولي، ضد الكولونيالية.

أما الرافعة الثانية لمبدأ حق تقرير المصير فقد كانت إعلان الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون Woodrow Wilson مبادئه الأربعة عشر، حيث أدّت وجهات نظره دورًا مركزيًا بشأن تقرير المصير، لا سيّما بعد دخول الولايات المتّحدة الحرب عام ١٩١٧، وكان ويلسون قد أعلن أن الولايات المتحدة دخلت الحرب «دفاعًا عن الحرّية» والتطوّر الحر للشعوب وعدم إرغام أي شعب للعيش تحت سيادة لا يرغب فيها، ودفاعًا عن الحكم الذاتي self- Government الذي تطوّر إلى فكرة حق تقرير المصير، وذلك أثناء إلقاء خطابه الشهير في الكونغرس (في ٨ كانون الثاني/ يناير ١٩١٨) الذي تضمّن النقاط الأربع عشرة المشار إليها، حيث كانت مادة حق تقرير المصير ضمن النقطة الثالثة عشرة، وذلك في معرض دعوته لقيام دولة بولونيّة مستقلّة، وأكّد ذلك صراحةً في خطابٍ له ألقاه في شباط (فبراير) من العام ذاته ١٩١٨ مشيرًا إلى أنّ حقّ تقرير المصير ليس مجرّد عبارة، بل هو مبدأ واجبُ التطبيق Self- determination is not a mare phrase, it is an imperative principle of action(5) .

وقد حاول الرئيس ويلسون إدخال فقرة خاصّة بمبدأ حقّ تقرير المصير في عهد عصبةً الأمم ١٩١٩، لكنّه لم يفلح في ذلك، حيث قوبل هذا الحق منذ إعلانه ببعض التحفّظات الهادفة إلى حماية كيانات الدول القائمة ومصالحها (٦). وبغضّ النظر عن مواقف الولايات المتّحدة السلبيّة لاحقًا، فإنّ مبادئ الرئيس ويلسون كانت إحدى الرافعتين الأساسيتين على المستوى الدولي لمطالبات الشعوب والأمم بحقّها في تقرير مصيرها، لا سيّما البلدان المستعمَرة والتابعة.

ولعلّ مبدأ حق تقرير المصير ما يزال يجابه عقبات كبيرة على الرغم من التطور الكوني، لا سيما في المناطق التي تضمّ خليطًا من السكان والشعوب والأقوام، ذلك أن إنشاء دول جديدة قابلةً للحياة، يعتمد على عوامل واعتبارات اقتصادية وجغرافية واستراتيجية عديدة، فضلًا عن ذلك، فإنّ ثمة صعوبات وكوابح عملية، فضلًا عن مصالح وتبريرات تقف حجر عثرة أمام تطبيق حق تقرير المصير في دول متعددة القوميات، بذرائع الوحدة الإقليمية ومبادئ السيادة وغيرها.

بين الحربين العالميتين:

وقد ظلّ مبدأ حق تقرير المصير خلال الفترة الممتدة بين الحربين العالميتين أقرب إلى مبدأ أخلاقي أو قيمي، أو مطلب سياسي منه إلى الصيغة القانونية، ولكن تطوّرًا مهمًا مهّد لاحقًا لقبول مبدأ حق تقرير المصير لإدراجه في ميثاق الأمم المتحدة، لا سيّما ما تعرّضت له البشريّة من مآسي خلال الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩- ١٩٤٥، وكانت وثيقة الأطلسي الصادرة من الرئيس روزفلت ورئيس الوزراء البريطاني تشرشل عام ١٩٤١ قد لحظت في إحدى بنودها «مبدأ الحقوق المتساوية وحق تقرير المصير للشعوب»، ولكن هذا الحق لم يكتسب صفته القانونية، الملزمة إلاّ عام ١٩٤٥ بعد قيام الأمم المتحدة في سان فرانسيسكو(٧) ثم استقرّ مبدأ حق تقرير المصير ليصبح قاعدةً ثابتةً في القانون الدولي المعاصر بعد قيام الأمم المتحدة، خصوصًا بعد إعلان الجمعيّة العامة رقم ١٥١٤ إقرارها مبدأ تصفية الكولونياليّة، الصادر في ١٤ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٠، الذي نحتفل بذكراه الخمسين، وهو الأمرُ الذي فتح الباب أمام تطوّرات لاحقةٍ ما تزال تفاعلاتها مستمرّة حتى الآن.

الأمم المتّحدة وحق تقرير المصير: جدلية مستمرّة

جعلت محكمة العدل الدوليّة «حقّ تقرير المصير» في الكثير من قراراتها قاعدةً قانونيّةً آمرةً وملزمةً Jus Cogens، وذلك بإعطائها هذه المكانة الرفيعة. وقد ورد مبدأ حق تقرير المصير مرتين في ميثاق الأمم المتحدة:

الأولى فيما نصّت عليه المادة الأولى (الفقرة الثانية) المتعلقة بأهداف الأمم المتحدة، حيث جاء فيها: «إنماء العلاقات الودية بين الأمم على أساس المساواة في الحقوق، وحقها في تقرير مصيرها».

والثانية فيما نصّت عليه المادة الخامسة والخمسون حين أكّدت «الرغبة في تهيئة دواعي الاستقرار والرفاهية الضروريتين لقيام علاقات سليمة وديّة بين الأمم، مؤسّسة على احترام المبدأ الذي يقضي بالتسوية في الحقوق بين الشعوب، وبأن يكون لكل منها، حق تقرير مصيرها» (٨).

وقد شغل حق تقرير المصير، حيّزًا مهمًا من مناقشات الأمم المتحدة، منذ قيام المنظمة الدولية، وبشكل خاص منذ عام ١٩٥٠ خلال مناقشة مصير الشعوب والأقاليم غير المتمتعة بالحكم الذاتي والمشمولة بنظام الوصاية (٩).

ولعل تقنين مبدأ حق تقرير المصير جاء واضحًا في الإعلان العالمي لتصفية الكولونيالية (الاستعمار) الذي جرت الإشارة إليه بالتأكيد على: حق جميع الشعوب في تقرير مصيرها، واعتبر الإعلان جميع الأعمال العسكرية أو الإجراءات القمعية ضد الشعوب غير المستقلة، غير شرعية وينبغي أن تتوقف، كيما تمارس هذه الشعوب حقّها وحريّتها في الاستقلال الكامل وفي السلام (١٠).

وللأسف الشديد لم يتضمن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان The Universal Declaration of Human Rights الذي تبنّته الأمم المتّحدة في ١٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٨، أية إشارة إلى حقّ تقرير المصير، الأمرُ الذي يعدّ نقصًا فادحًا، مثلما لم يتضمن الإشارة إلى حقوق الأقليّات (١١) وهو ما جرى تداركه لاحقًا، سواءً بالعهدين الدوليين أو بإعلان الأمم المتحدة حول السيادة الدائمة على مواردها الطبيعية الصادر في ١٤ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٢ (الدورة السابعة عشر) أو الإعلان العالمي حول حقوق وواجبات الدول الاقتصادية رقم ٣٢٨١ الصادر في ١٢ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٤ أو إعلان حقوق الأقليات الصادر من الجمعية العامة للأمم المتحدة الصادر في ١٨ كانون الأول (ديسمبر) العام ١٩٩٢ أو إعلان الأمم المتّحدة بشأن حقوق الشعوب الأصليّة الصادر في ١٣ أيلول (سبتمبر) عام ٢٠٠٧.

ولكن مبدأ حق تقرير المصير بما حمله من وهج نضالي وقانوني وإنساني، ظلّ مطمحًا لشعوب وأممٍ كثيرة، لا سيّما في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتّينية، حيث تجسّد بإعلان القضاء على الكولونياليّة كما تمّت الإشارة إليه، وكما ورد في العهدين الدوليين الصادرين من الأمم المتحدة: الأول في ١٦ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٦، (العهد الدولي الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية) الذي دخل حيّز التنفيذ في ٣ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٦، والثاني (العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية) الذي دخل حيّز التنفيذ اعتبارًا من ٢٣ آذار (مارس) ١٩٧٦، حيث نصّت المادة الأولى لكليهما على مبدأ حق تقرير المصير، كما وردت الإشارة إلى موضوع الأقليات التي خصّتها المادة ٢٧.

تقول المادة الأولى من كلا العهدين ما يلي:

١- لجميع الشعوب الحق في تقرير مصيرها بنفسها، وهي بمقتضى هذا الحق حرّة في تقرير مركزها السياسي وحرّة في السعي لتحقيق إنمائها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي.

٢-لجميع الشعوب، سعيًا وراء أهدافها الخاصة، الحق بالتصرّف الحرّ بثرواتها ومواردها الطبيعية دونما إخلال بأية التزامات

منبثقة عن مقتضيات التعاون الدولي القائم على مبدأ المنفعة المتبادلة وعن القانون الدولي. ولا يجوز في أي حال حرمان أي شعب من أسباب عيشه الخاصة.

٣- على الدول الأطراف في هذا العهد، بما فيها الدول التي تقع على عاتقها مسؤولية إدارة الأقاليم غير المتمتعة بالحكم الذاتي والأقاليم المشمولة بالوصاية أن تعمل على تحقيق حق تقرير المصير وأن تحترم هذا الحق، وفقًا لأحكام ميثاق الأمم المتّحدة(١٢).

ومن الجدير بالذكر أنّ النصّ الصريح بشأن حق تقرير المصير الوارد في العهدين الدوليين، وهما اتفاقيتان دوليتان شارعتان أي منشئتان لقواعد قانونية دولية جديدة أو مثبّته لها يعدّان مُلزمين منذ تاريخ نفاذهما تجاه جميع الدول الموقعة عليهما، ناهيكم عما يتضمناه من قوة معنويّة وأدبيّة، أخلاقيّة وسياسيّة، فضلاً عن حجيتها القانونيّة بالنسبة للشعوب المطالبة بهذا الحق، على الرغم من عدم شموله الأقليات بتقرير المصير؛ الأمرُ الذي قاد إلى تساؤلات حول مدى تطبيق النص الوارد في المادة ٢٧ من الميثاق، ارتباطًا بالمادة الأولى التي تحدّثت عن حقّ تقرير المصير.

تفسيراتٌ وتأويلات:

ولعلّ ثمّة اختلافات فقهية بخصوص النص ومدى شموليته، ناهيكم عمّا ذهبت إليه الأعمال التحضيرية، التي تفضي قراءتها وتدقيقها إلى اعتبار النص حقًا شاملاً، لا سيما تجاوز الحالة الاستعمارية الواردة في القرار ١٥١٤ الصادر في ١٤ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٦٠ إلى ما بعدها، أي استمرار وظيفة حق تقرير المصير حتى بعد الحقبة الاستعمارية، خصوصًا إذا خلا العالم من الاستعمار، وإذا كان ما ورد يفيد المستعمرات، إلاّ أن الشعوب يمكنها الاستفادة منه أيضًا، حتى بعد أفول نجم الاستعمار!

ويرى بعضهم أن تطبيق حق تقرير المصير يقتصر على الشعوب الخاضعة والمستعمَرة فقط (١٣) أما بعضهم الآخر فيرى أنه حقٌ شاملٌ لجميع الشعوب بتخطي مرحلة الاستعمار، أي عكس الفريق الأوّل الذي يقصره على الاستعمار، ولا يريد أن يمتد ليشمل الدول المستقلة ذات السيادة أو على قسم من الشعب أو الأمة، التي هي جوهر فكرة الوحدة الوطنيّة الإقليميّة للدولة، وهو الرأي الذي تقول به الهند، في حين أن هولندا قالت بشموليّة النص وهو ما تبنّته الأمم المتحدة لاحقًا عام ١٩٨٤ (لجنة حقوق الإنسان) ومع ذلك فهناك أكثر من قراءة للنصّ تبعًا للمصالح السياسيّة ولتوازن القوى، لا سيّما لجهة النفوذ الدولي.

إنّ القراءة الأولى التي تعدّ النص شموليًا وحقًا لا يتوقّف لمجرّد انتهاء الحالة الاستعماريّة التقليديّة، هي قراءةٌ تنطلق من الموقف الذي تعدّه منسجمًا مع المادة الأولى من العهدين الدوليين التي تفرض على الدول الأعضاء التزامات محدّدة، ليس فقط تجاه شعوبها، بل تجاه كل الشعوب غير القادرة أو تلك التي جرّدت من إمكانية نيل الحق بتقرير المصير، وهذه القراءة أكثر تساوقًا مع الشرعة الدولية لحقوق الإنسان، ولعّل الاستنتاج المهم الذي يقوم عليه هذا الاتجاه، هو أنّ حقّ تقرير المصير يعدّ حقًا شاملاً لا غبار عليه، ولا إبهام فيه.

أما القراءة الثانية التي تميل إليها بعض الدول ذات التنوّع القومي والإثني، لا سيما القوى المتسيّدة فيها، خوفًا من التفكّك والانفصال، استنادًا إلى مبادئ الوحدة الإقليمية واحترام الاستقلال السياسي ووحدة الأراضي وسيادة الدول، تعدّ أن حق تقرير المصير يخصّ الحق الخارجي لشعوب رازحة تحت نير الكولونياليّة، أما الحق داخليًا، فيمكن التعبير عنه في إطار الدولة الموحّدة بأشكال مختلفة للحكم الذاتي.

وإذا كان ثمة تبريرات نظرية وقانونية لمثل هذه الإشكالية، فإنها تعود إلى الفروق بين ما نعنيه بالشعب والأقليّة، وهل هناك إمكانية إفادة الأقلية من مبدأ حق تقرير المصير بتأسيس كيان سياسيّ أم لا؟ ومع أن النصّ جاء عامًا بخصوص المعهدين الدوليين لعدم الرغبة في تناول موضوع الأقليات إلاّ أن المطالبة بالحق، وهو حقٌ سياسيٌ ودستوريٌ يمكن الاستدلال عليه من منطوق المادة الأولى، في حين أنّ المادة ٢٧ تناولت حقوقًا ثقافيّةً محدودة، بينما يرتبط حق تقرير المصير بقضية كيان سياسيّ واقتصاديّ واجتماعي، وهو ما تريده بعض الأقليات في دولة متعدّدة القوميات حين يصبح العيش المشترك مستحيلاً، مع غياب تمثيل حقيقيّ للتنوّع الثقافي. ولعلّ ذلك ما أجده أكثر انسجامًا وأدقّ تعبيرًا من مصطلح الأقليّات، خصوصًا وأنّ التنوّع والتعدديّة تتضمنان مبدأ المساواة بين مكوّنات مختلفة ومتمايزة، لكنّها متساوية، لا فرق بين «أغلبيّة» و«أقليّة».

وسيكون السؤال المطروح حول تحديد ما إذا كانت الأقليّة شعبًا أم لا؟ وفيما إذا كانت الحقوق العائدة للشعب أو للشعوب يمكن أن تستفيد منها الأقليّات بطريقة غير مباشرة، وهو سؤالٌ في غاية من الأهمية يمكن متابعته بالتطورات الجديدة التي عرفها القانون الدولي.

وقد شهد مفهوم «حقوق الأقليات» تطورًا كبيرًا في العقدين ونيّف الماضيين، وذلك ارتباطًا مع القانون الدولي من جهة ومع الفلسفة السياسية من جهة أخرى، وذلك بتطور القواعد الدولية International norms لحقوق الأقليّات قياسًا لما تمّ التوصل إليه بعد الحرب العالمية الثانية، وصولاً إلى مرحلة جديدة بعد انتهاء الحرب الباردة في أواخر الثمانينات، حيث تحرّكت حقوق الأقليات سريعًا في إطار أجندة دولية وداخلية بما فيها للمنظمات الدولية شملت الأمم المتّحدة أيضًا، التي أصدرت إعلان حقوق الأقليّات عام ١٩٩٢ وإعلان حقوق شعوب أصلية عام ٢٠٠٧ Declaration on the rights of indigenous peoples.

ويطلق الباحث Will Kymlicka في كتاب «فلسفة القانون الدولي» الصادر من جامعة اكسفورد عددًا من المصطلحات على حقوق الأقليات مثل: Multiculturalism (التعدديّة الثقافية) أو differentiated citizenship (المواطنة المتمايزة-المختلفة) أو The politics of recognition (سياسات الإقرار أو الاعتراف) أو Group rights (حقوق الجماعة) أو Liberal culturalism (الليبرالية الثقافية) أو pluralistic integration (التعددية التكاملية-التوحيدية) ولكنه يفضل مصطلح liberal multiculturalism (الليبرالية التعددية الثقافية).(١٤)

الكولونياليّة وحق تقرير المصير: التباس مفهوم «الأقليّات»

يبدو أنّ حق تقرير المصير كما ورد ذكره في الميثاق يتعلّق بالشعوب (peoples) الأمر الذي أحدث نقاشًا في مؤتمر سان فرانسيسكو الذي صيغ فيه ميثاق الأمم المتّحدة، وقد وردت استخدامات متعددة فأخذ الحديث تارة عن (دولة) State وأخرى عن (أمة)Nation وثالثة عن (شعب)People تحت مفهوم متقارب كما جاء ذكره في نظام الوصاية الدوليّة، الأمرُ الذي أثار نوعًا من الالتباس أحيانًا، وهو ما تعرّض له المفهوم لاحقًا بمعناه الفقهي أو بتطبيقاته العملية.

ولعلّ ذلك أوجب متابعة التطور التاريخي والسياقات القانونية التي مرّت بها فكرة حق تقرير المصير، ولا بدّ هنا من التوقف جدّيًا

عند قرار تصفية الاستعمار «الكولونيالية» وقد مرّت ذكراه الستين (١٤ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٢٠) وبقدر رمزيّة القرار الذائع الصيت، الذي اكتسب شهرةً كبيرةً، وكان بعنوان «إعلان منح الاستقلال للبلدان والشعوب المستعمرة» The Declaration on granting of Independence to countries and peoples. فقد تزامن صدوره مع أجواءٍ إيجابيّة كانت شعوب آسيا وأفريقيا تتطلع إليها، خصوصًا وقد أعلن «أنّ لجميع الشعوب الحق في تقرير المصير» (وهو ما ورد لاحقًا في العهدين الدوليين الخاصين بحقوق الإنسان عام ١٩٦٦) كما أكّد على «حق هذه الشعوب في أن تحدّد بحريّة مركزها السياسي وأن تسعى بحرية إلى تحقيق نموّها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي».(١٥)

تصفيّة الكولونياليّة:

بعد هذه الاستعادة تبدو تاريخانيّة هذا القرار، مصدر تفكّر، إضافةً إلى أهميته القانونية والسياسية، لا سيما وقد أصبح منطلقًا أساسيًّا لقرارات وإعلانات أمميّة لاحقة، فبعد يوم واحد فقط، أي في يوم ١٥ كانون الأول ١٩٦٠ صدرَ القرار رقم ١٥٤١ الذي تمّ بموجبه تحديد لائحة محددة من المبادئ لمعرفة إلزامية تقديم المعلومات طبقًا للمادة ٧٣ من الميثاق التي تتناول تبعات إدارة الأقاليم التي لم تنل شعوبها قسطًا كاملًا من الحكم الذاتي (المبدأ القاضي بأنّ مصالح أهل هذه الأقاليم لها المقام الأوّل) ويقبلون (المقصود أعضاء الأمم المتحدة) أمانة مقدسة في أعناقهم، الالتزام بالعمل على تنمية رفاهية أهل هذه الأقاليم إلى أقصى حدّ مستطاع في نطاق السلم والأمن الدوليين اللّذين رسمهما الميثاق. وتحدّثت خمسة بنود تابعة لهذه المادة عن تنمية شؤون الحكم الذاتي دون الإشارة إلى حقّ تقرير المصير، وكان القرار ١٥٤١ قد تحدّث بالصراحة ذاتها ضد الاستعمار محدّدًا اثني عشر مبدأً تعرّف الأقاليم الواقعة تحت الاستعمار وتطوّرها باتجاه الحكم الذاتي لبلوغ الاستقلال.

الفارق بين القرار ١٥١٤ أنه يعدّ إعلان الاستقلال هو الطريقة الوحيدة لتحقيق تقرير المصير للأقاليم غير المحكومة ذاتيًا، في حين أن القرار الثاني ١٥٤١ فإنّه يقدّم خيار الاتّحاد الاختياري أو الارتباط بدولة مستقلّة، لأنّه يعدّ الاستقلال النتيجة الطبيعية التي يجب أن تحصل عليها الأقاليم غير المحكومة ذاتيًا أو غير مستقلّة، وهو ما يرتبط بمبدأ حق تقرير المصير المرتبط بالاستقلال

بصورة حتميّة(١٦).

وعلى الرغم من احترام مبدأ حق تقرير المصير ومنح الاستقلال في القرار ١٥١٤ والقرار الذي تلاه، إلاّ أنّ الاتجاه العام كان يميل إلى استبعاد «الأقليّات» من التمتع بهذا الحق، في نظرة تقييديّة لاستخدام هذا الحق، لأنّه ينطبق على الشعب، وليس على الأقليّات التي قد لا تكوّن شعبًا. أي أنّ حقّ الاستقلال وتكوين دولة مستقلّة حسب القانون الدولي أعطي للشعب وليس للأقليّة، بل لكامل الشعب في الإقليم Territory والشعب هو الذي يمارس هذا الحق.

وظلّ هذا الأمر محطّ جدل كبير في الأمم المتّحدة وخارجها مدّة عشر سنوات تقريبًا حتى صدر القرار رقم ٢٦٢٥ في ٢٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٠ تحت عنوان «إعلان مبادئ القانون الدولي المتعلّق بعلاقات الصداقة والتعاون بين الدول وفقًا لميثاق الأمم المتحدة» الذي عُرف بإعلان التعايش السلمي متضمّنًا سبعة مبادئ أساسيّة، تشكّل جوهر مبادئ القانون الدولي (١٧).

وقد ورد في هذا القرار إشارة إلى حقّ تقرير المصير في ثلاثة مباحث مع تأكيد الحديث عن عدم المساس بوحدة أراضي الدولة، لكن الفقرة السابعة من الإعلان المتعلقة بحق تقرير المصير ربطت حق الاستقلال بالحكومة التمثيلية، وجعلت من الوحدة الإقليمية مناطة بها مع تأكيد حق تقرير المصير.

أي أن الحكومة عندما لا تكون تمثيلية فيصبح الانفصال أمرًا «مبررًا»، بمعنى لا يمكن التذرّع بالوحدة الإقليميّة لمنع الانفصال أي لتحقيق الاستقلال إنْ لم تكن الحكومة تمثيليّة. وقد اتّخذ مجلس الأمن الدولي عددًا من القرارات التي تؤكّد على حقّ الشعوب في تقرير المصير، بإنهاء الاستعمار Decolonization، سواءً ما يتعلّق الأمر بناميبيا، حتى تمّ تحرير آخر مستعمرة في إفريقيا عام ١٩٩٠ (١٨) قبل إنهاء الاستعمار الاستيطاني في جنوب أفريقيا العنصرية عام ١٩٩٣، مع وجود استثناء عالمي واحد هو الاستعمار الاستيطاني الإجلائي في فلسطين، على الرغم من وجود نحو ١٦ إقليمًا لم يتمتع بالاستقلال وحق تقرير المصير على المستوى العالمي.

تمايز في المفاهيم:

يمكن التمييز بين مفهومين لحق تقرير المصير:

الأول على أساس الإقليم، ويعني حق الشعب في «الدولة» بمكوّناته المتنوّعة في حكم نفسه بنفسه دون تدخّل خارجيّ على أساس سياسيّ ودستوري، لا سيما للشعوب المستعمَرة، وهوَ المفهوم النموذجي الذي أخذ به العهدان الدوليان المشار إليهما، وليس هناك ما يحدد الشعب، سوى الإقامة الدائمة في بلد بغض النظر عن التنوّع الإثني والثقافي، وهو ما يطلق عليه حق تقرير المصير للإقليم.

أما الثاني فعلى أساس الهويّة، ذلك أن مفهوم الشعب يعني «مجتمعًا إنسانيًا» يعود إلى سمات إثنيّة وثقافيّة متميّزة. وهكذا يصبح حق الشعب في تقرير المصير يخضع للهوية الثقافية والإثنية، وهو ما يطلق عليه حق تقرير المصير ارتباطًا بالهويّة (١٩).

ويبدو أن مبدأ حق تقرير المصير تطوّر لتتعدى ساحته مسألة إنهاء الاستعمار واستقلال الدولة التابعة والمستعمَرة، فأخذ يشمل الجانب الداخلي من تقرير المصير، الذي تطمح إليه الشعوب لجهة حقوقها وحرياتها وعلاقاتها بالسلطة. وهو الاتجاه الذي أخذ بالتوسّع لا سيما وقد حظي

بتأييد المجتمع الدولي، منذ انتهاء عهد الحرب الباردة في أواخر الثمانينات، حيث ازداد دور مجلس الأمن الدولي في الإشراف على الانتخابات ومراقبة عدد من الاستفتاءات الشعبيّة التي مارست فيها الشعوب حقّها في تقرير المصير في إطار التنوّع الثقافي، مثلاً انتخابات جنوب أفريقيا والمصالحة الوطنيّة في أنغولا ١٩٩٤، والاستفتاء حول موضوع الصحراء الغربية، والانتخابات واتفاق السلام احترامًا لإرادة شعب موزامبيق، و«التدخّل العسكري» في هايتي لإعادة الحكومة المنتخبة والشرعية، وغيرها.

أما محكمة العدل الدولية فقد اتّخذت عددًا من القرارات منها النزاع البرتغالي- الهندي عام ١٩٥٤ (حق المرور عبر الهند وصولاً الى مستعمرتين برتغاليتين، وعلى الرغم من أنّ المحكمة ناقشت مسألة حقّ تقرير المصير، إلّا أنّها لم تأخذ به، وعمدت إلى إتباع مبدأ السيادة باعتباره أحد مبادئ القانون الدولي) أما القضية الثانية فهي: قضية الكاميرون ضد بريطانيا ١٩٦١. أما القضية الثالثة هي ناميبيا عام ١٩٧١ (التي كان اسمها جنوب غرب أفريقيا) وكانت تخضع لنظام الوصاية الدولي، علمًا بأن حق تقرير المصير يطبّق على الأقاليم التي تتمتع بالحكم الذاتي، طبقًا له. (٢٠)

وكان صدور القرار ٦٨٨ في ٥ نيسان (ابريل) ١٩٩١ من مجلس الأمن الخاص بكفالة احترام حقوق الإنسان والحقوق السياسيّة في العراق، ووقف القمع الذي تعرّضت له المنطقة الكردية وبقية مناطق العراق، كما جاء في نص القرار، إيذانًا جديدًا وبثقل كبير بدور مجلس الأمن، إضافةً إلى وظيفته في حفظ السلم والأمن الدوليين، بالتدخل لأغراض إنسانية، بما فيها ما يخصّ شعوبًا وأممًا مضطهدة، أو لم تتمكن من تحقيق مصيرها بنفسها، وذلك بغض النظر عن ازدواجية المعايير التي اتّبعها والانتقائيّة التي طبعت تطبيقاته، لكن انخفاض منسوب مبدأ احترام السيادة وعدم التدخل بالشؤون الداخلية، لحساب مبدأ التدخل الإنساني أثار جدلًا فقهيًا: قانونيًا وسياسيًا، ناهيكم عن زاويته الفكرية- الفلسفية، ارتباطًا مع مبدأ حق تقرير المصير الذي تتشبث به الشعوب، خصوصًا المستعمَرة أو التابعة أو الخاضعة للهيمنة أو التي تنفرد حكوماتها بعدم تمثيلها أو تمثيل تعدّديتها الثقافيّة المتنوّعة (٢١).

وأعتقد أن محكمة العدل الدولية بقرارها المؤرخ في ٢٤ تموز (يوليو) ٢٠١٠ بخصوص كوسوفو يصبّ في هذا الاتجاه يوم أعطت رأيًا استشاريًا مفاده: أن الاستقلال (الانفصال من طرف واحد) لا ينتهك القانون الدولي، وذلك بناءً على طلب من الجمعية العامة للأمم المتحدة، وهو الأمرُ الذي قد أصبح واقعًا بعد الاستفتاء في جنوب السودان ٢٠١١/١/٩ الذي لم يكن بعيدًا عن تأثيرات الأمم المتحدة.

ولعل الاستفتاء السوداني، إضافةً إلى قرار محكمة لاهاي سيكون سابقةً قانونيّةً وقضائيّةً يمكن الاستناد إليها دوليًا لإعلان الاستقلال من طرف واحد، فيما إذا كانت الظروف الموضوعيّة والذاتية تستجيب لذلك، حيث أصبحت الوحدة دون رضا جزء من السكان، شعب، أو مكوّن ثقافي، مفروضة وقد تحتاج إلى فكّ ارتباط!!

وإذا كانت كوسوفو قد أعلنت انفصالها (استقلالها) من طرف واحد عام ٢٠٠٨ واعترف بها المجتمع الدولي على الرغم من معارضة كل من صربيا وروسيا لاعتبارات قوميّة ودينيّة وجيو سياسيّة، فإنّ تيمور الشرقية أنشئت بقرار من مجلس الأمن الدولي؛ الأمر الذي يحتاج إلى وقفة جديّة، ونحن نستعيد الذكرى الـ ٧٥ لتأسيس الأمم المتحدة والذكرى الـ٦٠ لصدور القرار ١٥١٤ بما له من دلالات فكرية وسياسية وقانونية وانعكاساته على صعيد الدول المتعددة القوميات، إذا لم يتم التوصل إلى تفاهمات واتفاقيات تأخذ مصالح المجموعات الثقافيةً المختلفة؛ الأمرُ الذي سيضع مبدأ حق تقرير المصير على أساس الهويّة الإثنيّة خيارًا مطروحًا، سواءً باستمرار الاتحاد الاختياري، الطوعي وتعديل صيغته ليكون متوائمًا مع مبدأ المساواة، أو بالحق في تشكيل كيان سياسيّ مستقلّ (دولة) إذا استعصى العيش المشترك، خصوصًا إذا أنذر بحرب أهليّة مثلاً، ومثل تلك القضايا مطروحة على الصعيد العالمي فيما يخص كاتالونيا في إسبانيا وبلجيكا بين الوالنين والفلامانيين، وكذا فيما يخص الكيبك وإيرلندا في بريطانيا إضافةً إلى العديد من بلدان العالم الثالث، ومنها بلداننا العربية.

ولعلّ ذلك سيثير إشكاليات وردود فعل من جانب المجتمع الدولي، ناهيك عن الدول القائمة فعليًا التي لا ترغب أية دولة على تجزئتها وتقسيمها، وفي الوقت عينه فإنه سيثير شهيّة قيام كيان مستقلّ لدى المجموعات الثقافية المختلفة، التي تريد التعبير عن هويتها الخاصة بالانعتاق والتحرّر بعد شعور بالهيمنة والاضطهاد، وقد يخلق مثل هذا الأمر نزاعات مسلّحة وصراعات حربيّة تتداخل فيها المصالح الإقليميّة والدوليّة، فضلاً عن افتراض اللجوء إلى حلول غير قانونيّة أحيانًا، لاسيّما إذا شعرت إحدى القوى المتصارعة أنّ القضاء الدولي ومحكمة العدل الدوليّة قد لا تكون إلى جانبها، سواءً حكومة أو شعبًا مستضعفًا يريد التعبير عن هُوّيته الفرعيّة(٢٢).

المصادر والهوامش

(١)انظر: شيّا، رياض شفيق- حقوق الأقليات في ضوء القانون الدولي، دار النهار، ط١، بيروت، حزيران(يونيو)، ٢٠١٠، ص ٢٩٥ وما بعدها.

(٢) تأسست الأممية الاشتراكية الثانية في ١٤ تموز(يوليو) ١٨٨٩ بعد وفاة ماركس بست سنوات، في باريس بعد توحيد الحركة الاشتراكية في بلدان أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية. وضمت الأممية الثانية أكثر من ٢٠ بلداً في حين كانت الأممية الأولى قد تأسست في ٢٨ أيلول (سبتمبر) ١٨٦٤ واستمرت في العمل حتى عام ١٨٧٦،

أنظر: لينين، ف، إ — المختارات، ١٠ مجلدات، المجلد السادس، دار التقدم، موسكو، ١٩٧٥-١٩٧٩، ص ٥١-٥٥.

انظر كذلك: شعبان، عبد الحسين- القضايا الجديدة في الصراع العربي —الإسرائيلي، دار الكتبي، بيروت، ١٩٨٧، ص ٦٢-٦٣.

(٣)انظر: شيّا، رياض شفيق- حقوق الاقليات في ضوء القانون الدولي، دار النهار، بيروت، ٢٠١٠، ص ٢٥٧ و٢٩٦ .

(٤) انظر: مجموعة من المؤلفين السوفييت بإشراف: بوناماريوف، غروميكو، خفوستوف- تاريخ السياسة الخارجة للاتحاد السوفيتي، خ١، ١٩١٧-١٩٤٥، موسكو، ١٩٧٥، ص ٣٠ وما بعدها.

انظر كذلك: تونكين، خ، أ- الصراع الأيديولوجي والقانون الدولي، ترجمة سرنسكا ميلنا عن الروسية، براغ، ١٩٦٨، ص ٧٠-٧١ (باللغة التشيكية).

(٥) H.W.V Temperley — History of the peace conference of Paris, Vol. ١, London, Oxford university press, ١٩٢٠. Pp. ١٦٠-١٦١

(٦)انظر: المصري، شفيق- الحق في تقرير المصير في تطوره القانوني، أبحاث الجامعة الأمريكية في بيروت، ١٩٩٧، ص ٣٩.

انظر كذلك: السيد حسين، عدنان- حق تقرير المصير، القضية الأرمنية نموذجاً، مركز الدراسات الأرمنية، ١٩٩٨، ص ٢١-٤٦.

(٧) قارن: المصري، شفيق، الحق في تقرير المصير في تطوّره القانوني، المصدر السابق، ص ٤٠ .

انظر : شيّا، رياض، حقوق الأقليات في القانون الدولي، مصدر سابق، ص ٢٩٩.

(٨) انظر: شعبان، عبد الحسين، القضايا الجديدة في الصراع العربي- الإسرائيلي، مصدر سابق، ص ٦١-٦٢.

أنظر كذلك: نص ميثاق الأمم المتحدة والنظام الأساسي لمحكمة العدل الدولية، نيويورك، الأمم المتحدة، (آذار ١٩٩٥.

(٩) أنظر: شكري، محمد عزيز(الدكتور)- المدخل إلى القانون الدولي العام وفق السلم، دار الفكر، ط٤، دمشق، ١٩٨٠، ص ١٨٣.

(١٠) أنظر: شعبان ، عبد الحسين- القضايا الجديدة في الصراع العربي الإسرائيلي، مصدر سابق، ص ٦٢-٦٣.
(١١) انظر: شعبان ، عبد الحسين- الإنسان هو الأصل- مدخل إلى القانون الدولي وحقوق الإنسان، مركز القاهرة، ٢٠٠٢.
أنظر كذلك: شعبان، عبد الحسين- محاضرات على طلبة الدراسات العليا، جامعة صلاح الدين، أربيل، السنة الدراسية ١٩٩٩-٢٠٠٠
قارن كذلك: ميثاق الأمم المتحدة والنظام الأساسي لمحكمة العدل الدولية ، مصدر سابق.
(١٢) قارن: نصوص العهدين الدوليين في: البسيوني، محمود شريف، حقوق الإنسان، المجلد الأول، الوثائق العالمية والإقليمية.
(١٣) انظر: شيا، رياض شفيق — حقوق الأقليات في ضوء القانون الدولي، المصدر السابق، ص ٣٠٦.
(١٤) انظر: شيّا، رياض شفيق- حقوق الاقليات في ضوء القانون الدولي ، مصدر سابق، ص ٣٠٧.
انظر كذلك: Bessom, Samantha and Jasioulas, John- The philosophy of International Law, Oxford university press,٢٠١٠.
(١٥) انظر: نص قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ١٥١٤ الصادر في ١٤ كانون الأول (ديسمبر) العام ١٩٦٠ في www UN.org/general assembly resolutions
(١٦) انظر: شيّا، رياض شفيق- حقوق الاقليات في ضوء القانون الدولي ، مصدر سابق، ص ٣١١
(١٧) انظر: شعبان، عبد الحسين- الصراع الأيديولوجي في العلاقات الدولية ، دارالحوار، اللاذقية، ١٩٨٥، ص ٨٩ وما بعدها.
(١٨) انظر: المصري ، شفيق ، مصدر سابق، ص ٤٥
(١٩) Waldron, Jeremy- the philosophy of international Law, Ibid, p ٣٩٧-٤٠٠ . Kymlicka, will, Ibid, p ٣٧٧-٣٧٨.
(٢٠) انظر: المناقشات الحيوية التي نقلها الأستاذ شيّا، رياض شفيق في كتابه القيّم — حقوق الأقليات في ضوء القانون الدولي، مصدر سابق ، ص ٢٩٥-٣١٩..
(٢١) أنظر: شعبان، عبد الحسين- السيادة ومبدأ التدخل الإنساني، محاضرة في جامعة صلاح الدين، إربيل، ٢٠٠٠ (صدرت بكراس لاحقاً عن الجامعة).
(٢٢) الأساس في هذا النص محاضرة ألقيت في المؤتمر الأكاديمي الذي نظّمته وزارة الخارجية الجزائرية بحضور مفكرين وقانونيين ودبلوماسيين وأكاديميين بارزين، حيث شكّل إضاءة مهمة في الفقه القانوني ارتباطاً مع مبدأ حق تقرير المصير الذي على الرغم من صدور القرار ١٥١٤ الخاص بتصفية الكولونيالية ما يزال موضوعاً راهنياً يستوجب البحث والتنقيب وإيجاد الآليات الدولية المناسبة، خصوصاً التزام المجتمع الدولي بتطبيقاته المختلفة. وكان هذا المؤتمر قد التأم في العاصمة الجزائرية ١٣/١٤ديسمبر/كانون الأول ٢٠١٠ لمناسبة الذكرى الـ٥٠ لصدور «قرار تصفية الكولونيالية» العام ١٩٦٠ .

متى ينتصرُ العربُ على نكبتهم؟

رضي الموسوي
كاتبٌ صحفيّ/ البحرين

عندما تجتمعُ الحكومةُ الصهيونيّةُ في نفق تحت المسجد الأقصى في ذكرى احتّلال مدينة القدس في تحدّ سافر للفلسطينيين والعرب والعالم، فإنّ وراءَ هذا الاجتماع دلالات كثيرةً ورسائلَ متعدّدةَ الاتجاهات تُوجّهها وتتفاخرُ بها حكومةٌ فاشيّةٌ عنصريّةٌ تطبّقُ نظام الأبارتهايد سيّئ الصيت والسمعة. دلالاتٌ تمتدُ في عمق التاريخ ولا تتوقّف عند النكبة الأولى التي كشفت الكثير من التواطؤ الذي مارسته الأنظمة العربيّة.

طيّرت نكبةُ العرب الأولى أكثر من نصف مساحة فلسطين، وأسّست دولة الاحتلال الصهيوني بمؤامرة بريطانيّة دوليّة تمّ الإعلان عنها منتصف مايو/أيار ١٩٤٨ وشهدت مجازر بشعة ضدّ الشعب الفلسطيني تُذكّر بجرائم النازية الهتلريّة والفاشيّة الموسيلينيّة بتهجير أكثر من ٧٥٠ ألف فلسطيني، وسرقة الممتلكات والاستيلاء على المنازل والمزارع والأراضي. هذه الفاجعة أصّلت النكبة الثانية في الوطن العربي مع إهمال مسببات النكبة الأولى وتناسيها، وترك الجرح الفلسطيني/العربي ينزف طوال ٧٥ عامًا حتى تقيّحت مفاصل الأمّة ووهن جسدها، وأصبح التهجير واللجوء أمرًا مقبولًا في مختلف البلدان العربيّة، وصار إحراق المدن والقرى وارتكاب المجازر من اليوميات الاعتياديّة لهذه الأمّة، حتى تقطّعت الأوصال وأصيبت دولٌ مركزيّةٌ، مثل سوريا والعراق بداء التجزئة وتفتيت المفتّت والخراب والاحتراب الداخلي، وعانت دولٌ عربيّةٌ لها اعتباراتها، على المستوى القومي والاستراتيجي، من تردي أحوالها الاقتصاديّة والسياسيّة والاجتماعيّة؛ فشاع الفقر والبطالة والمرض، وأضحت كل هذه الدول وغيرها، مثل لبنان والسودان والصومال دولًا فاشلةً غيرَ قادرة على إطعام مواطنيها ولا إيوائهم ولا تعليمهم ولا تطبيبهم، ليعمّ الخرابُ ويندرَ بزحفه نحو البلاد التي تتمتّع بموارد طبيعيّة، وقد بدأ الزحف في صور شتى، منها البطالة وتآكل الطبقة الوسطى واستفحال الفساد.

في النكبة الأولى، قتل الصهاينة بالتواطؤ والتآمر مع الانتداب البريطاني وبعض الأنظمة العربية أكثر من ١٠ آلاف فلسطيني، ومنذ ذلك الوقت تمّ قتل أضعاف مضاعفة من الفلسطينيين والعرب. فبعد تسعة عشر عامًا تمّ احتلال باقي فلسطين بما فيها شرقي القدس والمسجد الأقصى وكنيسة القيامة، وشبه جزيرة سيناء المصرية وهضبة الجولان السورية، فيما صار يعرف «بنكسة» الرابع من حزيران ١٩٦٧، ليشرّع الزعيم الراحل جمال عبد الناصر في إعادة بناء الجيش المصري الذي دمّر الكيان الصهيوني أغلب تشكيلاته في حرب الأيّام الستة، ولتبدأ حرب الاستنزاف التي هيّأت لحرب أكتوبر المجيدة ١٩٧٣ التي هُزم فيها جيش الاحتلال الصهيوني وسقطت مقولة «الجيش الذي لا يقهر»، حيث تمّ تحرير بعض الأراضي التي تمّ احتلالها في حرب حزيران.

بيد أنّ انتصار أكتوبر العسكري لم يستثمر سياسيًا؛ فتحوّل إلى فرصة للكيان الصهيوني استثمرها بحدّها الأقصى على شكل مفاوضات مع مصر، وهو إعلانٌ صريحٌ على عجز النظام الرسمي العربي وعدم قدرته على إدارة المعركة وعلى تعلم درس النكبة الأولى وفشله في التعاطي مع تبعات نتائج النكبة التي قادت إلى عجز هذا النظام في التعاطي مع القضايا الرئيسيّة والمحوريّة، ليس على

المستوى الإقليمي العربي فحسب، بل أيضًا على المستوى القُطري الوطني بجمود برامج التنمية الاقتصادية والاجتماعية وخططهما، وما تلاها من ظواهر البطالة والفقر والمرض وتردي التعليم والصحي والبنى التحتية.

يسجّل التاريخ أن الثامن والعشرين من أكتوبر عام ١٩٧٣ كان يومًا مشؤومًا باعتباره يؤرّخ للتطبيع العلني الذي قاد إلى اتفاقات كامب ديفيد بين الكيان ومصر وخروج الأخيرة من الصراع العربي الصهيوني، وتحوّلها إلى وسيط بين الكيان والفصائل الفلسطينيّة! لقد حدثَ ذلك في خيمة تابعة للأمم المتّحدة عند الكيلو ١٠١ على طَريق القاهرة - السويس، حيث ترأّس الجانب المصري الفريق محمد عبد الغني الجمسي، بينما ترأس الجانب الصهيوني الجنرال أهارون ياريف. تركزت المباحثات «حول وضع الأسرى والجرحى عند الطرفين، ومسألة تزويد مدينة السويس والجيش المصري الثالث بالمواد الغذائية وماء الشرب، وتحديد المواقع التي يمكن أن ترابط فيها قوات الطوارئ الدوليّة، ورسم خطوط ٢٢ أكتوبر لتنفيذ قرار مجلس الأمن الدولي»، وفق ما أشارت له العديد من المصادر المصريّة والدوليّة.

خروج مصر السادات على الإجماع العربي والبدء في التطبيع ضرب مسمارًا في نعش وحدة الموقف العربي، وأدى لنقل مقرّ الجامعة العربيّة من القاهرة المحاذية جغرافيًا والواقعة على خط التماس مع فلسطين المحتلّة، إلى تونس في شمال غرب إفريقيا والبعيدة جغرافيًا عن فلسطين، وهي انتقالةٌ لها دلالاتها السياسية والاستراتيجية في عملية الصراع مع العدو الصهيوني. أسست المفاوضات المباشرة بين الكيان ومصر مسببات الغزو الصهيوني الأوّل لجنوب لبنان، وتشكيلًا في الشريط الحدودي مع فلسطين «دويلة لبنان الجنوبي» بقيادة الجنرال العسكري المنشق عن الجيش اللبناني سعد حداد، الذي كان يتلقى الأوامر من جيش الاحتلال الصهيوني، ليبقى شوكةً في خاصرة لبنان وقوات الثورة الفلسطينيّة التي تمركزت هناك بعد مجازر أيلول ١٩٧٠. ولم يكن غريبًا تزامن الغزو الصهيوني للبنان في صيف ١٩٨٢ مع التوقيع على اتفاقات كامب ديفيد وتحييد أكبر دولة عربيّة؛ إذ كانت جحافل الغزو الصهيونيّ وطيرانه تقصف المناطق اللبنانية وتتوجه إلى العاصمة اللبنانية بيروت، بينما كان النظام الرسمي العربي يتفرّج في بعض الأحيان ويتواطأ ويتآمر في أحيانٍ كثيرةٍ على الثورة الفلسطينيّة والحركة الوطنيّة اللبنانيّة. لكن بيروت صمدت أكثر من ثمانين يومًا كبّدت فيها القوات المشتركة خسائرَ فادحةً لقوات الغزو الصهيوني، وقلعةُ شقيف شاهدةٌ على تلك الملاحم كما معارك مثلث خلدة والحمام العسكري ومنطقة السفارة التونسية ورأس النبع وغيرها من المناطق اللبنانية التي طالتها يد الغدر الصهيونية وأعوانها.

لم تنكسر الإرادة المقاومة رغم الخذلان الرسمي العربي وتواطئه، ورغم إجبار قوات الثورة الفلسطينية على مغادرة بيروت إلى الشتات. فقد كانت إرادة التحرير متوهجة، وكانت دروس النكبة و«النكسة» تتفاعل مع كيمياء المقاومة، بينما كان النظام الرسمي العربي يهرولُ نحو النكبة الثانية المتمثّلة في التطبيع وعقد الاتفاقات مع الكيان الصهيوني، بعضها تحت الطاولة وبعضها فوقها، والتحالف معه ضد إرادة الشعوب العربيّة، وذلك لتمارس هذه الأنظمة هروبًا شبه جماعيّ من تبعات فشلها في إدارة دولها على الصعدً الاقتصادية والسياسية والاجتماعية كافةً، بهدر الثروات الطبيعية وغير الطبيعية والعجز البائن في تحقيق الحد الأدنى من التنمية الاقتصادية، وفشها في تحقيق المتطلبات الدنيا للتعليم والصحة والبنى التحتية.

بدلًا من تحقيق الرفاء والازدهار والتقدّم، أغرقت النظم الرسميّة العربيّة مجتمعاتها في جحيم الفشل المتراكم والعجز المتكرّر على حساب إنجاز المهمات الأساسيّة، ويتجلّى ذلك في حجم المديونية المهول الذي رهن بلداننا إلى المؤسسات المالية الدولية، وفي مقدمتها صندوق النقد والبنك الدوليين، حيث تعاني الدول العربية من دين عامّ مرعب يبلغ ١,٥ تريليون دولار في عام ٢٠٢٢، تتربعُ مصر على رأس قائمة المديونين العرب بدين عام يبلغ ٤٠٩,٥ مليار دولار، تشكل نسبته ٩٤ بالمئة من حجم الاقتصاد المصري. وتأتي السعودية ثانيًا بدين عام يصل ٢٥٠,٧ مليار دولار، ثم الإمارات ثالثًا بقيمة دين عام بلغت ١٥٨,٩ مليار دولار، وفق بيانات صنّدوق النقد الدولي الذي أشار إلى أنّ الجزائر جاءت في المرتبة الرابعة بدين عام بلغ ١٠٩,٦ مليار دولار، فالعراق بأكثر من ١٠٤ مليار دولار ثم قطر بنحو ١٠٤ مليار دولار، فالمغرب بأكثر من ١٠٢ مليار دولار، فالسودان ٨٩,٤ مليار دولار فالبحرين بدين عام متباين التقدير وتسجّله جهاتٌ عدةٌ نحو ٥٨ مليار دولار، ثم سلطنة عمان بدين عام بلغ ٤٨,٥ مليار دولار. لم تتوفر لدى صندوق النقد الدولي معلوماتٌ دقيقةٌ عن كل من لبنان وسوريا وليبيا والصومال، وذلك بسبب الأوضاع الأمنيّة وغياب الإحصاءات المطلوبة.

الدينُ العام ليس سوى مرآة للأداء الاقتصادي الفاشل؛ إذ تعاني أغلب الدول العربية من عجوزات في موازناتها العامة؛ بسبب الفساد الماليً والإداري والمحسوبية والزبائنية، وذلك نظرًا لعدم قدرة هذه النظم على وضع سياسات اقتصاديّة واجتماعيّة قادرة على أن تشكل قًاطرةً لنقلً الواقع منً مكانً إلى آخر أكثر رحابة، والحقيقة هي أكثر تعقيدًا؛ إذ إنّ عقلية الغرق في النكبة الأولى خلقت مقومات النكبة الثانية التي هي عبارةٌ عن عجز على مختلف المستويات. فالبطالةُ في الوطن العربي تعاني من أرقام قياسيّة، وهذه حقيقةٌ يوجب معالجة مشاكلها، وليس المناكفة في نسبها، وتشير إحصاءات منظمة العمل الدوليّة الى أنّ نسبة البطالة في ٢٠٢٣ سوف تنخفض إلى ٨,٢ بالمئة من ٨,٥ بالمئة في ٢٠٢٢، أي أن أكثر من ١٤ مليون شخص هم عاطلون عن العمل يمكن تحويلهم إلى قنابل موقوتة في أكثر من مكانٍ وجهة. أما الفقر فتشير إحصاءات الإسكوا إلى أن عدد الفقراء في الوطن العربي يصل إلى ١٣٠ مليون شخص يشكّلون ثلث عدد السكان، ما يؤكّد على فشل برامج التنمية المستدامة والعجز البيّن في وضع الخطط لتجاوز الأزمات التي تعصف بالاقتصاديات العربية نظرًا للتحوّلات الكبرى التي تحصل في المنطقة العربيّة.

إذن، فالنظام الرسمي العربي الذي هربت دوله من مواجهة نكبة ١٩٤٨، عندما احتلّ الصهاينةُ أرض فلسطين، ولم تسعَ للعمل على وضع الخطط العلمية والمهنية والوطنية والقومية لإعادة فلسطين للحضن والانتماء العربي، إنّما سعت للتحالف مع العدو، فجاءت اتفاقات إبراهام التي عبدت الطريق لخلق وقائعَ جديدة من التطبيع المخزي والمجاني، الذي أتت نتائجه مخيّبةً لآمال البعض الذي راهن على وقائع جديدة لفرض التطبيع الذي تستميت دولة الاحتلال لفرضه واقعًا قائمًا يمدّد لنكبة ثانية، وذلك من خلال الضغط على الأنظمة في نقاط ضعفها، بما فيها الدول التي تعاني من اختلالات ديمغرافيّة فجّة، حيث تتسرب النكبة ليست فقط فقدانً الأرض ومصادرة الممتلكات تكريس الاحتلال بتخاذل، بل هي أيضًا فقدان العزة والكرامة وغياب إرادة المواجهة والمقاومة، التي بحضورها تكتمل عناصر المواجهة ومسبّبات الانتصار على النكبة.

مـارك رودين
أيقونةُ الملصق الفلسطيني

عماد عبد الوهاب
فنان تشكيلي فلسطيني/ الولايات المتحدة الأمريكية

عامان بعد العشرين كان عمر «مارك رودين» حين انطلقت الثورة الفلسطينيّة المسلّحة عام ١٩٦٧، وفي قراءة للمشهد السياسي في ذلك الوقت، العقد السادس من القرن السابق، يتضح لنا حجم التحوّلات والتأثيرات السياسيّة المختلفة، التي تركت تأثيراتها على جيلٍ كاملٍ من الشباب في ذلك الوقت، وأسهمت في تشكيل وعيه الجمعي، فمع أفول عقد الخمسينات كان انتصار الثورة وسقوط النظام الدكتاتوري في كوبا (كانون الثاني ١٩٥٩) وبعد ذلك بسنوات قليلة كانت النهايةُ المأساويّةُ لأحد قادة هذه الثورة «تشي جيفارا/ يوليو ١٩٦٧» الذي تحوّل إلى رمز ثوريّ كبير منذ ذلك الحين، وحتى يومنا هذا، كما شهد ذلك العقد، بداية الهزيمةً العسكريّة الأمريكيّة في فيتنام، التي تكللت بالانسحاب الكامل في آذار ١٩٧٣.

وفي مشهد آخر كانت الانتفاضة الطلابيّة في فرنسا التي سمع صداها في كل أرجاء العالم، خاصّةً بعد استقطابها نحو عشر ملايين عامل جابوا أنحاء البلاد. كل هذا عدا التحوّلات الثقافيّة والفنيّة، التي شهدت ظهور الواقعية الإيطالية في السينما، وتيّار البوب آرت في مجال الموسيقى والفنون التشكيليّة، التي كان لها تأثيرٌ كبيرٌ في مجال الفنون المعاصرة عامة.

لعلنا نقرأ من خلال هذه المقدّمة كيفية نشوء التيارات والحركات ذات الطابع اليساري وصولًا إلى أقصاها متمثّلًا بالفصائل الراديكاليّة في أوروبا وأمريكا اللاتينية وصولًا إلى اليابان. لقد شكّلت جميع هذه القوى حالةً متقدّمةً من الدعم والمساندة للثورة الفلسطينيّة حديثة التشكّل آنذاك، وأفرزت لاحقًا ما يمكنُ تسميته «بالرفاق الأمميين» وهم الذين التحقوا مباشرةً في صفوف الفصائل، إما كمقاتلين أو مساهمين في العمل الثوري عامةً.

من رحم هذا المخاض الثوريّ كما يقولون جاءت تجربة «مارك رودين»، ذلك الفتى السويسري بهي الطلعة، ابن تلك البلاد التي اتّسمت بسحر الطبيعة، وسطوة المال، فنال من الأولى ما تيسّر له في مطلع عمره وفي آخره، وأما المال فقد حاول في بداية عمله الثوري أن ينتزع بعضًا منه، ليس طمعًا في الثروة، بل دعمًا للثورة، فكانت أول غزواته ضدّ الرأسمال المالي!

مارك رودين في بيروت:

درس مارك رودين الفن الكرافيكي في سويسرا، وبعده انتقل إلى مدينة ميلانو الإيطاليّة، وعمل مع مجموعة من الفنانين في مجال الفن الكرافيكي، وهو الرسمُ على الجدران العارية، والمسطّحات الكبيرة، وهي في طبيعتها وتكوينها تشبه الملصق، إلا أنّ هذا الأخير أصغر حجمًا.

ارتبط مارك بعلاقة صداقة مع بعض الطلبة الفلسطينيين الدارسين في إيطاليا، فما أن رأوا أعماله حتى اقترحوا عليه السفر إلى بيروت، حيث المجالات المناسبة لإظهار أعماله والاستفادة منها؛ لم ينتظر طويلًا واستقلّ أوّل سفينة متّجهة إلى مدينة صيدا الساحليّة «مطار بيروت كان مقفلًا بسبب القصف» وحط رحاله هناك ومنها إلى بيروت.

يصف مارك تلك التجربة في مقابلة صحفيّة نادرة «وصلت إلى بيروت، وسكنت في غرفة بالدور السابع، وكان عليّ أن أغادرها في كثير من الأوقات بشكل مؤقت، بسبب القصف الشديد وموقعها غير الآمن. كان ذلك قبل سقوط مخيم تل الزعتر بأيام قليلة حين جاء الرفاق وطلبوا مني تصميم مُلصق تحت شعار «تل الزعتر رمز المقاومة ضد الفاشية».

يواصل مارك قائلا «جلست في غرفتي الصغيرة والخالية إلا من أغراضي البسيطة وجالت عيناي في أرجائها، وتوقفت عيناي عند بندقية الكلاشنكوف التي كانت مستندة إلى الحائط، ومن هنا جاءتني فكرة الملصق الأول».

اتسمت حياة مارك رودين في السنوات التي عاش فيها سواءً في بيروت أو في دمشق بالتقشف والبساطة والتواضع؛ كان باختصار يعيش منسجمًا مع نفسه ومع قناعاته؛ يكتفي بالقليل، ولديه الكثير ليعطي الآخرين، ولم يطلب أكثر ممّا يحتاج، ولا يحتاج الكثير؛ لكي يطلب المزيد. يصف حياته بقليل من الكلام وموجزه «كان الرفاق يدفعون أجرة بيتي ونفقات علاجي حين أمرض وثمن دوائي حين أحتاج، إضافةً إلى مبلغ من المال يكفي لشراء طعامي. أما بالنسبة للملابس؛ فاشتريها من محلات الملابس المستعملة «البالة». كنت أشعر بالسعادة؛ لأنني استطعت أن أهرب من نمط الحياة الغربيّة ذات الطابع المادي».

نعم.. إنه أيقونة الملصق الفلسطيني

ما الذي يدفعنا للقول: إن مارك رودين أيقونة الملصق الفلسطيني؟

الواقع الإحصائي يشير إلى أن هناك المئات

من الفنانين الفلسطينيين والعرب والأجانب ممّن أسهموا في إثراء الملصق حتى ما قبل انطلاقة الثورة، وترك الكثير منهم بصمات مميزةً في هذا المجال، ومنهم فنانون وفنانات مشهودٌ لهم في اعتلاء سدة الحياة التشكيليّة العربيّة والعالميّة، ولكن في المقابل، فإنّ الأغلبيّة العظمى من هؤلاء الفنانين، لم يأتوا من خلفيّة متخصّصة في فنّ الملصق ومواصفاته ومتطلّباته، بل إنّهم كانوا رسامي لوحات، لذا نرى أعمالهم الفنية تعرض تارةً لوحةً فنيّةً في أحد المعارض، وفي تارة أخرى ملصقًا على جدار ما، وتلك ليست نقيصة، إنما للملصق مواصفاتٌ محددةٌ تميزه عن اللوحة؛ كالبساطة والمباشرة ووضوح الفكرة وسرعة التلقي؛ الأمر الذي لا يتماهى مع اللوحة الفنية الحاضرة دومًا في الأماكن المغلقة، كصالات العرض أو البيوت والمكاتب وغير ذلك، ومن ثَمّ فهي تتطلب التحليل والتأمل والقراءة المـتأنية. طبعًا لا يمكن الجزم بأن هناك حدًّا فاصلًا بين هذا وذاك، فغالبًا ما تكون هناك استثناءات؛ تلك هي الطبيعةُ التخصصيّةُ لأعمال مارك رودين، التي وسمت ملصقاته جميعًا وميزتها كأعمال متكاملة تحمل في طياتها روح الدعاية للفكرة والتحريض من أجل الدفاع عنها.

عند الحديث عن الكم المنتج من الملصقات، فإنّ إسهامات «مارك رودين» قد فاقت الحدّ الأقصى لما وصل إليه أي فنانٍ آخر؛ فاستنادًا لإحصاءات أرشيف الملصق الفلسطيني في واشنطن الذي يضم في أرشيفه أكثر من سبعة عشر ألف ملصق من بينها آلاف الملصقات الفلسطينية تتوزع على مئات من الفنانين الفلسطينيين والعرب والأجانب، لمارك رودين وحده مائتان وأربعة عشر ملصقًا تغطي مساحةً زمنيةً تقدر بخمسة عشر عامًا «١٩٧١ — ١٩٩١».

حاولنا معرفة عدد الملصقات لمجموعة من الفنانين ذوي الحضور الأبرز كمًّا ونوعًا، وذلك بالعودة إلى الأرشيف الذي ذكرناه آنفًا، لنؤكد بشكل موضوعيّ أن مارك رودين هو الأكثر عطاءً على صعيد الملصق الفلسطيني.

ونلفت هنا إلى أن هذا المركز الأكبر من نوعه في العالم في مجال أرشفة الملصق الفلسطيني قد نعى على صفحته الرسمية الفنان الراحل واصفًا إياه بالفنان العظيم الذي جسّد قيم التحرر والمساهم الرئيسي في الدعاية للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، واختتم هذا النعي بعبارة «روح مارك رودين لا تزال حيّة».

الرموز وحواملها في ملصقات مارك رودين:

الكم العددي الكبير للملصقات الذي أشرنا له سابقًا يعكس تعدد المناسبات والأحداث التي غطتها، التي شكّلت حواملَ لطيف واسع من الرموز التي جرى توظيفها لخدمة هذه المناسبة أو تلك؛ فالمرأةُ هي الحاملةُ للتراث والمدافعة عنه، والحجر رمز للانتفاضة وقبضة اليد تعني القوة والكوفية هي المعادل للهوية والسلاسل المحطمة ترمز للحرية وقضبان النافذة الصغيرة تعني السجن. لا نتحدث هنا عن الرمز باعتباره حالةً ثابتة، بل هي متغيرةٌ حسب موقعها وطبيعة المناسبة التي تمثلها. فقد استعمل مارك رودين الكوفية على ما يربو عن السبعين مرة، ولكنها كانت تختلف في كل مرة عن سابقتها، وهذا ما يمكن تسميته بالتوظيف الديناميكي للرمز، أي الرمز في حالته المتغيرة وليس الثابتة، فالكوفية التي تلوح في سماء القدس ليست كتلك المضمخة بدم الشهيد أو تلك التي تلف رأس السجين خلف القضبان، ويمكننا القياس على ذلك عبر مئات المواقع التي شهدتها تلك الرموز.

لا بدّ هنا من الإشادة بحرفيّة مارك رودين العالية وتمكّنه من أدواته الفنية، أو كما يقولون عندنا «ابن صنعه» فهو متمكّنٌ أكاديميًّا من حيث تناسق الألوان، مع أنه غالبًا ما يلجأ إلى عدم الإفراط بها لأسباب اقتصاديّة، فلم يكن يرغب في دفع مبالغَ كبيرةً ثمنًا لملصقاته، كما أنه كان بارعًا في إيجاد علاقة مستقرّة بين عناصر الملصق من حيث الكتلةُ والفراغُ والتناسب بينهما، ناهيك عن حرفيّته وتمكنه من رسم العناصر سواءً كانت شخوصًا أو عناصر في الطبيعة.

اللافت في تجربة مارك رودين، أنه غالبًا ما كان يذهب إلى الواقع بعيدًا عن الصورة الذهنية الحاضرة في ذاكرته البصرية، فقد كان قادرًا على رسم المخيّم الذي يعيش فيه، ويعرف تفاصيل بيوته وحاراته وهو جالسٌ في مرسمه، ولكنّه كان يفضل أن يحمل أوراقه وأقلامه ويجول فيه راسمًا عشرات الاسكتشات، كما الحال في ملصق الذكرى السنوية لمجازر صبرا وشاتيلا، حيث اختار إحدى تلك الرسوم، وأضاف شلالًا من الدم يتسرب من بين حواري المخيم. مرات عديدة كان يلجأ للمرآة كي يرسم يده عشرات المرات كي يستخدم إحداها في عمله الفني، وحينًا كان يستعين بأحد الرفاق موديلًا إذا ما أراد تشخيص جزء من الجسد «ملصق اليد التي تحمل المطرقة وظلها يبدو كظل بندقية فوق راية حمراء».

لم تكن مهمة مارك تنتهي بانتهاء تصميمه للملصق، حيث يمتد عمله منذ تكليفه بالعمل وصولًا حتى التأكّد من شحنه لمختلف الساحات، وذلك ما كان أحد منا أو غيرنا يفعله. تلك هي سمته وفرادته. كان يمضي وقتًا طويلًا في اختيار الشعار المرفق بالملصق، ومن ثم في اختيار الحرف المناسب بالعربية والإنجليزية. في البدء كان يلجأ إلى خطاط مجلة الهدف، وبعد إحلال التصاميم الإلكترونية للمجلة، ذهب للبحث عن تجربته الخاصة والفريدة، حيث قرّر القيام بالمهمة بنفسه، فأحضر مجموعة من عيدان القصب «البوص» وقام بنحتها لتصبح مثل ريشة الخطاطين المعروفة، وأصبح يقوم بخط الشعارات بنفسه، مع عدم معرفته باللغة العربية إنّما من خلال معرفته لحروفها، وكان ذلك مثارًا للدهشة والإعجاب.

كان مارك رودين يدرك أهمية الملصق حتى قبل التحاقه في صفوف المقاومة الفلسطينية، فقد اضطلع العالم على موجة الملصقات التي رافقت انتصار الثورة البلشفية، وكذلك انتصارها في الحرب العالمية الثانية في مواجهة النازية وما رافقها من ملصقات تمجّد ذلك الانتصار، ولكن من خلال عمله مع المقاومة أدرك بشكل مضاعف أهميّة هذا المنتج الفني، فالثورةُ الفلسطينية انفردت

بحالة متميّزة عن كل ثورات العالم، ذلك أنها بشكلٍ واسع كانت ثورةً ذات طابع مديني وليس ريفيًّا، أيّ أنها كانت تعمل وسَط الجماهير الحاضرة في المدن الكبيرة أو في أطرافها، حيث توجد المخيّمات، وليس كما الثورات في أمريكا اللاتينية أو الجزائر أو فيتنام وغير ذلك. وربّما هذا يفسر لماذا انفردت الثورة الفلسطينية بهذا العدد الهائل من الملصقات الذي يعد بالآلاف، فالمدنُ هي الحاضنة الأساسية للملصقات؛ الأمر الذي يندر في الريف. طبعًا هناك أسبابٌ أخرى لظاهرة الكثافة العديدة للملصق الفلسطيني، ولكن لسنا بصددها في هذا المجال.

ما نريد الوصول إليه، أن مارك رودين الذي عاش في المخيمات الفلسطينية أدرك أهمية الملصق في عملية التعبئة، والاستقطاب، لذا كانت أعماله قريبة من الناس، من حياتهم، من أحلامهم، وعذاب التشرد، وفقدان الوطن.

حتى النفس الأخير من حياته كان مارك رودين على قناعة كاملة بأن الملصق والفن عمومًا هو جزءٌ من العملية الكفاحية في خدمة الإنسان المضطهد اجتماعيًّا وسياسيًّا، فكيف الإنسان الفلسطيني الذي شملته كل هذه الأشكال من الاضطهاد، مضافًا إليها حرمانه من بلده وحرمانه من وطن حرّ ومستقلّ. ولأنّ العملية الكفاحية لا تتجزّأ عنده، نراه أثناء الاجتياح الصهيوني في حزيران ١٩٨٢ على رأس مجموعة من رفاقه يدافعون عن بيروت. لقد كانَ في الخطوط الأماميّة من ضواحي العاصمة اللبنانية «حي السلم» في عصر اليوم السابع للاجتياح، جاءنا خبر استشهاد جهاد منصور ومجموعته في كمين للقوّات الغازية، فكان لذلك وقع الصدمة علينا جميعًا. وما أن حلّ عصر ذلك اليوم، وإذا به قادمًا وكأنه عائدٌ من الموت؛ كان حزينًا ومنهكًا، وما أثقل على روحه كان فقدان رفاقه في المجموعة.

في مطلع التسعينات، ومع حالة التضييق الأمني على مارك رودين قرر أن يغادر دمشق؛ فوقع في أيدي العسس التركي، وكان أن ذهب إلى «عشريته السوداء» ما بين سجون تركيا والدنمارك، وتقطعت بنا السبل، وحين عادت كان الوقت متأخّرًا.

في يوم ما، قال لينين في وصف رفيقه تروتسكي «لقد كان معنا وليس منا، أما نحن رفاق مارك رودين فنقول: «لقد كان معنا ومنا».

ذاتَ يومٍ في نهايةِ أيّار

ماريا يونس

فنانة تشكيلية إيطالية/ إيطاليا

تعرّفت إلى مارك في بيروت ذاتَ يو م في نهاية أيّار ١٩٨٢، في مدرسة صامد لمحو الأميّة للكبار، حيث بدأنا دراسة اللّغة العربيّة. في ٥ حزيران قصف الصهاينة «المدينة الرياضيّة» القريبة من المدرسة، وإذ بنا تحت صوت القنابل؛ كان اجتياحُ لبنان قد بدأ. هكذا بدأت صداقتنا التي تمتّنت خلال العدوان الصهيوني، والذكريات هنا كثيرةٌ تتغلّب فيها الحياة على الموت؛ فالحربُ تبرز كل ما في شخصياتنا من جوانب.

أذكر أنّنا كنا نذهب أنا ورفيقي أبو مانو لنحضر له الكابتشينو الساخن تحت جسر الكولا، حيث كان جهاد يتناوب على الحراسة؛ أذكر أوقات الهدنة التي كنّا نقضيها على كورنيش البحر أو تحت سماء الليل تنيرها القنابل الضوئيّة.. ثمّ.. لحظات الضيق من قلّة الأخبار.. كلاهما على الجبهة، وأنا في المدينة التي تصغر يومًا بعد يو م؛ المجهول أمامنا، «كيف ستنتهي الأمور؟» واستمرّ الحال حتّى الأيّا م الرهيبة التي شهدت إجلاء المقاتلين الفلسطينيين من لبنان.

لكنّي الآن أريد تذكّر اللحظات الجميلة؛ فقد كان هذا الرفيق مفاجأةً رائعة، فهو يتحدّث الإيطاليّة، ويعرف إيطاليا جيّدًا ويشاركنا اهتماماتنا وأذواقنا في الفن والموسيقى والطعام والسينما، وقبل كل شيء كنا نتشارك في الانتماء الماركسي الذي أوصلنا إلى بيروت مع المقاومة الفلسطينيّة، جهاد مع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وأنا وشريك حياتي أبو مانو مع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين - القيادة العامة، وعلاوةً على ذلك كان لدينا نفس العمل في هاتين المنظمتين: الاهتمام بالرسوم الإعلاميّة.

بعد إخراجنا من لبنان التقينا في دمشق. وبعد أيام قليلة... وصلنا خبر مجزرة صبرا وشّاتيلا، ولم نكن قد وجدنا منزلًا للسكن وللعمل، ثم جاءنا أوّل عمل؛ الملصقات الأولى، التي قمنا بها معًا لمنظمة التحرير الفلسطينية في غرفةٍ صغيرة استعرناها.

وهكذا بدأت حياتنا الجديدة بين المدينة ومخيم اليرموك... واشترى جهاد بزقًا، وأبو مانو غيتارًا، وكنا نلتقي في المساء نغني لأنفسنا مجموعة من الأغاني الشعبيّة الإيطالية والسويسرية... ثم ذهب جهاد ليعيش على أطراف المخيم، في الريف تقريبًا (وهناك بعد سنوات قليلة وجدنا أنا وأبو مانو المنزل الذي سنقضّي فيه عشرين عامًا). وكنا نحن من لديه سيارة (!)، نذهب لزيارته أو لنأخذه لقضاء عطلة نهاية الأسبوع معًا في الطهي والغناء والنقاش الكثير... كنا نتناقش في كل شيء، في السياسة دائمًا، وكثيرا ما نتناقش حول عملنا. كانت تلك، قبل أوسلو، سنوات من العمل المكثّف للمقاومة بأكملها: المعارض، والصحف، واللقاءات، والأنشطة الاجتماعيّة... إلخ.

كان جهاد «معلّمًا» في إنتاج الملصقات، حيث كان عمله دقيقًا، ونصائحه مفيدة، وسروره عند النتيجة الجيدة كبيرًا وغضبه عند أدنى عيب شديدًا... كل هذا كان وما يزال إسمنتَ علاقتنا التي استمرّت عقودًا، حتى آخر لقاءٍ في نهاية أيّار ٢٠٢٢.

رسّام الفلسطينيّين
لم يكن منهم... كان معهم!
سلامًا جهاد منصور

يوسف الناصر
فنانٌ تشكيليٌّ عراقيّ/ بريطانيا

في مرّة سابقة كتبت شهادةً شخصيّةً عن تجربتي باعتباري واحدًا من منتجي الملصقات الفلسطينيّة منذ منتصف السبعينات، وذلك في بغداد وبيروت ودمشق وقبرص وما بعدها، وقرأتها في مَعرِض الكتّاب في رام الله سنة ٢٠١٨. تحدثت فيها عن رسّامي الملصقات ومصمّميها، آنذاك، وظروف عملهم في ظل الحرب الأهليّة اللبنانيّة المتجدّدة والفوضى السياسيّة والاجتماعيّة التي صاحبتها، وثمّ الاجتياح الإسرائيليّ الذي أعقبها واحتلال بيروت، وما تبع ذلك من خروجنا من لبنان، وانتشارنا في أقطارٍ متباعدةٍ ما بين اليمن والجزائر وتونس وسوريا.

كان أكثرنا في العشرينات من عمره وأوائل الثلاثينات، هاربين من بلداننا أو لا بلاد لنا، وذلك يرسم صورةً عن سعة خبراتنا في الحياة والفن وعمقها، إضافةً إلى أنّ الملصق السياسي لم يكن مادّةً أساسيّةً في حياتنا اليوميّة أو في الجامعات والمعاهد العربيّة التي تخرجنا منها إلا بصورة هامشيّة وباهتة وفي حدودٍ ضيّقة. انتشر البوستر وصناعته في العراق، مثلًا، في الستينات والسبعينات، أقامت جمعية الفنانين العراقيين مشاغل لإنتاجه، ثمّ معارض كبيرة في مناسبات مختلفة للمنتج محليًّا منها أو المستعار من الخارج، لكن هذا سرعان ما تراجع، ولم يؤسس لثقافة راسخة في هذا الحقل، وأكاد أقول: إنّ هذا الأمر يسري على البلدان العربيّة القريبّة من العراق بهذه الدرجة أو تلك.

لم يكن ما نعرفه من الملصق مبنيًّا على أساسٍ من تراكم الخبرة والتاريخ بقدر ما كان مشاهدات عابرة من الأفلام والمعارض القليلة ومن الكتب والصحف، وبالإمكان القول دون ضمير مثقل: إنّ الملصق في منطقتنا عمومًا كان بَسيطًا بل ساذجًا، وربّما ما يزال. لم تكن ملصقاتنا موجهةً إلى جهةٍ معيّنة وفئة محدّدة من الناس بقدر ما كانت إلى الجمهور العريض، ولم يكن لدينا أرشيف نعود إليه، وكانت الملصقات ترسم وتطبع وتلصق على الجدران وتختفي في اليوم التالي تحت ملصقات جديدة.

كانت الملصقات هي كلّ ما نملك للوصول إلى الناس (أقصد بصريًّا؛ إذ كان هناك إذاعةٌ ومهرجاناتٌ خطابيّةٌ وصحف) لكنّها مع ذلك لم تخضع لبرنامجٍ واضحٍ وسياسةٍ محدّدةٍ ولم توضع لها خطّةٌ للإنتاج بكلّ ما يعنيه ذلك من التدريب والتثقيف والفهم وتهيئة المراسم والأدوات المطلوبة والطباعة والتوزيع، كانت متروكةً لإمكانات الفنانين الفردية، ولهوى السياسيين ومدراء ما يسمى بالإعلام، يتذكرون مناسبة ويرسلون في طلب الرسام، وإذا لم يجدوه أرسلوا في طلب غيره، ودائمًا يتذكّرون في آخر اللحظات (وأنبّه هنا إلى أني عندما أذكر مسؤولي الإعلام لا أشمل الجميع بكلامي هذا؛ إذ كان بينهم أشخاصٌ ذوو كفاءة عالية). لم يكن لدينا (شيوخ) نتطلّع إليهم ويراقبوننا ونتفاعل معهم ونحاكم تجربتهم ونحاول تطويرها، كان شيوخنا الفنّيون هم الإداريّون والسياسيّون أنفسهم، هؤلاء الناس كانوا حريصين على إيصال شعاراتهم وتنفيذ واجباتهم (بأسرع وأسهل وأوضح صورة، وأقول أوضح عامدًا)، ويتوقّعون منا أن ننفّذ ما يريدون، وهم يدفعون كلفة العمليّة كلّها بما فيها أجورنا البسيطة، فكانت ملصقاتنا نتاج تسويةٍ بيننا وبينهم نعرف ويعرفون أصولها وحدودها، لكن ذلك لم يكن قاعدةً صارمةً والاستثناءات معروفة.

خُيّل لي أحيانًا أنّ الإداري الذي قبل بتفسيري وتنفيذي البصري لفكرته لم يقبلها لحذاقته ومعرفته، وإنما قبلها لأنّه لم يكن يدرك تمامًا ما كنت أنوي فعله. كان هاجس المسؤول، وقد يكون الرسام أيضًا، هو إيصال الشعار. أمّا ما يرسم حوله وتحته فيأتي بالدرجة الثانية، وقد يستعمل الشكل المرسوم لشعارات وبوسترات مختلفة، قد يقتطع جزءٌ من لوحةٍ مرسومةٍ لهدف آخر تمامًا، لكن بعضنا فهم الأمر على أنّ الشكل يأتي أوّلًا، وهو وسيلة إيضاح وتفسير للشعار أو النص المكتوب، وليس العكس، وكان جهاد منصور أبرز هؤلاء.

أنتجنا المئات، إن لم يكن الآلاف من الملصقات وأغلفة المجلّات والكتب والبطاقات ومختلف المطبوعات، غير أن البيئة التي كنّا نعمل بها وظروفنا التي أقلّ ما يقال فيها أنّها لم تكن مناسبة، لم تساعدنا على تأسيس نهج خاصّ بنا في الرسم والتصميم وما يتبعهما منْ عمليّات الإنتاج، وكان الأمرُ متروكًا لاجتهاد المنتجين والجهات التي تكلّفهم بالإنتاج، لم يتسنّ لنا تدارس ما كنّا ننتجه، والبحث عن آفاق تطويره وتكريسه ليس بشكلٍ شخصي ولا عبر مؤسّساتنا الثقافيّة، فلم يكن عيشنا سهلًا وكانت حياتنا مضطربة، كذلك لم يكن الملصق ضمن أولويات برامج جمعية الفنانين

الفلسطينيين، مثلًا، ولا في برامج التثقيف والدعاية للفصائل الفلسطينية.

لكن ما يجب قوله هنا، إنّه بالرغم من كلّ ذلك، فإنّ ما أنتجناه يبعث على الفخر والاعتزاز، أراجعه الآن فأشعر أنّنا أدّينا ما علينا بإتّقان وصدق وحرفية عالية أتباها بها.

كنّا نعلمُ جيّدًا أنّنا نواجه إعلام الحقد والكراهية والظلم ونتصدّى له رغم تفاوت إمكاناتنا الكبير، بل كنّا نتفوّق عليه في مواضعَ كثيرة. هنا أذكر حادثًا وقع أوائل عام ١٩٨٣ وكنت حينها مصمّم مجلّة الهدف في دمشق (وأعتذر عن كون الموضوع يخصّني بين آخرين من زملائي)، حينها أقام وزير إسرائيلي للمستعمرات أو الحدود مؤتمرًا صحفيًّا عرض فيه بعض المطبوعات والملصقات الفلسطينية، وبينها واحد لي، وقال ما معناه (لسنا نحن القساة أو المعتدين، انظروا إلى مطبوعات هؤلاء كيف تتهمنا بكل ذلك).

أستطيع أن أقرّر الآن أنّنا كنّا رسّامين نصنع ملصقات في بيروت في بداية الثمانينات، وبعض ملصقاتنا كانت لوحات رسم أو أجزاء منها لفنانين معروفين حينها، وفي ما يعنيني شخصيًّا بقي الأمر كذلك حتى تعرفت إلى تجربة جهاد منصور الذي وجدته فنانًا متخصّصًا بصناعة الملصقات، وبإنتاجه الرائع والمتميز عزّز في نفسي، وربما عند زملائي الآخرين، ضرورة أن نعمل على جعل صناعة الملصق موضوعًا احترافيًّا بكلّ تفاصيله.

لم يكن ما نراه يوميًّا ونعيشه نذيرًا بالعاصفة، كنّا نعيش في العاصفة، كانت الأشياء تغلي من حولنا وبسبب منها كانت عواطفنا تغلي أيضًا وكذلك عقولنا، أوراقنا، ألواننا وشعاراتنا أيضًا. كنا نريد أن نقول كل شيء على صفحة واحدة، نرسم وكأنّنا لن نرسم مرّة أخرى، نقذف الفكرة عاريةً مدوّيةً صاخبةً وهاجسنا أنّنا قد لا نجد الفرصة مرّةً أخرى لقولها، كنا نريد أن نوصل إلى جمهورنا أعلى درجةٍ ممكنةٍ من عواطفنا وأفكارنا الفوارة.

ما كان جهاد الثوري اليساري، الذي ترك كل شيء من أجل أفكاره وإنسانيته، ليختلف عنا في ذلك، سوى أن ملصقاته لم تكن تخرج من رأس يغلي رغم أنّ قلبه كان كذلك. كان مصمّمًا بارعًا، «بارد الرأس»، لم تخرجه قوّة عواطفه عن صرامة تصاميمه الفيّاضة بالجمال والرهافة والحساسيّة الفائقة، تصاميم محسوبة بدقّة مع أنّها تبدو وكأنّها طالعة من فيض عاطفة غامر. ما كان ليتسامح مع أيّ هفوة أو خللٍ أو تغيير في ملصقاته مهما صغر، حيث كان يؤمن بقوّة ما يفعله وأهميته.

كنت أستشفُ من أحاديثنا المطوّلة حول طبيعة عملنا الإعلامي والفني ووسائل تطويره، حيث عملنا سنوات في إعلام منظّمة التحرير الفلسطينيّة، وفي المشغل نفسه، أنّ جهاد كان يحرص على الطبيعة الفنية للملصق باعتباره مادّةً بَصَريّةً أوّلًا، تعتمدُ الخطاب البصري الذي لا يتعكّز على الكلام والمفردات اللغويّة إلّا لتقديم المناسبة، وأنّ ملصقاته تعتمدُ غالبًا ما يشبه الكتابة الصوريّة القديمة، حيث الشكل هو الكلام المنطوق، وفي ذلك سرُّ ديمومة تلك الملصقات حتى بعد زوال المناسبة باعتباره عملًا فنيًّا وليس أرشيفًا فقط.

سنواتٌ من متابعتي لمشغل جهاد ومراقبتي لعمله جعلتني أستطيع القول دون قلق كبير: إنّ بالإمكان تقسيم الملصق الفلسطينّي إلى ما قبل جهاد منصور وما بعده.

في بيروت كنا مجموعةً من الفنانين من اختصاصات مختلفة، نلتقي باستمرار ونزور بعضًا أو نعملُ معًا. عندما انضمّ إلينا جهاد نما بيننا شعورٌ يشبه الاتفاق غير المعلن أن نداري غربته عن بلاده وأهله إدراكًا منا أنّها أشد قسوة مما كنا نعانيه كوننا غرباء ولاجئين، وإن بدرجات متفاوتة. ومن ناحيتي فقد سعيت تجاهَ ذلكَ بروح الواجب والرفقة والمصير المشترك، لكنني سرعان ما تحوّلت إلى صديق قريب منه، وأظنّ أن ذلك هو ما حصل معَ باقي أصدقائنا، وخصوصًا ثالثنا الفنان عماد عبد الوهاب.

بعد خروجنا من بيروت على أثر الاجتياح الإسرائيلي للبنان سنة ١٩٨٢ انتقلت إلى دمشق، وبدأنا بإصدار (الثورة مستمرّة) قبل أن يصل عماد وجهاد والبدء بإصدار (الهدف) مع هاني حبيب وصابر محي الدين وبسام أبو شريف، وعندما وصلا قرّرنا إعادة العمل في (قسم الفنون التشكيليّة) والاستمرار في إصدار الملصقات وأغلفة الكتب والمطبوعات الأخرى، وذلك بالإضافة لعملنا في الهدف. ولأنّنا لم نجد مكانًا مناسبًا للعمل فقد حوّلت مسكني الصغير الذي استأجرته في دمشق إلى مشغل.

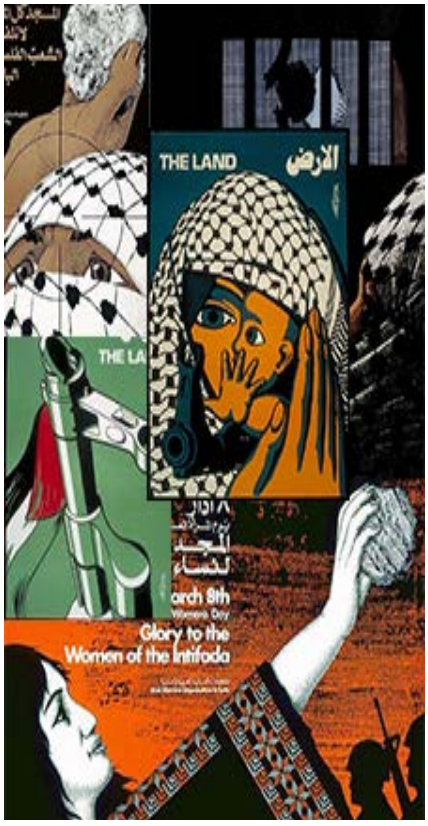

كان جهاد يواظب على المجيء دون كلل، مثل جندي، نعمل ونتحدّث ونأكل، وكان يبدو هادئًا وسعيدًا في مشغلنا الجديد، وكنت أمازحه أحيانًا: هل لاحظت يا جهاد أنّك الآن

لاجئ عند واحد عراقيّ الذي هو لاجئٌ عند واحدٍ فلسطينيٍ الذي هو لاجئٌ بدوره عند واحدٍ لبناني، وجميعهم الآن لاجئون عند واحدٍ سوري، وأن العالم يكرهنا جميعًا؟ كان يضحك ويشتمُ ظرفنا العجيب بكلمات عربيّة بذيئة تعلّمها بسهولة، حيث يسمعُ الكثيرَ منها في كلّ مكان.

جهاد الذي ربط مصيره بمصير الشعب الفلسطيني وكرّس جل فنّه وحياته من أجله، قدّم مثالًا نادرًا عن الروح الإنسانيّة السامية، حريٌ بنا جميعًا أن نكرّسه ونحتفي به من أجل قضايانا وحياتنا ومُثُلنا العليا.

لم يكن جهاد (مع) الفلسطينيين، إنما كان (منهم)!

فلنطلق اسمَهُ على مؤسّسة ثقافيّة أو ساحة عامّة أو موضع يهمّ الجميع، رمزًا لأسماء كل الذين قدّموا من مختلف بقاع الأرض للوقوف مع الشعب الفلسطيني ومؤازرته في نضاله العادل، ولنقم له وللملصق الفلسطيني متحفًا، ولو كان صغيرًا وفقيرًا، ولنعد إنتاج فنّه ليسكن بيوتنا وشوارعنا، وندرّس أطفالنا مسيرة حياته الرائعة.

سلاما للقلب الذي لا يتكرّر والفنان الذي لا يتكرّر، صديقي جهاد.

«هـنـاك شـرعـيّـةٌ وهـنـاك شـرعـيّـة»

ما زالت الكلمةُ الأخيرةُ لم يُنطق بها بعد

جبريـل عــوض
مخرجٌ سينمائيٌّ فلسطينيّ/ ألمانيا

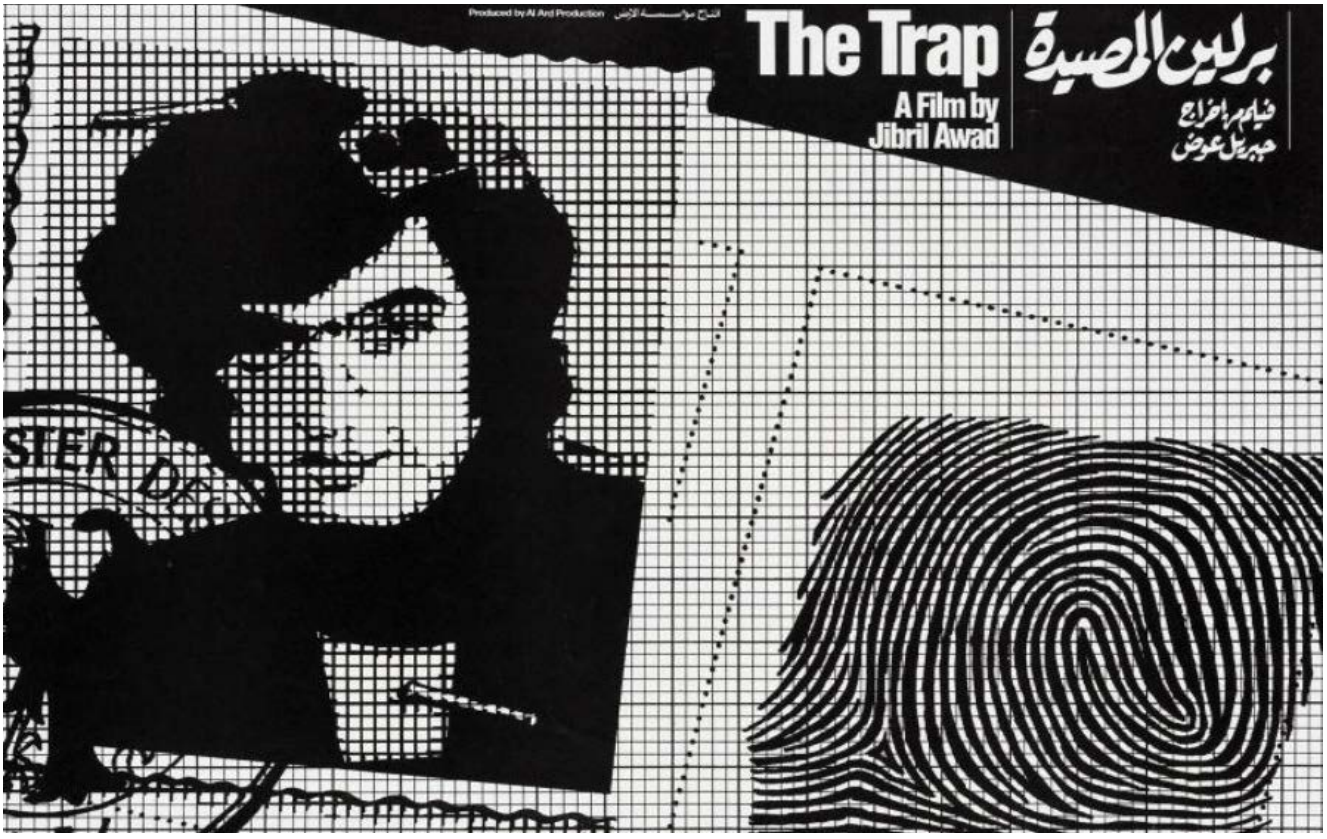

جهاد منصور...

لو توقّفنا عند حقيقة الاسم ومعنى الخيار لوجدنا أنّ مارك رودين، الذي سيصبح فيما جهاد منصور قد رسم بشكلٍ كامل وواضح حقيقةَ انتمائه والدور الذي اختار لنفسه القيام به. باتجاه واحد شاقّ وصعب، على جوانبه تبذلُ التضحياتُ الجسام، وسيفضي بنا حتمًا إلى فضاءات النصر، وستنبئنا الأيامُ بسيرةٍ ثائرٍ سويسري المولد، فلسطيني الهوى والانتماء، أممي الرؤية والموقف. يساريّ صلب قاتلَ ضدّ إسرائيل والامبرياليّة، وقضى شبابه متمرّدًا، وشارك الهبات الجماهيريّة التي عمّت أوروبا في ستينات القرن الماضي، وكان أحد أشهر نشطاء عام ١٩٦٨. انتقل إلى باريس مفتونًا بالعفويّة، صعد الفتى مارك واثنان من رفاقه، إلى قمّة برج كتدرائيّة برن مينستر ليلًا لرفع علم جبهة التحرير الفيتناميّة - الفيتكونغ. مفعمًا بالنشاط، مليئًا بالحيويّة، كان رسّامًا وناشطًا سياسيًا، وعازف موسيقى فولكلوريّة سويسريّة على آلة التشيلو، تنقل عبر المدينة. يعزف على التشيلو والفيول والباس المزدوج كان يصنع الآلات الوتريّة. عزف بمفرده وضمن مجموعات متغيرة، في الشوارع، والمهرجانات وفي الاحتفالات، يفضّل الموسيقى الشعبيّة التقليديّة. أسطوري يضرب الدفّ بيدٍ واحدة، وينفخُ الناي 'لفلوت" بيده الأخرى..

أصبح مارك أبًا في سنّ مبكرة جدًّا وكان عليه رعاية الأسرة، لم يبرع في دور الزوج، مثل العديد من هؤلاء الأبطال المتشددين عام ١٩٦٨، كان على الأغلب يشدُّ خطاه على طريق الثورة. قال جهاد: 'كنت أعمل مع مجموعة من الرسّامين في ميلانو. كنا نرسمُ رسومات ذات أشكال كبيرة علىً واجهات المنازل، وعلى الجدران العارية لمنطقة بورتا تيسينيزي. في ذلك الوقت، نشأت علاقةٌ بيني وبين رفاق فلسطينيين كانوا يعيشون في إيطاليا. تحدّثنا عن عملي واقترحوا عليّ تصميم ملصقات لحركة المقاومة الفلسطينيّة. كنتُ مليئًا بالحماس، وبحلول نهاية سبتمبر ١٩٧٦ وصلت إلى ميناء صيدا بواسطة سفينة صيد، حيث كان المطار مغلقًا في نهاية الحرب الأهليّة".

يلخّص ريشارد فريك وهو صديق مارك، الأستاذ في معهد الفنون: 'كان مارك رودين قد تمكّن بصعوبة في الإفلات من الشرطة السويسرية ليعيش في المنفى تجربةً مؤلمةً، لكنّها في الوقت ذاته، كانت بالنسبة له بداية فترة مثمرة للغاية في حياته. لقي ترحيبًا حارًّا من قبل شعب تشكّل وعيه بتجربة المنفى المريرة. لم يكن مجبرًا على إخفاء وجهه، ولا أن ينكر قصته ملتزمًا الصمت'.

ويتابع ريشارد فريك: 'شعر مارك بالراحة في بيروت، وفي ظلّ ظروف صعبة صمّم عددًا كبيرًا من الملصقات. تبنّى وجهة النظر العربيّة فكانَ عليه أن يتعلّم اللغة العربيّة، مكتوبةً ومنطوقة، حتى يتمكّن من جعل نفسه مفهومًا، وليكون قادرًا على تنفيذ الحروف العربيّة كتابيًا على ملصقاته متعدّدة اللغات. كان على مارك أن يتخلّى عن منظوره الأوروبي المركّز ويتبنى منظورًا عربيًا. يجب أن تكون الملصقات مفهومةً من قبل السكان العرب والسكان في مخيّمات اللاجئين الفلسطينيين. من المثير للإعجاب في ملصقاته طريقة تعامله البارعة مع الصورة، تُظهر تركيباتٍ ومقتطفات صوره، ذات الزاوية العريضة مهاراته الإبداعيّة'.

جهاد...! هذا الثائرُ الأممي، كان شديد التواضع، واسع الثقافة، عميق الوعي والمعرفة السياسيّة وإن كان قليل الكلام، ليس بحكم اللغة، إنّما بأفضلية الفعل على القول عنده. كان قنوعًا مكتفيًا غير متطلّب، منسجمًا جدًّا مع نفسه وقناعاته، متعدّد المهام والمهارات، عالي الكفاءة.

التقيته للمرة الأولى في بيروت في قسم الفنون التابع للجبهة الشعبيّة، وكنا نستعدّ للبدء بتصوير 'فيلم عائد إلى حيفا"، وعرفت حينها أنّه عضو في دائرة الإعلام للجبهة قسم الفنون، ومسؤول عن مجلّة فلسطين الديموقراطيّة النشرة الإنجليزيّة 'البولتين" التي تصدرها الجبهة، يخرجها ويصمّم أغلفتها. وعملنا معًا، وساعدنا بصوته في الدوبلاخ، والمرة الثانية التقيته أثناء تصوير فيلم 'برلين المصيدة" وقام بعمل ملصق جميل للفيلم... وامتدّت رفقتنا وتعمّقت بعد ذلك، وعشنا معًا تجربة الحصار، وسويًا ركبنا نفس السفينة المغادرة بيروت إلى طرطوس السورية. وتواصلت اللقاءات. وفي دمشق... كانت لنا أمسيات وحوارات ونشاطات فنية. وفي دمشق أيضًا، قلدته الجبهة الشعبية من ضمن من قلدت، وسامَ الشجاعة والبطولة، لما أبداه وقام به أثناء الحصار. ومرّت سنوات عشرة، واعتقل جهاد على الحدود التركية - السورية، وقد غطى الرفاق هذه المرحلة، وسأتجاوز عشرة سنين أخرى، لما بعد إطلاق سراحه من السجن الدنماركي... وسأترك الجانب التحليلي لأعماله، فقد غطى الرفاق هذا الجانب، فيما تناولوه... سألقي الضوء على بعضٍ من أفكاره. في السنوات الأخيرة قبل كورونا، التقينا مراتٍ عديدة في بيته في زيورج، وكنت بصدد عمل فيلم وثائقيّ يتناول تجربة جهاد في كثيرٍ من جوانبها، وفعلًا وضعنا الخطوط العريضة للفيلم وللعمل، لكننّا توقّفنا عن العمل، فقد مرض جهاد ودخل المنتجع الصحي، وبعد ذلك داهمتنا كورونا، وتوقّف العمل... في فترة اللقاءات هذه، كانت تدورُ بيننا دردشات وحوارات، في السياسة والفنّ، والذكريات وفي اللغة، وأحيانًا في الفكر السياسيّ والنظريّات.

قلت له مرّة: ألا تخشى يا جهاد وصمك بمعاداة السامية وأنت تكثر من توظيف نجمة داوود في أعمالك، وهناك نقاشاتٌ محمومةٌ دائرةٌ في أوروبا حول «السامية ومعاداة السامية»، ويقولون إن نجمة داوود ليست مجرد رمز لدولة إسرائيل والصهيونية، ولكنها أيضًا رمز المحرقة خلال الحرب العالمية الثانية.

أجابني: لست أنا من وضع نجمة داوود، على علم دولتهم الاستعماريّة، وعلى الدبابة والطائرة الحربية، وعلى كل أدوات الدمار، بالنسبة لي ولعموم الفلسطينيين، هو علم لصوص الأرض الذي أخرجهم من وطنهم. يجب علينا تسمية الأشياء بجوهرها، فلماذا لا نستخدم في أعمالنا ذات الرموز التي يستخدمها عدوك بنفسه؟

على سبيل المثال، لم نستخدم «الشمعدان» (الشمعدان ذو السبعة أذرع) الذي يعده الفلسطينيون رمزا لليهودية، على عكس نجمة داوود التي جعلها الصهاينة أنفسهم رمزًا للصهيونية والقتل والدمار.. فلطالما ميّز الفلسطينيون تمييزًا واضحًا جدًّا بين اليهودية والصهيونيّة؛ لأنه تم تشكيلهم بطريقة سليمة إلى حدّ ما في مجتمع إسلامي - مسيحي - يهودي يعيش في نفسٍ البقعة من الأرض قبلَ الانتداب البريطاني. إنّ معاداة السامية - مثل الصهيونيّة - هي أيديولوجيّة أوروبيّة نموذجيّة.

كان جيفاريًا مؤمنًا بالثورة العالميّة... يعرف معسكر أعدائه ويعرف الأصدقاء ولم يهادن، وكان يرى أن تحالفات العدو تستدعي تجنيد أوسع التحالفات الثورية المناهضة للإمبريالية وركائزها على مستوى العالم، وكان تشي غيفارا من قبل في القاهرة عام ١٩٦٥، قد صاغ هذه الرؤية بوضوح، عندما قال بعد زيارته لغزة بصحبة عبد الناصر، إن: «إسرائيل صنيعة إمبريالية»، وهذه كانت القاعدة النظرية التي استند إليها وانطلق منها.

جهاد «مارك» في اختياره طريق المقاومة والعنف الثوري، ووجد طريقه إلى فلسطين، منخرطًا في صفوف الجبهة الشعبية لتحرير، مؤمنًا بأنّ نضال الشعب الفلسطيني هو جزءٌ من النضال المشترك لشعوب العالم ضدّ الصهيونيّة والاستعمار والإمبرياليّة العالميّة، وكان على قناعة راسخة بأنّ فلسطين حجر الأساس في الخطاب الثوري العالمي، وفي صلب خطابها، وعلى رأس أولويّاته الخارجيّة، أولست من القائلين مع جيفارا.. «أينما وجد الظلم فذاك هو وطني».

إنّك فلسطيني في الصميم، وهتفت في مهرجان تكريمك، من عمان «للثورة الفلسطينية، والمقاومة العربيّة، وللنضال الأممي» أنا في أعماقي فلسطيني!

اليوم وكأنّي أسمعك تقول: «هناك شرعيّةٌ وهناك شرعيّة» وإنّ الصراع ما زال مستمرًا، وإنّ النصر أكيد... وما زالت الكلمة الأخيرة لم ينطق بها بعد...

سنفتقدك يا رفيق...

النصرُ النهائيُّ هو انتصارك

هايكه ڤيبر
باحثة في التراث وفنانة ألمانية/ سورية

كنا «الأجانب» في فصائل الثوريّة الفلسطينيّة، وقاتلنا معًا - ليس دائمًا ضدّ العدو... وأيضًا ضدّ الظروف؛ ضدّ الحزن وضدّ الروتين اليومي، وسعيًا دائمًا إلى تجديد الإبداع... لكنّك يا جهاد لم تفقد ثقتك في إرادة الإنسان وقدرته على الإبداع.

كتب بيرت بريخت:

الضعفاءُ لا يقاتلون
ربّما يقاتلُ الأقوياء مدّة ساعة
الأقوى يقاتلون لسنوات عديدة
لكن الأكثر قوّةً يقاتلونَ طوال العمر
ما لا غنى عنه

أنت تنتمي إلى أولئك الذين لا يستسلمون أبدًا.. لم يزعزعك السجن ولا المنفى.. سيظل مثالك وعملك جزءًا لا غنى عنه في النضال الأممي، وسيستمرُ ملهمًا لأولئك الذين يأتون من بعدك. النصرُ الحتميُّ سيكون انتصارك أيضًا.

تحيّةً لجهاد منصور

لميس
فنانة وكاتبة/ الأردن

كنتُ محظوظةً أنّ جهاد منصور كان أفضل صديق لي مدّةَ عشرِ سنوات. لقد فتح عيني على الكثير من الأشياء الجديدة في الفنّ والسياسة والتاريخ والحياة. في المرّة الأولى التي رأيته فيها، كان قد وصل حديثًا إلى بيروت، وكان حينها يعزف على الجيتار ويغني مع الحراس عند مدخل مكتب للجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين في ليلةٍ شتاءٍ باردة.

على الرغم من أنه كان يعمل فنانًا ويتواصل اجتماعيًا في الدوائر الفكريّة والقياديّة، إلّا أنّه كان يتمتّع بوعي طبقيّ حادّ، وغالبًا ما كان يشعر وكأنّه في منزله مع أولئك الذين، ربّما بشكلٍ خاطئ، وصفناهم بأنّهم أشخاصٌ «عاديّون».

في الواقع، لقد سعى وراء كلّ ما هو غير عاديّ في العادي. قبل كلّ شيء، كان يقدّر الناسَ بروحٍ متمرّدة. من ناحية أخرى، كان لديه معاييرٌ صارمةٌ للمثقفين: لم يكن كافيًا أن يكون متعلّمًا جيّدًا أو يقرأ جيّدًا؛ يجب على المرء أن يبتكر شيئًا جديدًا، سواء كان أسلوبًا فنيًا أو فكرة؛ فهو عاملٌ لا يكلّ ولا يعرف الكلل ويسعى إلى الكمال، وقد دفع نفسه إلى أقصى الحدود، سواءً وهو يصمّم ملصقًا أو يتعلّم اللغة العربيّة أو ينفّذ مهامًا أخرى، وغالبًا ما يقضي نصف الليل لإكمال مهمّة، لكنّه عرف أيضًا كيف يسترخي.

لقد كان طبّاخًا ممتازًا؛ كان يستمتع بتناول الطعام والشراب وعزف الموسيقى مع الأصدقاء، يمكنه أن يضحك مرارًا وتكرارًا على نفس النكات السخيفة. كان جهاد يهتمُّ قليلًا بالأشياء المادية، إلا إذا كانت ضرورة مفيدة. كان يجيد سبع لغات، والعديد من أنواع الموسيقى. ويحتقر النفاق والغطرسة ومن يقلّد الآخرين؛ لقد كان حازمًا في معتقداته السياسيّة الدوليّة، وإن كانت في بعض الأحيان جامدةً بعض الشيء، ولكن بالنسبة له، كانت السياسة هي الحياة، وقد اعتنق كليهما بكلّ قوّته... سيفتقده الكثيرون في العديد من الأماكن المختلفة.

إلى جهاد

أبو مانو
فنان تشكيلي إيطالي/ إيطاليا

مرحبًا جهاد، أعلمُ أنّك هنا حولنا تشحذ عزائم الفلسطينيّات والفلسطينيين الذين يواصلون النضال.
أنت هنا حولنا وتريد معرفة ما إن كنا سننتصر هذه المرة، وكأنّي أسمع صوتك مرّةً أخرى، تحت جسر الكولا في بيروت، تسألني: «أبو مانو هل تعتقد أننا سننتصر؟».
هذه المرة أنا متأكّدٌ يا جهاد، هذه المرّة سننتصر. يبدو لي هذه المرة أن الوحدة ستتحقق، والوحدة هي القوة الحقيقيّة.
كما هو الحال دائمًا، سيكون الأمرُ صعبًا جدًا وستحزن الكثير من النساء وسيبكين على آبائهن وأزواجهن والكثير من الأمهات على أبنائهن، ولكن فهود المخيّمات عادوا اليوم، تلعلع زغاريدهم وستسقط غطرسة صهيون يا جهاد.
استمر أنت في نشر قلبك الكبير علينا، وسيكون الشباب الفلسطيني ذراع الانتصار.

وحين آتي لزيارتك سأحمل اليك معي اخبارا سارة من فلسطين .

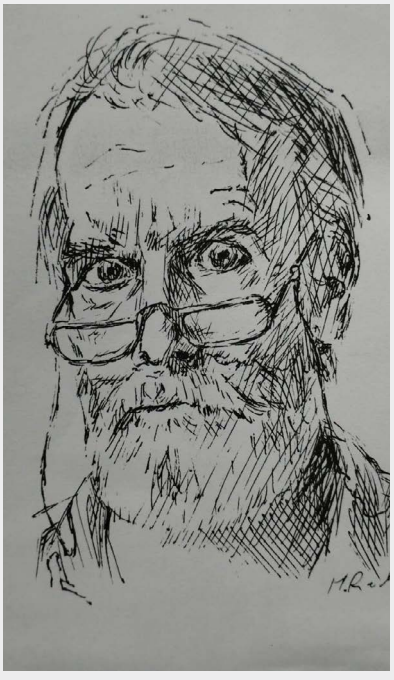

رحيل مارك رودين

فنان الملصق الذهبي الفلسطيني

قاسم حول
مخرجٌ سينمائيٌ عراقي/ هولندا

لعلّ مارك رودين الذي فارق الحياة وهو في وطنه السويسري، لم يكن العرب يعرفونه بهذا الاسم، بل كان يعرف باسم جهاد منصور. عرفته منذ بداية السبعينات؛ كان يزورني في شقتي المتواضعة مقابلَ معمل الكولا في بيروت، وفي الطابق الخامس على وجه التحديد مساءَ كلّ يوم خميس، مع صديقته الأمريكيّة المعروفة باسم «لميس» ولم نكن نعرف اسمها الحقيقي، وكانت صبايا جميلات يحضرن تلك الأماسي من كل أنحاء العالم، ونسميها استراحة المحاربين. في أجواء الشتاء نشعل الجمر حتى يصبح متلألئًا، ونضع الشواء فوق دفء الجمر، ويمسك مارك رودين «جهاد منصور» الغيتار ويروح يعزف الألحان الساحرة، وكثيرًا ما نسمع صوت الانفجارات قرب البناية التي نقيم فيها، لكن غيتار مارك رودين لن تسكته البنادق ولا الانفجارات، وكان صوت الغيتار يعلو على صوت الانفجار.

نحن في حرب تسمى أهليّة، كثيرًا ما نغادر شقّتنا؛ لكي نصوّر ما يجري في تلك البقعة الصغيرة من العالم التي تسمى «الجامعة العربيّة»؛ فنرى مارك رودين لا يحمل على كتفه الغيتار صباحًا، بل يحمل بندقيّة «الكلاشن» وكأنّه يحمل غيتارًا سوف يعزف لحن النصر ولحن فلسطين، ولحن جورج حبش ولحن أبو علي مصطفى وأبو ماهر اليماني ولحن غسان كنفاني ولحن ليلى خالد، ولحن أبو أحمد فؤاد، ولحن دلال المغربي وسناء محيدلي وماجد أبو شرار ولحن «أبو جهاد» خليل الوزير وأبو أياد ولحن جيفارا وباترك أورغللو وكوزو أوكاموتو ولحن بسام أبو شريف ولحن هاني حبيب ولحن كارلوس الذي أسكت ثرثرة وزراء النفط العرب وأجبرهم على الاستماع إلى لحن الثورة.. ولحن كل نجوم سماء الثورة الفلسطينية؛ يعزفه «رودين» جهاد منصور، وهو يلفّ وجهه بالغترة الفلسطينية، ويذهب نحو خطوط التماس أو يذهب إلى القواعد في الحدود الجنوبية من بيروت لمواجهة الحدود الشماليّة من فلسطين الحبيبة، ويعود إلينا بعد سبعة أيام حاملًا الغيتار ليسمعنا اللحن الحزين الشجي وفيه روح المحبة العالية لفلسطين وللإنسانية.. عرفته مبتسمًا وهو يغني ويرشف من نبيذ المسيح قليلًا من الخمر، لكي ينعش قلبه.

ألحانه تعبرُ المناسبات الفلسطينية من شوارع ضاحية الجامعة العربية، التي تتسع بحجمها الصغير لشعب الصين بأكمله؛ إذ لا يعرف عدد ساكني هذه المنطقة وأية بيوت وشقق وبنايات تجمع هذا العدد الهائل من الأنصار الذي أفشلوا الحرب الأهلية ونغّصوا على المحتلين نشوتهم، وهو في عشرات أو مئات الأمتار من المساحة

الهائلة.. لا ندري ولا نريد أن ندري كيف يعيشون في هذه البحبوحة وكيف يتبضعون من أطرافها في أسواق الخضرة في مخيمي صبرا وشاتيلا.

كل الملصقات التي تزيّن جدران البنايات والمطاعم ومؤسسات صحافة المقاومة الفلسطينية واللبنانية وكل سيارات المقاتلين الأشاوس تزّين جانبيها نماذجُ مصغّرةٌ من تلك الملصقات التي كنا نطلق عليها الذهبية مرسومة بأنامل مارك رودين — جهاد منصور السويسري الفلسطيني أو الفلسطيني السويسري.

واكب مارك رودين بعض مشاهد فيلمي «عائد إلى حيفا» عن رواية الشهيد المبدع غسان كنفاني ورسم الملصق الذهبي للفيلم، الذي موسقه النابغة زياد الرحباني؛ فالجميع يعملون بروح المقاومة النظيفة في مسيرة واحدة شجيّة كنغم الموسيقى، وشجية الصورة التي أسهمتْ جماهير غفيرة من أبناء فلسطين ومن اللبنانين في أداء ذلك الحس الملحمي في رواية فيلم عائد إلى حيفا التي صارت حكاية فلسطين على الشاشة.

منذ ذلك التاريخ ١٩٨١ وحتى رحيل مارك رودين وما بعده؛ سيبقى عائد إلى حيفا خالدًا، وسيبقى رمز الإبداع ذلك الملصق الذهبي الذي رسمه مارك رودين، حتى أن المتحف الألماني طلب مني أن أهديه نسخةً من الملصق؛ لكي يحتفظ به في أرشيفه السينمائي لأهميته ليس فقط السياسيّة، بل لأهميته الفنية، ومكتوبة عليه أسماؤنا، وأهديتهم نسخة من نسختين فقط بقيتا معي.

عندما ضاق نفس بلدان العالم، وما يسمى «الرأسمالي» واختنقت صدورهم، وتجمع كل مخزون خزائن البارود، لتأتي بوارجهم الحربية وطائرات الأف ١٦ لتدوي أصواتها وتشتعل نيرانها، لكي لا يعود جمر المنقل الذي نعمل من ناره الشواء مع غيتار مارك رودين — جهاد منصور، لم يعد وجود مارك رودين عائدًا إلى بيته في سويسرا حرًا، ليرسم على جدران بيته البسيط الذي يعيش فيه ذكريات الدرب الجميل إلى فلسطين، فسجن عام ونصف العام في تركيا وثماني سنوات في الدانمارك، وعاد منهكًا متعبًا يعاني من أمراض السجون وأمن السجناء المزيف داخل جدران مخيفة كان بديلها حرية الفلسطينيين في إعلان مُلصق الشهادة في الهواء الطلق.. هو مارك رودين الذي رحل قبل أيام تاركًا وراءه خزينًا تاريخيًا من الملصقات الذهبية الفلسطينيّة بلغ عددها أكثر من مائتي ملصق فلسطيني؛ وبقي مارك رودين الذي قال بعد تحرّره من أسر السجون «لست نادمًا على شيء يا فلسطين».

مارك رودين (جهاد منصور)

ملصق فيلم قاسم حـول عائد إلى حيفا عن رواية غسان كنفاني
تصميم مارك رودين

أحمد جابر..
المثقّفُ المدميُّ بالجراح

موسى جرادات
كاتبٌ سياسيٌّ فلسطينيّ/ تركيا

«لستُ أملكُ إلا القميصَ الذي فوقَ جِلدي
وقَلبي وراءَ القميصِ يَلوح..»
مظفّر النــواب

يختصرُ ما قاله الشاعرُ مظفّر النواب كل صفات أحمد جابر، الذي عاش وفيًّا لقناعاته حتى الرمق الأخير، والوفاء لتلك القناعات لم يكن مصدره الإيمان العميق بها، بل محصّلةٌ حتميّةٌ لرؤيته للحياة على امتداد سنين عمره التي أمضاها بحثًا عن حلولٍ عمليّةٍ لهواجس شعبه منذ عقود؛ حلول يتخطّى بها ما هو فرديٌّ وآنيٌّ ومتاحٌ لأيّ مثقّف، لهذا كان أحمد شديد الحساسيّة والتوجّس والقلق الدائم، على دور المثقّف وخاصّة الفلسطيني، وبالتحديد في أتون الصراعات والانقسامات التي حدثت في صفوف الحركة الوطنيّة الفلسطينيّة؛ فالطرز واضحٌ بالنسبة له، إمّا أن تكون مع فلسطين، وإمّا أن تكون خارج هذه المعادلة، والتوسّط بينهما، مجرّد وهمٍ لا طائل منه.

من هنا قد تكون تجربة أحمد، في العمل الثقافي، قد رسخت قناعةً مفادُها، ضرورة أن يؤدي المثقف دور الناقد الحر، القادر على إبداء الرأي، بعيدًا عن كل الضغوط والمغريات، بعيدًا حتّى عن التبعات المترتّبة على هذا الرأي.

لقد تجاوز أحمد في هذا المضمار أشواطًا كثيرة، ليس فقط فيما قدّمه من نصّ مكتوب، بل طالت آليّات النقد لديه، مجملَ ما قدمه الوسط الثقافي الفلسطينيّ من نصوص، رآها بعين ثاقبة، ووضعها تحت ثوّابته التي لا تتزحزح، ليخرج بعدها كاشفًا الغطاء عمّا هو سياسيٌّ متبلورٌ تحت قناع الثقافة؛ سياسي يتغطى بالعنوان الثقافي، في محاولةٍ للهروب من باب المسائلة.

وهنا ليس المقصود بالتعبير السياسي، الحط من قيمة السياسة، بل قدرة السياسة على إخضاع البعد الثقافي لها، وتوظيف هذا البعد في خدمتها، وجميعنا يعرف أنّ الرؤية السياسيّة المنحرفة في الساحة الفلسطينية، قد وُلدت من تنظيرات ثقافية، قبل أن تجد لها مكانًا في مشاريعَ سياسيّة، تحوّلت فيما بعد للفتك بكل منجزات الشعب الفلسطيني وحركته الوطنية، ففي منظور أحمد أن إعادة الاعتبار للثقافة ودورها ومكانتها، هي النقطة الأولى التي ستعيد الاعتبار إلى المكانة الفعلية للسياسة والسياسيين الفلسطينيين، وليس العكس، وليس غريبًا أن نرى اليوم مكانة الثقافة والمثقفين بعد عقود من هيمنة المشاريع السياسيّة، على كل الفضاء الفلسطيني. صحيحٌ أن الحالة تصح على كل التجارب اليوم، لكن في الحالة الفلسطينيّة، لديها خصوصيّتها؛ فهيمنة السياسة على ما عداها فتح الباب على غياب معايير التقييم، فأصبح الخطاب السياسي الفلسطيني مسكون بكل أشكال الزيف والخداع، وأصبح السياسيون الفلسطينيون خارج حدود المساءلة، والمراجعة أيضًا، حتى وصل الأمر إلى الجمود والتحنيط والصنمية التي نراها ماثلةً أمامنا.

أحمد جابر لم يختر الصحافة مهنةً أراد منها الحرفيّة، وقد نجح فيها، خياره في الأصل كان منصبًّا على إيجاد اللحمة ما بين دور الصحافة ومحدوديتها، إن غابت عنها الرؤية الثقافيّة الجامعة. لقد جاء للصحافة من باب الثقافة، التي عزّزها بمخزونٍ كبير من قراءته للتاريخ الإنساني ولعلومه الإنسانيّة المختلفة، لهذا نفهم قدرته على تحرير وصياغة النص، بذائقته الخاصة والمتميزة والفريدة، لقد أعطى للنص الصحفي معنى، وهو المجبول بمحبة الشعر، قديمه وجديده؛ ذائقة تحمل معها المفردات والمفاهيم والمصطلحات يُجيرها في قالبه الخاص، حيث بتنا نرى الأعداء على حقيقتهم الفعلية، مهما تغطّوا بداء العظمة الذي يسكنهم منذ أن تربّعت على أرضنا مشاريعهم، من خلال لغته وكتاباته ومفرداته الحية؛ كشفت موات لغة الآخر «العدو» وتصحّرها، وكشفت أيضًا محاولات الأعداء التفلّت من النهايات الحتميّة التي تنتظرهم على الأبواب.

كتب أحمد جابر في كل ما يختصّ بشؤون العدو، بقضاياهم السياسيّة والثقافية والاجتماعيّة والثقافيّة والاقتصاديّة، وعينه

على المشهد الكلي، ليقدم بعدها الخلاصات التي نحتاجها في معرفة اللحظة الحقيقيّة التي تسكنهم، لم يقدمها على سبيل العرض لها نصوصًا ومتونًا، بقدر ما قدّمها بما تحمله من معاني ودلالات عميقة، تكشف المستور وتحيلها إلى معاني واضحة، علنا نستفيد منها، قدّم الواجب كما يراه وفق منطوقه، وترك لنا مهمة الحكم عليه.

المثقّفُ المدميُ بالجراح:

حمل أحمد القلم سلاحًا له في المعركة مع الأعداء، كما حمل السلاح قبله، لكن معركته كانت واحدة؛ فالكلمة الملتزمة الواعية المنخرطة في المعركة، هي أخت الطلقة في المعركة، فلا طلقة من دون كلمة تشرعنها، تصوبها وتبقيها حيةً في ذاكرة يراد لها أن تمحى، وأن يحل بدل منها ذاكرةٌ مصنعةٌ في مختبر الأعداء، وما بين الوعي وكي الوعي مسيرة الفلسطيني منذ النكبة حتى الآن، ولم تشذ مسيرة أحمد عن هذا المسار، لكن حتى تبقى للمسيرة معنى، لا بد من أن يكون لرواد الكلمة في مسيرة الكفاح الفلسطيني دورهم الفعلي والحقيقي، دورٌ فاعلٌ ومؤثّر، مؤطّرٌ قادرٌ على تفعيل دور الثقافة في الحياة الفلسطينية؛ فالبطولات الفردية في هذا المضمار، تكتب على شكل تجاربَ فرديّة، فيها من البطولة والتضحية والفناء من أجل القضية، لكنها لا تغني عن حضور الثقافة بكل مكوناتها، كما بدأت مع مطلع الثورة الفلسطينية المعاصرة، التي فتحت الباب وآخت ما بين البندقية والكلمة، لهذا وصل الصوت مدوّيًا إلى كل أرجاء العالم؛ لنعود بعدها إلى مسيرة الانحدار من جديد. ولكي نصون إرث أحمد ومن سبقوه من الشهداء، علينا البحث عن مخرج لهذا المأزق الذي نحياها اليوم؛ البحثُ عن حلول مقنعة، قابلة للفعالية والحياة، قادرةً على حماية «المثقّف المشتبك» وحمايةِ رسالته؛ فأحمد الذي عاش مثخنًا بالجراح، دون أن يعلن ذلك، بعد أن سكنته الفكرة وسكنها، أصبح الألم جزءًا من هذا العراك، حتى غاب جسدًا، وبقيت الفكرةُ التي لا تموت؛ لأنّ ما ينفع الناس دومًا يسكن في الأرض.. سيظل أحمد يسكن معنا دومًا كما عهدناه.

كيف لي ألا أكونَ على قدر الوصيّة؟

أحمد نبيل أبو زلطة
عضو حزب الوحدة الشعبيّة الديمقراطي الأردني/ الأردن

دائمًا ما يكون الحديثُ في مناسبات الفقد قاسيًا وصعبًا؛ من أين أبدأ رفيقي أحمد؟ فالكلامُ في حضرة الغياب يعجز، حاولت ألا أكتب في وداعك، ولكن أما م حضورك الغائب لم أستطع إلا أن أرثيك؛ أرثي الرفيق والصديق والقريب الذي لطالما عُرف بين أهله ورفاقه بتواضعه غير المتناهي وحبّه غير المحدود وعشقه للنضال من أجل قضيّتنا المركزيّة فلسطين.

رفيقي أحمد ما زالت تفاصيل لقائنا الأخير في مطار برج العرب حاضرة، لتمزج الدموع سيلًا من الذكريّات؛ عرفت من خلالك ما الغربة؟ والكلفة الحقيقيّة للغربة وفاتورتها؟ التي دفعتها في حياتك حتى رحيلك. لقد استطاع أحمد أن يخلق من ألم الغربة دافعًا للمزيد في حب الوطن والمزيد من التضحيات؛ فكانت فلسطين دائمةً وكثيفةَ الحضور في كلّ أماكن وجوده.

رفيقي أحمد لطالما حدثتني عن الحكيم وأبو علي مصطفى وعن شهداء الثورة الفلسطينيّة الذين آمنوا دائمًا بأنّ المقاومة سبيلنا للتحرير، وعن ويلات نهج التفريط المسمّى بالمفاوضات مع الاحتلال الصهيوني؛ كنت مثالًا حيًّا على المثّقف الذي يحمل بندقيّته في يد، وقلمه في اليد الأخرى، ورحلت على ذلك.

أرهقتني وصيتك بأن أكون حاضرًا يوم مماتك التي جاءت بلهجة مازحة تحمل في طيّاتها حديثًا جدّيًا يائسًا منَ الغربة وويلاتها، بأن أكون من القائمين على تحضير تفاصيل الجنازة والدفن؛ كيف لا وأنت الحاضر الغائب يا رفيقي؟ كيف لا وقد رحلت نسرًا في سماء الثورة الفلسطينيّة؟ ليس من السهل تحمّل أعباء الوصيّة.. فكيف لي ألا أكون على قدر الوصيّة وإن كنت مازحًا؟ وأنت الجاد حتى في مزحك؟

رفضتك بلادٌ أغرقت في تقسيمها وفي اتفاقياتها مع الكيان الغاصب، وودعت أهلك ورفاقك هناك بعيدًا عن تراب الوطن في تركيا، بحضور أهلك ورفاقك مكفّنًا بالعلم الفلسطيني وعلم الجبهة الشعبيّة التي انتميت إليها وآمنت بها، طريقًا لتحرير فلسطين؛ ودّعك رفاقك بالقسم؛ وعهدًا أن نكون على قدر الوفاء لك يا رفيق الدرب ومشوار الكفاح الوطني الطويل والمستمرّ.

إلى اللقاء يا رفيق... سنكمل من بعدك المسيرة؛ فارقد بسلام وطمأنينة، وانقل سلامنا للرفاق الذين سَاروا على الدرب ولم يحيدوا أبدًا.

أحمد مصطفى جابر المثقّف الوطني الواعي المدرك لعدالة قضيّته... وداعًا؛ فسلامٌ عليك يوم ولدت ويوم رحلت ويوم تبعثُ حيًّا.

أحمد .. وريثُ الحكايةِ وشهيدُ التغريبة

م. حسام عطا الله
باحث دكتوراة في الهندسة المدنية/ تركيا

في حياة المغتربين كثيرٌ من العلاقات التي تتشكّل في ظروف الزمان والمكان والغاية، وقد تصبحُ هذه العلاقات عابرةً في الذاكرة مع أي تغيير يطرأ على هذه الظروف. لكن العلاقة مع أحمد لم تكن من هذا النوع العابر؛ لأنّه اختار لنفسه قضيّةً تتجاوز ذاته الخاصّة وظرفيّة الزمان والمكان؛ فتجد نفسك أمام إنسانٍ اعتنق فلسطينَ قضيّةً، بصدقٍ ووعيٍ تؤكّدُهُ الممارسة والفعل.

تعرّفتُ إلى أحمد عام ٢٠١٤ بُعيدَ وصوله مع أسرته للإقامة في مدينة المنصورة في مصر، على أثر مغادرته سوريا التي أوقع فيها الغربُ الإمبريالي وحلفاؤه قتلًا وتدميرًا. كنّا وقتها، د. وسام الفقعاوي وأنا، نقيم سويًا في القاهرة لإتمام دراساتنا العليا؛ حين عرف وسام بأنّ رفيق لنا من كوادر «مجلّة الهدف» وصل مع أسرته للإقامة في المنصورة، أصرّ على التواصل والتعرف إليه؛ فتعرفنا إليه واستمرّت لقاءاتنا وزياراتنا، ثمّ امتدّت العلاقة لتشمل عائلاتنا؛ فهو إنسانٌ من النوع الذي تشعر بنقائه الإنسانيّ وبصدق انتمائه وأصالة قناعاته وغضبة المتمردين المخلصين في صوته وانفعالاته.

امتدّت سنوات معرفتي بأحمد، وكان يتجسّد دومًا في نظري فلسطينيًا عنيدًا ورث حكاية شعبه ومأساتهم، لكنّه لم ينزوِ في همّه الخاص، ولم يردِه خذلان رفاق درب هنا أو مسؤول هناك.

اختار أحمد أن يواصل انخراطه في ملحمة البقاء والصمود التي يصنعها شعبنا. وقد ظلّ مرابطًا على عشقه لفلسطين، مؤمنًا بحتميّة الانتصار، صامدًا في وجه كل عواصف اليأس والإحباط والانهزام. أكتب هذا، وانا أتذكّر كم كان سعيدًا عندما انضمّ إلى فريق «بوابة الهدف» الإخبارية، ثمّ دوره الريادي والطليعي في إعادة إصدار مجلّة الهدف بنسختها الرقميّة.

قبل رحيله بعدة أشهر، كتب أحمد على أحد منصات التواصل الاجتماعي «سئمت تكاليف الحياة»؛ توقّفت أمام ما كتب وشعرت بضرورة الاتصال به، حدثني عن معاناته في تجديد تصريح الإقامة في تركيا، بعد أن بدأت السلطات هناك في تعسير الإجراءات وما تتطلبه من وثائق ومسوغات للإقامة؛ فقد تفاجأ مثلًا بقبول طلب تجديد تصريح إقامته وأطفاله، في حين حصلت زوجته على قرار رفض لطلبها! حدثني عن مساعي للهجرة إلى البرازيل؛ عسى أن يمنح أطفاله ظروفًا أكثر استقرارًا.. إلى حين! ثمّ انتقل بي للحديث عن تطوّرات الاحتجاجات ضدّ نتنياهو داخل الكيان الصهيوني، وهو الذي يطارد شؤون العدو؛ تفكيكًا وتركيبًا وتحليلًا، وأذكر أنّنا ختمنا حديثنا وهو يبشرني «تقلقش يا خال.. مشروعهم مروّح»!

في صباح يوم ٢٠ نيسان، اتصل بي وسام الفقعاوي، ليبلغني خبر وفاة أحمد في إسطنبول للتو، وهو الذي كان قد عرفني به أيضًا في القاهرة!

رحل أحمد، مات أحمد، استشهد أحمد، وهو يحمل عشقه لفلسطين من منفى إلى منفى، يرقب عودة عازم -بطل روايته- إلى قلعة الحارثي. رحل وعينه على فلسطين، وعقله يرصد ويحلّل المشروع الصهيوني وكيانهم فيها، وقلمه/ بندقيّته يوثّق وينشر من موقع العاشق المنتصر لا المهزوم...!

لزوجته وأختي نايفة وأبنائه عيسى وناصر وسلمى وعائلته ورفاقه ومحبّيه... خالص العزاء والعهد أن نبقى أوفياء.

قصيدة
أحمد مصطفى جابر
إلى نايفة، سلمى، ناصر وعيسى

شعر: إدريس علوش
شاعر وكاتب / المغرب

- ١ -
لن تُسعفَني العبارة
وحُزني أثرٌ في مغيب
والشمسُ التي حلمتُ بها
كُنتَ فيها وجدًا
من شعاعٍ ونشيد
وساحاتُ الشرفِ
والشرفات
ووقع الزناد
والسلاح
والجدار الحصين
التي استوعبت أناملك
أدمت الريحُ سرّ غيابها
وغابت عن ظلها المنافي
المدن
السواقي
البيادر
الأغصان
ومنابع الماء
وطواحن الهواء
وظلّ الوطن نبضًا
في أوتار الشرايين
وموسيقى
هي فلسطين
هل نلتقي ثانيةً يا أحمد...؟
كان السؤالُ سربَ يمام
حلّق عاليًا وبكى
قريبًا في شارع الثلاثين
في المخيّم..
يرموكُ الوجد والعشق والحكايا
قريبًا من «الهدف» وفيها

هدف المشاغل
والمشاعل
والحقيقةُ التي تنام واضحةً
-غير منقوصة -
في صدور الجماهير
ورثناها عن غسان الحالم
غسان الشهيد والمدرسة
والجرح العنيد
غسان الرسام والوردة الحمراء
غسان الذي يصيغُ بيان الجبهة ليحمرّ
الوجود
وتدمعُ أجنحة الطائرات
ويكبرُ الطريق
ويتّضح المسير
ويستلقي العدوّ على وجهه
ليمرّ الحديد.

- ٢ -
هل أرثيك رفيقي
في غمرة الحزن الآسر
في فداحة الفقدان أقصدُ
أو لنقاء قلبك الصافي
ونظافة اليد القابضة على الجمر
وحمرته
ما الجدوى الآن -إذن-
أن أكتبك قصيدةً
بدمع الجرح والملح
إن كنت لن ألتقيك ثانيةً
في تناقض الشتات
وتصدّع المنافي
في المدن العارية

والعواصم الباردة
ما الجدوى إذن..؟

- ٣ -
وحتى لا أنسى
أنسى السهم الشرس
الذي يشيرُ إلى يسار القلب
بلّغ سلامي
سلام الشّجعان للذين علّموك
وعلّموني
بلاغة القول والبيان
قول فلسطين —كاملة-
من البحر إلى البحر
ومن النهر إلى النهر
ومن الماء إلى الماء
لوديع حداد الوديع
للحكيم
حكيم الفكرة والثورة
والنهج القويم
لقوافل الشهداء
السائرة على الدرب
وبوصلتها:
«أن شريعة الوطن،
هي خطّ السير،
هي الميلاد
والملاذ
وسر العشق الدفين
لفلسطين».

أحمد مصطفى جابر ..
الكاتبُ الغاضبُ الذي لم يهدأ

أيوب جمال الشنباري
شاعرٌ وكاتب / فلسطين

قدّمَ كثيرٌ من العلماءِ والباحثينَ تعريفاتٍ كثيرةً حولَ مفهومِ الكتابةِ قديمًا وحديثًا، وكلُّ هذهِ التعريفاتِ — على اختلافِها وتنوّعِها — تتشابَهُ إلى حدٍّ كبيرٍ في المعنى الروحي لها، فضلًا عن تشابُهِ معناها الاصطلاحيّ إلى حدٍّ ما؛ لأنّ الكتابةَ عمومًا إنّما نلجأُ إليها لسدِّ حاجةٍ — أيًّا كانت تلك الحاجة - في حياتِنا اليوميّة، فحين تكتبُ عن الوطنِ خارجَ حدودِهِ فأنتَ تسدُّ نقصَ شعورِكَ بالاشتياقِ له أو بحبّك أو بولائك... وحين تكتبُ قصيدةً في الحبّ؛ فذلك لأنّ شعورَكَ بالحبّ يطلبُ المزيد. ومن خلالِ فهمي المتواضعِ لمفهومِ الكتابةِ وإحساسي بها على نحوٍ خاصٍّ في ضوءِ تجربتي، أقول: إنّ الكتابةَ فعلٌ إنسانيٌّ خاضعٌ لتأثيرِ الظرف، ونشاطٌ يتفاعلُ مع ضروراتِ النفسِ الكامنةِ تعبيرًا عمّا يختلجُ في مكنونِها؛ تتشابكُ فيها رؤيةُ العقلِ مع رؤيةِ الروح، ورؤيةُ القلبِ مع رؤيةِ الواقع.

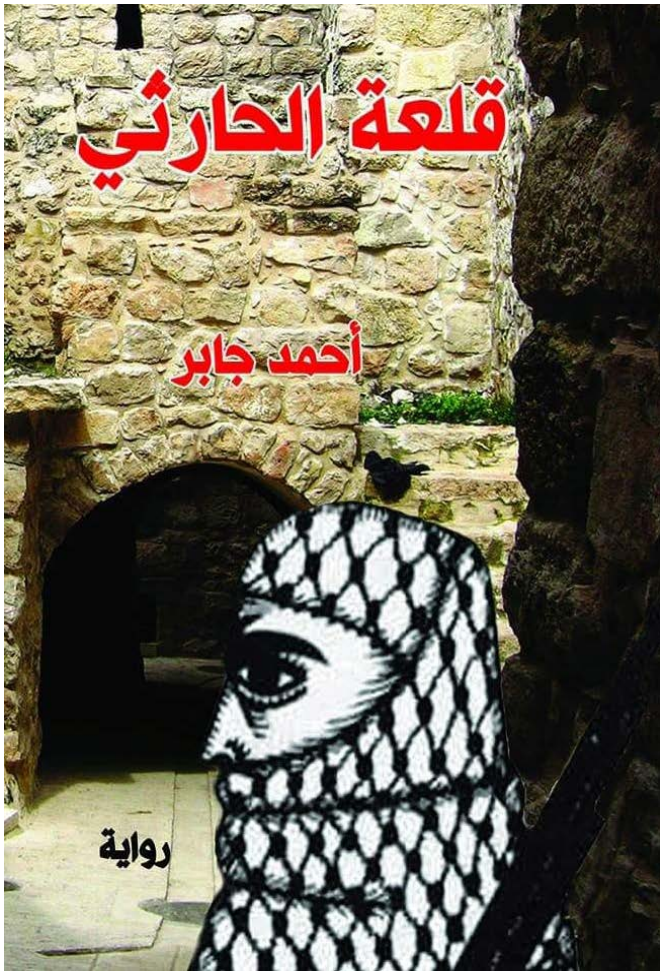

أما الكتابةُ لدى كاتبِنا الغاضبِ الممتلئِ بالإنسانيّة، فهي كتابةٌ من نوعٍ خاصٍّ، تحملُ الغضبَ بحملِه، وتجازيه بمثلِه، تتلاحمُ فيها مشاعرُهُ الإنسانيّةُ المتناقضة؛ إذ فيها يتجلّى غضبُ الثائر، وحبُّ العاشق، وحزنُ المفجوع، وشوقُ المُنتظِر، وأملُ الحالم، وترقّبُ الحارس... متداخلةٌ فيها المشاعرُ في أروقةِ نفسِه رغمَ مشقّتِها وعنفوانِها - كونه لاجئًا فلسطينيًا — فهو صاحبُ القلعةِ التي لم يهدأ أبدًا حين بدا غاضبًا في وجهِ التاريخ. وإذا ما أردنا أن نصفه وصفًا دقيقًا، فإنّ أصدقَ الوصفِ فيه ما قاله صديقُهُ الأصدق، ورفيقُهُ الأوفى، رئيسُ تحريرِ مجلّةِ الهدفِ وبوّابتِها الدكتور وسام الفقعاوي، في مقالٍ كتبه بعنوان: (أحمد جابر.. الرصيد الهائل السائر بنا نحو الهدف)، عن انطباعِه الأوّل عنه: «كان كما تصوّرت وأكثر؛ الإنسان الكريم، الودود، الصادق، المخلص، الوفيّ، مرهف الحسّ، الحالم، المطمئنّ إلى خياره، القلق بين أسئلة الحاضر والمستقبل، المتوتّر بين رهاناته التي لم تكن خاسرة. لقد كان ذاك الفلسطينيّ النموذجيّ في بحثه عن ذاته وسط قضيّته/هدفه، وسعيه أن يترجم أبجديّات الوصل بين الثقافة والسياسة إلى فعلٍ ثوريّ جماعيّ تحرّري... لذا لم ينحسر إنتاجه يومًا، بل منحنا رصيدًا هائلًا؛ كي لا نتوه أو نحيد عن الهدف».

لقد كان أحمد مثقّفًا مشتبكًا مطّلعًا على الإنتاج الإخباري والتحليلي، ورصده باهتمام ودقّة لدى عدوّه وعدوّ الإنسانيّة جمعاء، في محاولةٍ للردّ على الروايّة الصهيونيّة المخادعة في إطار معركة كي الوعي الممنهجة، مؤمنًا بضرورة النضال بأشكاله كافةً؛ الفكري، والعسكري، والاجتماعي، والنفسي.. متيقّنًا بأنه ما استجدى أحدٌ حقّهُ إلا هان في عين عدوّه؛ إنّما يُنتزعُ الحقُّ انتزاعًا بالأسنان!

أحمد مصطفى جابر، صاحب **قلعة الحارثي**، والمحرّر التنفيذي لمجلّة الهدف التي أحبّها من شغاف قلبه وأحبّته بوفائها

المتجدّد، ومسؤول قسم العدو في بوّابتها الإخباريّة، لم يكن سوى جنديٍ يحرس حدود الفكرة، ويدافع عن شرف الانتماء لفلسطين، متمترسًا حول قناعاته الثورية والفكرية بكلّ ثبات، لا يعرف الرمادية فيها، ولم يكن صاحبَ لسانٍ معسول، أو قلمٍ أصفر، أو وجهٍ متلوّن، بل كان يؤمنُ بأنّ قضيّته أسمى من مداهنةِ اللفظ، وأعظمُ من أن تضيع في الحدّ الفاصل بين الرفض والانتهازيّة؛ آمنَ بقوّة الكلمة الثائرة وحتميّة انتصارها، فهي مصدر الخلود بعد الموت في عُرْف الثائرين، ومصدر الإلهام الثوري للأجيال الحيّة، التي تكافح من أجل خلاصها من العبودية والاحتلال، فندَر نفسَهُ لفلسطين شمعةً تحترقُ من أجلها؛ لتظلّ قلعة الحارثي منيرةً على الدوام؛ تسألُ تارةً عن صاحبها، وتبكي تارةً لطول الشوق وبُعْد اللقاء؛ لا تحزني يا قلعة الحارثي، فهو الآن حيٌ في حجارتكِ القديمة؛ يُطلُّ كلَّ صباحٍ من شرفاتكِ الشاحبة، يبتسمُ لقطراتِ الندى العالقة على ورقات الشّجر حولكِ، يرسم خارطة فلسطين على جدرانكِ بمسك دمه؛ ينتظرُ خيول العاشقين كلّ لحظة وهم يحملون بيارقَ النصر، يهفو لسماع الأطفال وزغاريد النساء يهلّلون ويمجّدون بفرسانكِ يا قلعة الأحرار!

إنّ تراكمية الوعي لدى أحمد تدلّنا عليها مقولتُهُ الباحثةُ عن الحياة: «إنّ المعرفةَ تتطلّب جهدًا استثنائيًا»؛ فهذه التراكميّة لديه، بشكلٍ عام، وفي الشأن الصهيونيّ بشكلٍ خاص، أسهمت في تعزيز الحالة المعرفيّة لدى كثيرٍ من الباحثين والمهتمّين بهذا الخصوص، التي من شأنها تصليبُ الحالة النضاليّة، باعتبارها الحلّ الوحيدَ لمقارعة العدوّ ودحره، من خلال الاطّلاع الدائم على نمطيّة التفكير لدى العدو؛ انطلاقًا من جدليّة الصراع القائم على الوعي، ليس بين الثورة والاحتلال وحسب، بل بين الحضارات على مرّ العصور؛ لأنّ الثائرَ الحقيقيّ غيرُ منفصلٍ أو منسلخٍ عن تراكميّة الوعي السياسي والنضالي والاجتماعي.. فالثائرُ عدوٌّ للجهل؛ لأنّ الجهلَ لا يصنع ثورةً، والجاهلَ لا يقود ولا يثور ولا يحقّق نصرًا، فالثائرُ الحقيقيّ في عيون أحمد هو ذاك الذي يبحث عن هُويّته الثقافيّة بين دفتَيْ التاريخ كما يبحث عنها بين زخات الرصاص، منغمسًا فيها ومنغمسةً فيه؛ تؤهّله لوضع الاستراتيجيّات، والقدرة على المناورة والتكتيك، ويبذلُ أقصى جهدٍ من أجلها؛ لأنّها تمثّل كيانَهُ ووجودَه، وتقيسُ له مقدار غضبه على الواقع، وتحدّد له سبيل الوصول إلى الهدف؛ إنّها هُويّة الذات الثائرة!

لم يكن المشهد الصهيوني، تحديدًا، بعيدًا عن مجهر أحمد، بل كان يغوص فيه تمحيصًا وتحليلًا وردًّا على روايته المزيّفة أوّلًا بأوّل؛ لتبقى فكرتُهُ حيّةً؛ القاضيةُ بأن تبقى جذوةُ الثقافة مشتعلةً في صراعنا مع عدوٍّ يقتلُ الكلمة، ويعتقلُ الحقيقة؛ لذلكَ لم يتردّد لحظةً عن مواصلة إيمانه العميق بأهميّة الكلمة وخطورتها، مؤمنًا بأنّ المعركة تحتاج إلى كلمةٍ تمهّد لها طريق الوصول إلى النصر؛ وأن البندقية لا بدّ لها من كلمةٍ لتصيبَ الهدف؛ فكرّس حياته ووقته كلّه دون كللٍ أو مللٍ، رغم ظروفه وظروف شعبه الصعبة، فكَنَزَ لنا كثيرًا من المعرفة والوعي في إطار معركتنا الشاملة مع الإمبريالية الكولونياليّة الاحتلاليّة؛ معبّدًا لنا بوعيه المتفتّح ورصيده الهائل طريقًا أكثر وعيًا وتضحيةً نحو الهدف، وتاركًا لنا روحَهُ النقيّةَ لتمنحنا هالةً من نور الإرادة والعزيمة على مواصلة الدرب ذاته، ولتحثّنا على مراكمة الوعي النضالي بجميع أشكاله؛ لأنّ الجهلَ في ذاته احتلالٌ للعقل، وهذا ما كان يرفضُهُ أحمد، فسخّر عقلَهُ درعًا، وقلَمَهُ سلاحًا، وقلبَهُ قلعةً محصّنة؛ يذودُ بنفسه عن حياض وطنه بكلّ ما فيه من ألم، متهيّئًا لرحيلٍ أبديّ لجسدهِ المثخن بالجراح، ومتيقّنًا بعزيمة الأجيال من بعده على حمل لوائه، لذلكَ كان يكرهُ الرّثاء؛ لأنّه وقوفٌ على الحزن والجراح، وأحمد يدعونا إلى التقدّم والإقدام وعدم التوقّف أو الرجوع حتّى نصلَ إلى الهدف!

رحلَ أحمد ولم ترحل فكرتُهُ معه أو يرحل غضبُه، بل بقيت حاضرةً معنا وبيننا تدعونا كلّ لحظة إلى مواصلة الدرب، من أجل قلعته الحزينة، وعشقه العميق لوطنه، وتضحياته الكبيرة، من أجل أنْ تحيا الأجيالُ بكلِّ وعيٍ وإصرارٍ حتّى التحريرِ والاستقلالِ والعودة!

وداعًا يا رفيق الكلمة والانتماء.. وداعًا يا صاحب القلعة الشمّاء..
وداعًا أحمد مصطفى جابر..

الهدف الثقافي

المفكر حسين أبو النمل

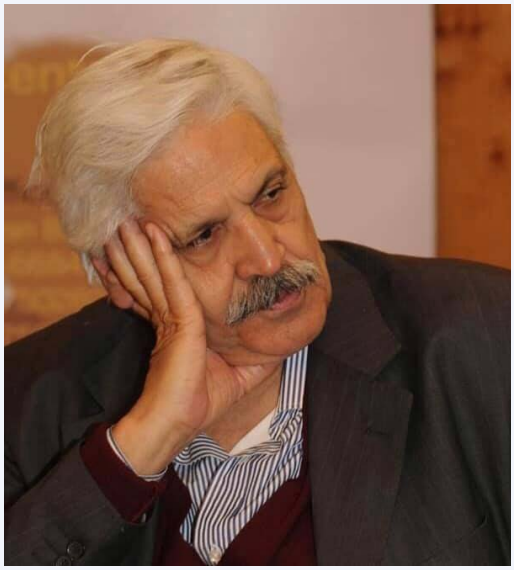

حضورُ العقل لا تغييبُه

القائد المفكّر د. حسين أبو النمل

قبلَ أيّام معدودةٍ مرّت الذكرى الأليمة الثالثة على رحيل المناضل والقائد المفكّر د. حسين أبو النمل، الذي وضعنا أمامَ ثلّة من الكُتب والدراسات المنهجيّة العميقة، سواءً تلك التي تناولت واقع العدوّ، خاصّةً مع ما يتعلّق منها بطبيعة واقعه الاقتصادي وتطوّره على هذا الصعيد، منذ إقامة كيانه الغاصب على أرض فلسطين، أبرزها: (بحوث في الاقتصاد الإسرائيلي - الاقتصاد الإسرائيلي - الاقتصاد الإسرائيلي من الاقتصاد الزراعي إلى اقتصاد المعرفة) أو تلك المتعلّقة بقراءة الواقع الفلسطيني، الاقتصادي — الاجتماعي من جهة، وأزمة حركته الوطنيّة من جهة أخرى؛ وأبرزها: (قطاع غزة ١٩٤٨-١٩٦٧: تطوّراتٌ اقتصاديّةٌ وسياسيّةٌ واجتماعيّةٌ وعسكريّة — الضفة والقطاع ٦٧- ٧٨ بين الإلحاق والدمج — حين كان الزمن الفلسطيني واللبناني جميلًا)، بالإضافة إلى عشرات الدراسات والمقالات.

قدّم المفكّر "أبو النمل" قراءةً عميقةً وشاملةً للاقتصاد الإسرائيلي، من خلال المقاربة التي أسّس لها في كتابه "الاقتصاد الإسرائيلي" الصادر عام ١٩٨٨، الذي عرض من خلاله للتجربة، وفسّرها واستخرج دروسها؛ بين تمثيلها نموذجًا للتنمية المديدة والمستدامة، وتوظيف السياسة والأيديولوجيا في إنجازٍ اقتصاديّ أعاد إنتاجهما. وهذا ما فرض عليه تطوير منهج بحثيّ يضع التجربة في إطارها التّاريخي، ويُلحظ تضافر عناصرَ تقليديّة داخليّة مع عناصرَ استثنائيّة خارجيّة لإنجاز التجربة، ليصل في كتابه اللاحق "الاقتصاد الإسرائيلي من الاقتصاد الزراعي إلى اقتصاد المعرفة" الصادر عام ٢٠٠٤، إلى أنّ دخول إسرائيل أواخر القرن العشرين طَور اقتصاد المعرفة؛ يعود لدعوة عام ١٨٨٢ لإنشاء جامعة يهوديّة، وُضع حجر أساسها عام ١٩١٨ لتكون أوّل لبنة استراتيجيّة للمشروع الصهيوني بعدَ وعد بلفور عام ١٩١٧؛ ليخرج بنتيجة مفادها: أنّه إذا كانت الأيديولوجيا هي البداية النظريّة للمشروع الصهيوني؛ فالعلمُ هو خطوتهُ التطبيقيّة الأولى؛ لأنّ العلم هو بيئةٌ اجتماعيّةٌ حاضنة، ووعيٌ لأهمية التنمية الإنسانيّة بالديموقراطيّة وكرامة المواطن، فإنّ بلوغ اقتصاد المعرفة يعني إنجاز مقتضيات ذلك.

وبحسب المفكّر "أبو النمل" تكمن أهميّة التعرّف على ما تقدّم لأسباب نشير من بينها إلى ما يوفّره الإنجاز الاقتصادي لإسرائيل من ميزان قوّة شامل تحوّله إلى سلاح ضغط لتحقيق طموحها بالتحوّل إلى دولةٍ إقليميّةٍ عظمى تتجاوز شهواتُها أرضَ فلسطين إلى جوارها القريب والبعيد.

لذلك، انشغل في العمل على تأمين نظريّة ورؤيّة أصيلة وشاملة للصراع العربي — الفلسطيني الصهيونيّ؛ مرتكزةً على وعي شامل لمختلف جوانب الصّراع وأبعاده القديمة - الجديدة، وعدّ أنّ جسر الهوة/ ميزان القوى بيننا وبين العدوّ، لن يكون إلا بالارتكاز إلى العلم ومنطق التقدّم؛ أي حضور العقل لا تغييبه.

ملحمةُ جلجامش وأساطيرُ الأولين!

تأثّر بعض الأديـــان بهـذه الحياة الفكريّة الأسطوريّة

تغريد بو مرعي
شاعرةٌ وأديبةٌ ومترجمةٌ لبنانية/ البرازيل

المقصودُ بجلجامش هو ذلك النصُ الشعري الطويل المكتوب بالآكاديّة البابليّة، وموزّع على اثني عشر لوحًا فخاريًا، تروي الملحمة حياةَ الملك جلجامش وأعماله، ملك أوروك، بطريقة يمتزج فيها التاريخ بالأسطورة. والملحمة من خلال استدلالاتها المبطّنة، تروي أساطير ذكرت في معجزات لحقتها الكثير من الأقوام والأنبياء، وتأثّر بعض الأديان بهذه الحياة الفكريّة الأسطوريّة.

وردت كلمة أساطير الأولين في القرآن الكريم ٨ مرات، وهذه إشارةٌ واضحةٌ جدًا لأن ندرس أساطير الأوّلين بكلّ دقّة للتمييز بين ما ورد فيها، وبين حقائق القرآن الكريم، وتصحيح المعلومات التي وردت عبر الأساطير.

كان سرد الأساطير منذ القدم ضرورةً حيويّةً للناس، فقد ابتكر الإنسان القديم أساطيره لفهم الكثير من المعاني، مثل الولادة والموت وما بعد الموت والخصب والأمومة...، فأبطال الأساطير يقومون بأعمال خارقة، ويحققون كل الرغبات والأماني البشرية ويهزمون حتى الآلهة، والبشر في جميع الأزمنة وفي مختلف أماكن وجودهم، يريدون أن يعرفوا سبب وجودهم وتفسيرًا لتصرفات الطبيعة، وكيف يرتبط السبب بالمسبّب. وكما ذكرنا سابقًا "القرآن" صحّح جميع المعلومات التي وردت في الأساطير، وعلى سبيل المثال، قصة الطوفان التي ورد ذكرها في ملحمة جلجامش.

ورد الطوفان في الأساطير القديمة في ثلاث قصص بابليّة، الأولى بطلها أرهاسيس وتعود إلى ١٦٥٠ قبل الميلاد، والثانية بطلها زيو سيدرا، والثالثة بطلها أوتنابشتم Utnapishtem ومعناه: البعيد. وقد ذُكرت القصة الثالثة في ملحمة جلجامش Gilgamesh، والقصص الثلاثة تحدثت عن شخص عاديّ قام بصنع سفينة.

كانت الآلهة قبل الإنسان تعمل لكسب قوتها، والكون مقسّمٌ بين هذه الآلهة، وكان الإله أنليل يحكم الأرض، والإله أنكي يحكم العالم السفلي، وكان سبعة آلهة يشكلون طبقة الحكام، وقد تعبت الآلهة خاصةً بعد أن حفرت نهري دجلة والفرات، فقررت خلق من يعمل ليطعمها، فخلق الإله أنكي الإنسان.

ولكن البشر تكاثروا على الأرض، وكثر هياجهم وصخبهم، فلم تستطع الآلهة النوم من ضوضاء البشر وضجيجهم، فقررت القضاء عليهم، فأرسلت مرض الطاعون، لكنه لم يقضي على كل البشر، فأرسلت الجفاف، لكن إله المطر [أدَد Adad] قبل رشوةً من البشر فأرسل المطر.

وأخيرًا اقترح الإله أنليل على الآلهة إرسال الطوفان، ولكن الإله أنكي عارض الفكرة، فأرسل الخبر سرًا إلى أوتنابشتم ونصحه ببناء السفينة لإنقاذ بعض البشر، وأنزل الإله أدَدْ الأمطار ستة أيام متتالية، وفي اليوم السابع خفّت الأمطار، واستوت السفينة على جبل نصير، وقد جاعت الآلهة في هذه المدة، وعندما نزل أوتنابشتم من السفينة وضحى بأضحية، اجتمعت الآلهة على الأضحية مثل الذباب لشدة جوعها، وعندما وصل الإله أنليل وشاهد السفينة غضب غضبًا شديدًا؛ لأنّ بعض البشر قد نجا من الطوفان. أما معلومات "القرآن" فتختلف بشكل جذريّ عن هذه القصة، حيث يتحدّثُ عن رسولٍ كريمٍ هو النبي نوح عليه السلام، ويردّ القرآن على هذه الأكاذيب الأسطوريّة، التي تتحدث عن تعدّد الآلهة، كما أن "القرآن" انتقد بشدّة من يقول إنّه يُشابه أساطير الأولين، مثال: (إذا تُتلى عليه آيـاتُنـا قال: أساطيرُ الأوّلين) القلم ١٥ / المطفّفين ١٣.

لقد كان لهذه الأساطير تأثيرٌ في الفكر الإنساني:

عيد النيروز:

هو اليوم الذي يُقال: إنّ السفينة رست فيه على الجبل، ويصادف تاريخ ٢١ آذار، وقد جعلوه عيد الأم نسبة إلى الآلهة الأم الكبرى عشـتار.

حمامة السلام:

دخلت فكرة حمامة السلام، التي تحمل في منقارها غصن زيتون أخضر من أساطير الطوفان، حيث أرسل ابتناشتم حمامة من السفينة، فعادت في المساء وفي منقارها غصن زيتون أخضر، فعلم أن اليابسة قد ظهرت من جديد، وأوّل من رسم هذه الحمامة هو الرسام الشهير بابلو بيكاسو.

قوس قزح:

مع أن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلّم يقول: [لا تقولنّ قوس قزح، ولكن قولوا: قوس الله] رواه ابن الجوزي ١ / ٢١٣، لكن بقيت تستخدم قوس قزح وكأنها تعترف بإله آخر هو قُزَحْ = إله الصواعق والرعد]، والله يقول: (ولا تجْعلْ مع الله إلهً آخر، فتُلْقى في جهنّم ملومًا مدحورًا) الإسراء ٣٩.

تقول الأساطيرُ البابلية: علقت آلهة اللذة عشتار قوسها الثمين الملون على السماء، ليكون ميثاقًا مع البشر أن لا يعودَ الطوفان ثانية، وفي [سفْر التكوين ٩ / ١٢] نجد: [وقال الله: هذه علامة الميثاق الذي أنا أضعه

بيني وبينكم... وضعت قوسي في السحاب... فيكون متى أنشر سحابًا، أنّي أذكر ميثاقي، فلا تكون المياه طوفانًا] والله سبحانه يقول: (ومَـا كانَ ربّـك نسـيًا) مريم ٦٤.

جلجامش:

هو الذي رأى كل شيء فغنّى بذكره يا بلادي، وهو الذي رأى جميعَ الأشياء، وأفاد من عبرها، وهو الحكيم العارف بكل شيء. أبصر الأسرار وكشف الخفايا، وجاء بأنباء ما قبل الطوفان، حتّى كأنّك ترى الملحمة قصّةً مقدّسةً أو رسالةً سماويّةً يصبح فيها أتنابشتم منقذ البشريّة من الطوفان بدلًا عن النبي نوح عليه السلام.

بعد موت أنكيدو قرر جلجامش البحث عن الخلود وسر مقاومة الموت، قرّر أن يقوم برحلة للبحث عن أتنابشتم، فيلتقي به ويحدّثهُ أتنابشتم عن فيضان عظيم سوف يحدث، وقد علم بخطّة وضعتها الآلهة لإحداث هذا الفيضان، فشيّد سفينة وضع فيها جميع مقتنياته الثمينة، وعائلته وأقاربه، ومختلف الحيوانات الأليفة والبرية من كلّ نوع.

ودام الفيضان ستة أيام، وراح ضحيته بقية أبناء الجنس البشري بالكامل إلا أتنابشتم ومَن معه، حيث حطّوا على جبل يسمى جبل نموش، ومن هناك أرسل حمامة وسنونو للبحث عن اليابسة، إلا أنهما لم يعثرا على أرض يستريحا عليها ورجعا إلى أتنابشتم، فأطلق غرابًا طار في السماء ولم يعد، فاستدل أتنابشتم من ذلك على أن الغراب وجد اليابسة وأن المياه بدأت تنحسر:

"وعندما حل اليوم السابع،
أتيت بحمامة وأطلقتها.
طارت الحمامة بعيدًا ثم عادت إليّ،
لم تجد مستقرًا فعادت.
ثم أتيت بسنونو وأطلقته،
طار السنونو بعيدًا ثمّ عاد إليّ.
لم يجد مستقرًا فعاد.
أتيت بغراب وأطلقته.
طار الغرابُ بعيدًا. فلما رأى الماء قد انحسر،
حام وحطّ وأكل، ولم يعد"

دائمًا تصلنا أن منبت العديد من الأساطير وأصلها هي حقائقُ مطلقة، فجلجامش، ملحمةٌ شعريّة، فكريّة، فلسفيّة وإنسانيّة، تعبّر عن روح عصر ذلك الزمن بكل الهواجس والآمال والأحلام، وتعبّر عن الوجه الحضاري والإنساني الذي وصل إليه إنسانُ ذلك العصر وعن الرسالة التي تخرجها هذه الحضارة للعالم.

اتنابشتيم بطل أسطورة الطوفان البابليّة، الذي حمل في سفينته من كل زوجين من الحيوانات اثنين وأهله، فأنقذ الحياة على الأرض من الدمار الشامل الذي أحدثه الطوفان العظيم. وقد أنعمت عليه الآلهة بالخلود مع زوجته وأسكنوه في جزيرةٍ نائيةٍ تقع خلف بحار الموت جزاءً له. "إنّ هدف الحياة ومعناها قائمٌ فيها، في الممكنات غير المحدودة التي تتيحها لنا، التي نعمى عنها حين يداهمنا رعب الموت، فنسعى لإطالة حياةٍ لا ندري ماذا نفعل بها".

وهذه الملحمةُ الفريدة التي تجاوزت بيئتها، وتُرجمت الى أكثر من لغة تضع السؤال الأصعب في تاريخ البشر، ألا وهو سرُ الحياة ولغزُ الموت:

"من ترى يا صديقي يرقى إلى السماء
الآلهة هم الخالدون في مرتع شمش
أما البشر فأيامهم معدودة على هذه الأرض
وقبض الريح كل ما يفعلون"

بعد وفاة أنكيدو يخاف جلجامش من الموت لينطلق في رحلة بحث عن معنى الوجود ومسألة الحياة والموتِ والخلود. فهل قهر الموت جلجامش، أو أنّ الخوف من الموت قهره؟!

"انتابني هلع الموت حتّى همّت في البراري
يثقل صدري خطب أخي
مالي من هداة ومالي من سكون
فصديقي الذي أحببت صار إلى التراب
وأنا أفلا أرقد مثله ولا أفيق أبدًا"

"أواه يا أتنابشتيم. ماذا أفعل؟ أين أسير؟...
لقد تسلل البلى إلى أطرافي...
وسكنت المنية حجرة نومي...
وحيثما قلبت وجهي أجد الموت"

فيقص عليه أوتنابشتيم قصته المشابهة تمامًا لقصة سيدنا نوح والطوفان مع بعض الاختلاف، بأن الآلهة قررت أن ترسل طوفان للقضاء على الحياة على الأرض، ولكن الإله 'إيا" جاء في حلم أتنابشتيم وطلب منه أن يبني سفينةً ويحملُ عليها زوجًا من كلّ شيءٍ حيّ، فيبنيها، ويخبر الناس بأنّه سينتقل إلى عالم المياه السفلى ويحملُ أقاربه وزوجًا من كلّ نوع من الحيوانات، بالإضافة إلى أصحاب الحرفً المختلفة من نجار ونحات وكتاب.. إلخ ويحدث الطوفان وينجو ركّاب السّفينة فقط، وعندما تعلم الآلهة تمنحه الخلود مكافأةً على إنقاذ الحياة... وأسكنوه في جزيرةٍ نائيةٍ تقع خلف بحار الموت جزاءً له.

"أتدري يا أورشنابي
إنّ الإنسان مفضّلٌ على الآلهة؟
مفضلٌ لأنّه يموت، لأنّ عليه أن يفعل الكثير قبل أن يمضي.
لقد حكم عليه بالامتحان الكبير
وعليه أن يتعلم كيف يعيش،
وعليه أيضًا أن يتعلم كيف يموت"

إنّ الأدب هو دليلُ تفوّقنا البشري، دليلٌ على أنه يمكن أن نتجاوز كل الاختلافات فيما بيننا، ونصنع أعمال تتجاوز طبيعتنا الضيقة، فالسببُ الذي دفع ملحمة جلجامش وملاحم هوميروس بالصمود، رغم أنّها كُتبت في بيئة معيّنة وتناولت أفكارًا دينيّةً معيّنةً عن الآلهةً والطبيعة، تختلفُ بشكلٍ جذريّ مع رؤانا في الوقت الحاضر، هو مخاطبة الإنسان في كلّ زمن وزمانٍ بعيدًا عن لونه وجنسه وعرقه.

"إلى أينَ تمضي يا جلجامش؟
الحياة التي تبحث عنها لن تجدها
فالآلهة لما خلقت البشر
جعلت الموت لهم نصيبًا
وحبست في أيديها الحياة
أما أنت يا جلجامش، فاملأ بطنك
فرح ليلك ونهارك
اجعل من كلّ يوم عيدًا
ارقص لاهيًا في الليل وفي النهار
أخطر بثيابٍ نظيفةٍ زاهية
اغسل رأسكَ وتحمّم بالمياه
دَلّل صغيرك الممسك بيدك
وأسعد زوجك بين أحضانك
هذا نصيب البشر في هذه الحياة"

شخصياتٌ عديدةٌ ذكرت في هذه الملحمة، أدّت كلٌ منها دورًا، وكان لها هدفٌ وغايةٌ في إتمام تلك الملحمة لتخرج بهذه الروعة، ولعلّ الدافع الحقيقي لم يكن البحث عن الخلود، بل البحث عن معنى الحياة والغاية فيها؛ لأنّ الخوف من الموت شرطٌ لحبّ الحياة، ففي كلّ مرحلة من مراحل رحلته، كان جلجامش يتلقى درسًا في معنى الحياة والموت.

مصادر:

- كتاب «ملحمة كلكامش أوديسة العراق الخالدة» لعالم الآثار العراقي طه باقر.
- كتاب «كنوز الأعماق - قراءة في ملحمة جلجامش» المفكر والكاتب والباحث السوري فراس السواح.
- كتاب «ملحمة جلجامش» والذي ترجمه للعربية عن الألمانية المترجم المصري عبد الغفار مكاوي وراجعها عن الأكدية الباحث المصري عوني عبد الرؤوف في سنة ٢٠٠٣.

قتلُ الموت

ثائر أبو عياش
باحثٌ وكاتب/ فلسطين

القلمُ هنا هو أداةُ الجريمة، والضحيّةُ هو النصّ، ولكن المجرم الذي يحمل القلم بيديه يخنقُ النصّ عند البدء بالانسياب بين الدموع المتراكمة على النعش؛ حيث أركانُ الجريمة واضحةٌ على الورق، ولكن النصّ يفقد العدالة عند القول: إنّ هناك شهيدًا آخر، تلك حقيقةٌ علينا إدراكها، حيث الشهيد ليس رقمًا يمكن كتابته داخل كراسات القضاء؛ لأنّ الشهيد هو العدالةُ في النص الحقيقي للصراع، ويسأل دومًا: «لماذا يتغيّب الشهود؟».

على العكس، إنّ الشهيد هو قضيّةُ ألم، ووجع، وقهر، وظلم، وفقدان، ووداع، كلها كلماتٌ، ولكنّها في الحقيقة محتلٌ يزرع الرصاص في أجساد الأطفال بسخرية عجيبة في زمن أصبح الرصاص أهم منَ الجوع، والفقر، والأمراض، حيث الموت يأتي من بين مخالب الحياة، ويحصد الفرح، والحب، وقبلات الأمهات على جبين أطفالهم وهم يلهون في الأحياء، وأكثر قبلات الآباء على أبواب المدارس.

هم حكاياتٌ نجمعها لنعاتب التاريخ الدموي، ولنقول له: إنّنا نبحث عن الأمان، ونحن نقرأ كراسات المدرسة دون دماء، وأكثر ونحن نلهو بين أشجار الزيتون، ولكن أحفاد التلمود جاؤوا وعاثوا دمارًا في الأحلام، حيث كتبوا التاريخ بالحصار، وقتل الأجنّة، ونهب الجغرافيا، واعتقال النساء.

الشهداء، وهنا نقصد الأطفال منهم لا يمرون على الصراط، حيث يرفضون ذلك؛ لأنهم لا يسقطون في النار وقت الحساب، ولن يمروا فائزين، بل هم الحساب والنار، وأكثر هم الصراط، ما أثقل هذه الحقيقة، وما أثقل انتظار حكاية أخرى، لربما جميعًا ننتظر الرصاص! وما أثقل غياب الرصاص!.

إن هذا صراعٌ لن ينتهي إلا بالقول: إنّنا نطالب بحقنا بالبقاء، لأنّنا علينا إدراك حقيقة تقول: «كم طفلًا، وكم رصاصة، وكم يومًا من الاحتلال نحتاج، هذه كلفةٌ يجب حسبتها سريعًا؛ لأنّنا هنا لنقاتل لا لشيء آخر».

لا يقاتلُ الشهداءُ في سبيل قضيّتهم الخاصة، هنا القصد أكثر الشهداء الأطفال من جديد، حيث إنهم يقاتلون في سبيل أشياء أخرى ليس ككبار، حيث يقاتلون في سبيل علبة ألوان، إن هذه العلبة قضيّةٌ وجب البت فيها؛ لأنّ فراشة هؤلاء الشهداء هي من ترسم الحرية في شتى البقاع.

حاورنا أيها الفتى، حاورنا ولو بالصمت.. أيها الطفل «مصطفى صباح»، كم أثبت أن العمر مجرّد رقم لحظة الاشتباك، هي قاعدة لا تحتمل الشواذ، حاورنا كيفما تشاء، ارسم لنا - إذا استطعت - على ورقةٍ بيضاء، أو على الجدار، أو على قاعدة شجرة، ولكن ما زلت ترفض لأنّك ترسم قضيّتك، وأكثر حكايتك بالدم، وهل هناك أجمل من هذه اللوحة !

ها أنت اليوم أصبحت المدرسة التي نحمل عليها حقائب عجرنا، وكتب التاريخ المزورة، وكراسات الاستسلام، والأقلام السياسيّة التي شطبت الحدود عن خارطة الحقيقة، وها نحن نبكي، نبكي بشدة رصاصنا في الطابور الصباحي، ولكن حتمًا سوف ننجح في انتزاع العلامة الأولى في امتحان المتراس داخل الصف الوطني.

حينما تزغرد النسوة مع البكاء يكون السؤال: «إلى أين هو ذاهب؟»، وأكثر «هل هذا هو الرحيل الأبدي؟»، بل «وهل سيعود؟»؛ لأن هذه الأسئلة محاورةٌ مع الوداع، حيث هنا يُعطى الموت كلمتين من أجل القبول به «شهيدًا، وعريسًا»، ولكن ما أصعب عودة الضيوف إلى بيوتهم وبقاء عائلة العريس وحدها، هنا تقول عائلة العريس: «ماذا لو استمرّ هذا الاحتفال؟».

يبقى سؤالٌ أخير، وربّما قبل الإجابة عليه تقتلنا حكايةٌ أخرى في نصّ جديد، لربما نحن جميعًا الذين نعيش تحت سقف التاريخ المسروق نصوصًا مؤجلة، ولكن ما زال السؤال يتمرّد على القلم ويقول: «متى يتوقّف النص عن النزيف ؟»، تلك إجابةٌ وجوديّةٌ يجب البحث عنها عبر قتل الموت القادم نحونا بكل هذا الجنون بالرصاص.

جبهةٌ ثقافيّةٌ موحّدةٌ
مقاومةٌ للتشرذم السياسيّ وللعدوّ

أنور الخطيب
شاعرٌ وكاتبٌ فلسطينيّ/ لبنان

يكادُ مصطلحُ الثقافة الفلسطينيّة يقترب من مصطلح الثقافة العربيّة في صعوبة تقرير مستوى الخصوصيّة ودقّة الاستقلاليّة. بمعنى أنّه لو وجّهنا سؤالًا لأيّ مثقّف يؤمنُ بالقوميّة العربيّة وطالبناه بوضع ملامح للثقافة العربيّة لما وجد غير اللغة قاسمًا مشتركًا، بيد أنّ اللغة العربيّة ليست المعيار الذي يُصطفى لنسمي مثقّفًا بأنّه مثقّفٌ عربيّ، استنادًا إلى كثرة المفاهيم ذات الصلة بـ (الثقافة)، وهذا ينطبقُ على ماهيّة الأدب العربي، هل هو المكتوبُ باللغة العربيّة أم المعالج للقضايا العربيّة. ولجوءًا إلى التعميم يمكننا القول إنّه مثلما هناك سياساتٌ عربيّةٌ واقتصاداتٌ عربيّةٌ توجدُ ثقافاتٌ عربيّة، أي هناك ثقافةٌ معيّنةٌ لكلّ قطرٍ عربيّ، وفي داخل كل واحدٍ ثقافاتٌ متكوّنةٌ نسبةً للعرق واللغة والدين والانتماء والمذهب، ففي الدول الطائفيّة هنالك ثقافاتٌ للطوائف، وفي الدول التي تقطنُ فيها أقليّاتٌ، مثل الكرديّة والشركسيّة والأرمنيّة، هناك ثقافةٌ لكلّ عرق، وداخل كلّ عرقٍ هناك ثقافاتٌ أخرى بناءً على المذهب والانتماء الوطني والحضاري. أما الدول التي تحتضنُ أديانًا رئيسةً، كالمسيحيّة والإسلاميّة، فيمكننا ملاحظة وجود ثقافتين مسيحية وإسلامية، وداخل كل دين هناك ثقافة، كالثقافة السنّية والشيعية والثقافة المارونية والكاثوليكية وهكذا..

ويمكننا اقتناص مفرداتٍ وأفكارٍ تؤكّد ما ذهبنا إليه، لا سيّما أنّ المؤسسة الرسميّة الحاضنة والراعية للثقافة تتقاضى ثمن ذلك بطريقةٍ أو بأخرى، ولا نعني بالرسميّة الحكوميّة، فالأحزابُ قد تكون رسميّةً طالما تمّ تمثيلها في الحكومة، فكيف إذا كان لديها ميليشيات تحمل السلاح، ولديها انتماءاتٌ خارجيّة.

وبناءً على ما تقدّم، هل يمكننا القول: إنّ مصطلح الثقافة الفلسطينيّة، بتشعّباتها وانتماءاتها الأيديولوجيّة وتمثيلها للتنظيمات المسلّحة وغير المسلّحة، تشبه إلى حدّ بعيد مصطلح الثقافة العربيّة؟ سؤالٌ قد يبدو خطيرًا ومعقّدًا وجريئًا للغاية، ورغم ذلك، علينا أن نتعامل مع هذه الفرضيّة بجديّة وصدق كبيرين.

ثقافاتٌ فلسطينيّةٌ ومرجعيّاتٌ متعدّدة:

عودةً سريعةً إلى بدايات الثورة الفلسطينيّة، سنجدها قد تشكّلت من تنظيمات تبنّت أطروحاتٍ فكريّةً متباينة، ومنها الليبراليّة والإسلاميّة والاشتراكيّة والشيوعيّة والقوميّة والديمقراطيّة وغيرها، وكان مصدر هذه المنظومات الفكريّة من الأقطار العربيّة الداعمة للتنظيمات، مثل الاتّجاه القومي والاتّجاه البعثي القومي الاشتراكي، واتّجاه الإخوان المسلمين وأطيافهم. وترجم الكتّاب والأدباء المنتمون تلك الأفكار في خطاباتهم السياسيّة والأدبيّة والاجتماعيّة. ففي الوقت الذي لم تكن لدينا دولةٌ بعد، كان الخطاب الفلسطيني يتحدّث بأسلمة المجتمع، أو بليبراليّته، أو بدكتاتوريّة البروليتاريا، أو شيوعيّة الملكيّة، فكان أن وضعنا وبشكلٍ مبكّر العربة أمام الحصان. وظلّ هذا الخطاب سائدًا إلى أن تمّ توقيع اتفاقيّة أوسلو وتشكّلت السلطة الفلسطينيّة، فأصبح لدينا ثقافةٌ سلطويّة، وثقافاتٌ تحمل ملامح مرجعيات التنظيمات والحركات والأحزاب الأخرى، مع اشتداد نبرة الخطاب الإسلامي، نظرًا لعسكرته وارتباطاته بطموحات أحزابٍ كبيرة، مثل تنظيم الإخوان المسلمين والسلفيّة، وهؤلاء يغلبون الدين على القوميّة والوطنيّة، مع الإبقاء على التيّارات الماركسيّة اللينينيّة والشيوعيّة والاشتراكيّة، حتى أن أحدهم سمّى نفسه ماركسيًا سلفيًا. وبما أنّ القوّة هي التي توجّه الفكر، فقد أصبحنا أمام اتجاهين رئيسيين، الأوّل الاتجاه الإسلامي، والثاني الاتّجاه الليبرالي. الاتجاه الأوّل يعمل بجدٍّ ونشاطٍ ويستميتُ في ترجمة ثقافته الدينيّة على السلوك اليومي للناس والشارع ويطمحُ إلى إنشاء مجتمعاتٍ شبيهة، والثاني المفترض أنّه ليبرالي وديمقراطي، إلا أن الخطاب السلطوي تمكّن منه، وبات يمارس ثقافةً تشبه إلى حدّ بعيدٍ ثقافةَ الأنظمة المجاورة لفلسطين. ولو تداعينا في التوصيف، سنقول: إن الكيان الصهيوني لديه ثقافةٌ رئيسةٌ واحدة، ولتكن اليهودية، ويعلن خطابها بوضوح في المنابر المحليّة والعالميّة، وفي المقابل، لم نجد لدى الفلسطينيين خطابًا يواجه الخطاب اليهودي المتطرّف، والخطاب الإسلامي في جوهره، الذي يرفض أن يتبنى القوميّة الوطنيّة، ولو إلى حين، يكاد لا يواجه الخطاب اليهودي، ويرى في العالم كلّه وطنًا، ويسعى إلى نشر الإسلام في المعمورة، مع قناعة أصحاب الاتجاه بأنه تكليفٌ إلهي. وقد سمعنا أكثر من مرّة تصريحات مسرّبةً على ألسنة قيادات إسلاميّة، أن فلسطين (مثل نكاشة الأسنان، وهدفنا يتجاوزها)، وبذلك تكون الثقافة الدينية قد هربت من المواجهة الوطنية مع العدو، الذي من المفترض، أن يكون عداؤنا معه يكتسب أولويةً قصوى. هي نتيجةٌ صعبةٌ جدًا؛ القول: إننا لا توجد لدينا ثقافة المواجهة، ولا يكفي أن نكون مقتنعين بحقّنا في وطننا الأصلي كي نبني ثقافة مواجهة.

غياب الاستراتيجيات الثقافيّة أدّى إلى غياب مشهدٍ ثقافيّ فلسطينيّ واضح المعالم:

وعلى الصّعيد الداخلي، بعيدًا عن وجود الآخر العدو، ولو بحثنا

عن الاستراتيجية الثقافيّة للسلطة الفلسطينيّة، بصفتها الممثّل الرسمي للشعب الفلسطيني، فلن نجد سوى برامج لتنظيم فعاليات ثقافيّة، وليس استراتيجيات مواجهة، قصيرة أو طويلة المدى، برامج لفعاليات مهرجان سينمائيّ ومَعرض كتاب ومَعرض تشكيلي ومهرجان مسرحي وغيرها، تعود لوزارة الثقافة أو اتحاد الكتاب، وهما وجهان لعملة واحدة لم تستطيعا استقطاب المثقف الفلسطيني أو توحّده، أو خلق حالة ثقافيّة وطنيّة فلسطينيّة متماسكة، أو مشهد فلسطيني واضح المعالم والصفات. وفي المقابل هناك تشرذمٌ خطيرٌ في الساحة الثقافيّة الفلسطينيّة، فكلّ تنظيم له مكاتبُ تنظيميّةٌ أدبيّة، ولا تلتقي هذه المكاتبُ في أي فعالية ثقافيّة، كأن الثقافة الفلسطينية تحوّلت إلى جزر نائية. أمّا المثقف الفلسطيني المستقل غير المنتمي إلى أي مكتب حركيّ أدبي، يبقى يعاني من الإهمال والمصادرة وعدم الاعتراف بنتاجه الفكري والثقافي والأدبي والفني، ومن استطاع المحافظة على استقلاليّته كان قد استقلّ اقتصاديًا ولم يعد في حاجة إلى داعم مادي.

الوحدة الثقافيّة تتحقّق بالوحدة السياسيّة:

إنّ ما يحزّ في النفس ويجرح المشهد الثقافي الفلسطيني وجود ثلاث بيئات رئيسة للثقافة الفلسطينيّة، بيئة ما أُطلق عليها فلسطين الـ ٤٨، وهي البيئة التي حافظت على جذورها في فلسطين ولم تهاجر إلا أنّها تماهت شيئًا فشيئًا مع «المجتمع» الإسرائيلي لضرورات معيشيّة وأخرى مستترة، والخطاب الثقافي لهذه البيئة له خواصه وملامحه. وهناك بيئة السلطة الفلسطينية، وهذه منقسمةٌ إلى بيئتين جرّاء الانقسام السياسي، بيئة سلطويّةٌ في الضفة الغربيّة، وبيئةٌ في قطاع غزة، ولكلّ بيئة معطياتُها وحيثياتُها وظروفُها وتشعباتُها. وهناك بيئة الشتات، وهذه تنقسم أيضًا إلى أقسام، وأهمُّها، الشتات الغربي والشتات الشرقي، ففي الأولى خطاب أقرب إلى الثقافة الفلسطينيّة الموحّدة، وفي الثاني، أي الثقافة الفلسطينيّة في الشتات، فإنها تجمع ملامح البيئة السلطويّة وبيئة اللجوء، ويتداخل فيها التشدّد مع الليبراليّة، حتى إن بينهما نزاعٌ مسلّحٌ بين الحين والآخر يهدفُ إلى السيادة والهيمنة، ولكل واحدةٍ من هذه البيئات خطابٌ يختلف عن الآخر.

الوحدة الثقافية لن تتحقّق إلا بالوحدة السياسيّة، وسيبقى التشرذم ملمحًا رئيسًا لإيقاع المشهد العام، ما يدعو إلى التساؤل بحرقة: هل الفلسطينيون مجبولون على الانقسام؟ وهل هي نتيجةٌ للسياسات المتخبّطة الفاشلة؟ أم نتيجةٌ لسياسات مدروسة؟ هناك من يقول إن هدف تجهيل الشعب الفلسطيني في الشتات يأتي ضمن مؤامرة جليّة، فمن هم أطرافها؟ هل هي وكالة غوث وتشغيل الفلسطينيين، الأونروا؟ أم التنظيمات الفلسطينيّة؟ أم الدول المضيفة؟ ومشروعيّة التساؤل تنبثق من تراجع نسبة المتعلّمين بين اللاجئين في الدول العربية، وتزايد نسبة أنصاف أو أرباع المثقفين، ناهيك عن تراجع القيم الإنسانيّة والتآزر الوطني بين الأفراد، وانتشار آفة المخدرات. ويعود كل ذلك بسبب غياب الجهود الفعالة للتنظيمات واللجان الشعبية، ولا دخل للدول المضيفة. فالمخيمات الفلسطينية تطوّرت من حيث العمران فقط، وانتشرت البنايات ذات الثلاث طوابق، بينما تراجعت ثقافيًا وأخلاقيًا ووطنيًا وتربويًا. أليس هذا نتيجةً لغياب البرامج الثقافيّة الحقيقيّة، ونتيجة الانشغال بالمهاترات والحروب الجانبيّة؟

جبهة ثقافيّة مقاومة:

على المثقفين والمفكرين الفلسطينيين دقّ ناقوس الخطر قبل أن تتحوّل المجتمعات الفلسطينية في الشتات إلى بؤر للجريمة والانحراف، وأخص بالذكر المخيّمات الفلسطينيّة في لبنان. وعلى وزارة الثقافة الفلسطينيّة أن تدرك مسؤوليّاتها تجاه الشعب الفلسطيني في الشتات والداخل، وأن ترسم استراتيجيّةً قابلةً للتنفيذ يكون هدفها الإنسان الفلسطيني بعيدًا عن الانتماء الحزبي والتنظيمي والديني والمذهبي، وأن تكون الثقافة أولوية، الثقافة بمعنى تعزيز أساليب الحياة المدنية الحضارية، وتأهيل الإنسان الفلسطيني على العيش في سلام مع محيطه الشبيه والمضيف، وأن تقام قنوات فعالة بين الداخل والخارج تكون عابرة للتناقضات والخلافات السياسيّة.

الشعب الفلسطيني بما يملك من تراث شفويّ ومكتوب، وإمكانات إبداعيّة عالية في الشعر والرواية والقصّة والرسم والتمثيل والغناء وكل الفنون التعبيرية، إضافةً إلى المشغولات اليدويّة، يستطيع أن يشكّل جبهةً ثقافيّةً صلبةً في مواجهة الاحتلال، ومقاومة الجهل، ومحاربة الآفات الاجتماعيّة. فقد آن الأوان لقيام هذه الجبهة الثقافية، التي إن نُفّذت بإخلاص، ستكون الواجهة الحضاريّة الأنقى للشعب الفلسطيني، عندها تكون الحرب الحقيقية قد بدأت، متسلّحين بحضارتنا العريقة وبمثقفينا ومبدعينا ومفكرينا في العالم أجمع.

المثقّف الفلسطيني قادرٌ على رتق الخلافات وردم الفجوات السياسيّة، ورسم صورة الشعب المتلاحم الموحّد المنتمي لوطنه بكل جوارحه، إذا ما مُنح الاستقلالية. الشعب المؤمن بالحريّة وقدرته على مواجهة التحدّيات، وصولًا إلى الاستقلال الفعلي، الذي يبدأ بالاستقلال الثقافي، وبناء مشهدٍ خالصٍ لوجه فلسطين.

التقويـلُ النـقديُّ الحجاجيّ

علاء حمد
شاعرٌ وكاتبٌ عراقيّ/ الدنمارك

إنّ تقنية التقويل وعناصره التي تكون عادةً جزءًا من البناء النصّي، من الطبيعي أن يكون لهذه التقنية وعناصرها أسبابُها وعلاقاتُها، وخصوصًا في حالة النقد النسقي ولزوميّات وجوده، أو علاقته النصّية الاتساقيّة، فليست جميع النصوص تتقبّل التشريح والنقد، فهناك النصّ البسيط والمباشر (ويتعلق ذلك بالنصّ الشعري؛ الروائي والقصصي)، ومن الممكن جدًّا تقويل النصّ، ولكن ليس من الممكن تقديمه مع الالتباسات الحاصلة في النصّ ومحيطه وكذلك علاقاته، وصولًا إلى حصر مفهوم حدوده.

إنّ الوعي المعرفي يتمّ تقويله اندماجًا حتميًّا (هذا ما نعدّه ضمن النظام التداولي مع دور القولة)، فلدينا الوعي الذاتي المنفصل، الذي من الممكن أن يتجانس مع المعرفة ووعيها، حيث يكون لهذا الاندماج نتيجةٌ حتميّة، ألا وهي الوعي من خلال النصّ والنصّية، باعتبار أنّ العلاقتين القائمة والمستهدفة تتكوّنان من خلال الوعي النصّي، ومن هنا، يكون التلاحم، هو تلاحم القرائن المعرفية التي حملتها الذات الحقيقية، والانفعاليّة التي ذات علاقة مع العواطف والأحاسيس؛ وتكون النظرة الأيقونيّة بهذه الحالة، نظرة لا تحتاج إلى تبيين، حيث إنّ نظرية التعبير والمتعلّقة بالعواطف والأحاسيس، تم تجاوزها ليحلّ محلّها نظريّة الخلق. ويقول إليوت بهذا الصدد «١» (ليس الشعر تعبيرًا عن المشاعر والعواطف والانفعالات بل هروب من المشاعر والانفعالات، وليس الشعر تعبيرًا عن الذات أو الشخصيّة بل هروب منها، إنّ الشعر خلق).

أنْ تغذي النصّ بمشاعر وعواطف، وأنت تهرب منهما، فهذا يؤدّي إلى نتيجة حتميّة، نتيجة مستقبليّة بعد الهروب؛ وللهروب أسبابه، وهناك استقرارٌ بعد الهروب، أي أن يكون الشاعر بمنطقة من مناطق الخلق النصّي، لكي تتوازى قراءة المنظور بينه وبين الكائنات التي تدور في محيطه؛ وجميع هذه الكائنات تكوّنت من خلال علاقات نصّية؛ منها العلاقات التعدّدية ومنها علاقات الاستنتاج الاستدلالي. وإذا نظرنا إلى نظرية الحجاج التي وضع أسسها اللغوي الفرنسي أزفالد ديكرو (o. Ducrot) سنة ١٩٧٣؛ فسوف نلاحظ أن نظرية الحجاج لا تعني البرهنة بصيغتها المباشرة، وإنّما هناك حالاتٌ منطقيّةٌ واستدلاليّةٌ تتعلّق باللغة وما ينتجه النصّ (ولأخذ فكرة واضحة عن مفهوم «الحجاج» Argumentation ينبغي مقارنته بمفهوم البرهنة Démonstration أو الاستدلال المنطقي. فالخطاب الطبيعي ليس خطابًا برهانيًا بالمعنى الدقيق للكلمة، فهو لا يقدّم براهين وأدلّة منطقيّة، ولا يقوم على مبادئ الاستنتاج المنطقي «٢» فلفظة «الحجاج» لا تعني البرهنة على صدق إثبات ما، أو إظهار الطابع الصحيح (Valide) لاستدلال ما من وجهة نظر منطقية «٣». الصيغة الموجودة بين قوسين ليست صيغةً نهائيّةً لمفهوم الحجاج، ولكي نكون لمساحة أوسع وامتدادًا لما ذكره الدكتور «أبو بكر العزاوي»؛ فسنعدّ النتائج الاحتماليّة صيغةً من صيغ الحجاج التي من الممكن أن نكون في منطقة الاستنتاج الاحتمالي مع صيغة دلائليّة، ومع المنظور الآخر؛ نكون في صيغة الحتميّة والضروريّة، فالحتميّة يقابلها اللاحتميّة في المنظور الفلسفي، بينما الضرورة، فهي الوجود الحتمي لضرورة الإبلاغ عن هذا الوجود «النصّ الحاضر»؛ فالبواعثُ الحتميّةُ قد تتعلّق مع الاحتمال الآني قبل وقوعه، ولكنّها متعلقةٌ بنتيجة مستقبليّة، فالقول المستقبلي (الذي صنفته ضمن القول والقول الشعري؛ فهناك الماضوي «منطقة الفلاش باك » وهناك الآني، وهناك المستقبلي وهناك منطقة القولة).

لا يمكننا نسف النصّ أو نفيه واستبداله بتحوّلات ثابتة، فهنا، نكون قد قضينا على الوعي النصّي، الذي ظهر عندما يكون الكاتب تحت الوعي كما يؤكّد على ذلك علماء النفس، فالنصّ لا يُكتب فقط، وإذا تعلّق بالكتابة فقط فهو قضيّةٌ يتقبّل النفي؛ وتعملُ الأبنية الدلاليّة على تحريك النصّ باتجاهات عديدة، ومنها اتجاهاتُ المعنى ضمن السياق النصّي، ونستطيع أن نكون في اتّجاهات دلاليّة عدّة من ناحية حركة النصّ، فالدلالةُ لا تستعمر المعنى فقط؛ فهي مفهومٌ نصّيٌّ تماسكيٌّ في المقام الأوّل.

العلاقة السياقيّة:

تظهرُ هذه الرابطة من خلال ملاحق الجمل في السياق النصّي؛ كون اللاحق منه متعلّقا بسابقه، أي أنّ الجملة تكون امتدادًا لجملة أخرى، وهي إحدى روابط التفعيل النصّي

عندما نقول التقويل الحجاجي. وتظهر العلاقة السياقية من منظورين، هما العلاقة والسياق، ويشكّلان قاعدةً بنائيّةً في النصّ الشعري، حيث أنّهما النسيج الاندماجي في النصّ المنظور ويوفّران السبك النصّي.

التتابع الزمني:

هي نفسها الروابط الزمنيّة التي تربط النصّ وتتبع زمنيّته من خلال الأفعال الحركيّة أو من خلال التقليليّة التي لها علاقة مع الزمن التقليلي، حيث يشكّل الزمن التقليلي تتابعًا دلاليًا يتميّز بالقوّة وقوّة القول أيضًا، وخصوصًا القول الآني الذي يتبع الزمنيّة الحاضرة؛ وتشكّل العلاقة بين الترابط الزمني والتقليلية علاقة تواصلية؛ وقد تكون علاقةً احتماليّةً بين الثبوت الزمني وبين فعله المستقبلي، فالنتائج الاحتمالية واردةٌ بهذه العلاقة.

الحتميّةُ وغير الحتميّة:

لا نؤمنُ إيمانًا مطلقًا بأنّ الصيغة الحتميّة موجودةٌ في صيغة الماضي، فزمن وقوع الفعل قد تمّ، إذن ننتظر نتائج النصّ في القولين، القول الآني قبيل الكتابة، وهو المستقبل القريب، والقول المستقبلي قبل الكتابة؛ أي أنّ زمن الكتابة مازال قيد البناء، وسوف يكون ضمن الحتمية الكتابية، إلا في حالة نفي النصّ ونسفه، فسوف تتمّ إزالة الزمن النصّي، وتغيير حتميّة وجوده نصًا مع الرغبة المفقودة؛ فالحتمية تنصت بشكلٍ موضوعيّ للوجود النصّي.

يكون للأفعال الحتمية بصيغتها الجمعية، وهي الصورة الظاهرة التي تترتّب عليها المتعلقات التداولية، أي أن تكون الملحقة من الجمل على علاقة حتميّة مع الجمل السابقة، وطالما نتكلمُ بخصوص القول الآني والقول المتقدّم، فإنّنا نجد أنّ للقول المتقدم حتميّةَ وجوده لا نسفه، وهي الحالة الفلسفية التي تربط الفعل القولي ارتباطًا محكمًا.

الممكنُ التأويلي:

إنّ إعادة صياغة المعنى من الممكن أن تكون ضمن سياق الجملة التي تكون كينونتها بين السابق واللاحق، ومن هنا، يكون للتأويل مساحةٌ وإن كانت مساحةً ليست بحجم مساحة النصّ، لأنّه في هذه الحالة سيكون محصورًا في مقاطعَ نصّيّة معيّنة، وهي الممكنات النصّية التي تكبر من خلال السياق المخالف، فللمختلف السياقي اتجاهان، الاتجاه القصدي المحمول من قبل الكاتب ومنظوره المتفاعل في النصّ، واتجاه النصّ القصدي المؤول؛ باعتبار أنّ النصّ بممكناته وعلاقاته الخارجية هناك بعض المعاني التي يحملها، التي رُسمت من خلال التصوّرات التي رسمها الكاتب — الشاعر.

نسق الحِجاج:

يعتمدُ النسق الحجاجي على منظورين وباتجاهين معينين، منظور البث الأوّل (للمؤلف) ومنظور المتلقي الذي يغرق في التأثيريّة، وللتأثيريّة اتجاهاتٌ إقناعيّة، فالمتلقي سيكون منسجمًا مع موضوع النسق المطروح من قبل البث الأوّل، وهي ليست عامةً بقدر ما تكون خصوصية الموقف، ومدى قدرة الأوّل على الإقناع، وعلى التأثير، طبعًا من خلال المحاججة، ولو أخذنا مثلًا الحِجاج أو المحاججة:

فسوف نكون ضمن مفاهيم الإقناع، فنقول مثلًا (رجل حجته قوية)، ولكن طالما أنّنا مع النصّ والنصّية الحديثة، فمحاججة النصّ ستكون أقوى، وذلك لما يحوي من علاقات (لنقل علاقات حجاجية)، ويستدعي في ذهن المتلقي ما يثبت صحّة الملفوظ؛ فالقول الذي يبثه المؤلف الأوّل يصبحُ مؤثّرًا، بل يصبحُ مأخوذًا كقول ثاني من خلال التأثيريّة أوّلًا، ومن خلال الإقناع ثانيًا (ما من شكّ في أنّ «الحِجاج» نشاطٌ يتضمّن أساليب عدّة، ولكنّ الذي يميّز هذه الأساليب عن خصائص الخطاب الأخرى هو بالضبط اندراجها ضمن هدف معقلن «Visée rationalisante» وأداؤها دور البرهنة الذي يتميّز بمنطق ما، وبقاعدة عدم التناقض. أمّا أساليب الأشكال الأخرى «من وصف وقص» فهي تندرجُ ضمن هدف وصفيّ وحكائيّ للمدركات الحسّية في العالَم وللأحداث الإنسانية «٤»).

يتفاعلُ المنظور الحجاجي مع علاقات، علاقة الآخر بموضوع المحاججة، وعلاقة الموضوع بالواضع، وعلاقة الفاعل الهدف؛ فالنمذجة الحِجاجية أو الواقع الصوري الذي يتحدّث عن القول بحضور؛ القول بحضور اللغة مثلًا، والقول بحضور المتلقي ومشاركته الحالة الإقناعية، وكذلك حضور المادة في كلا الحالتين، التأثير السلبي والتأثير الإيجابي، ولكن بما أنّنا نادرًا ما نلاحظ في النص الشعري التأثيرات السلبية، فإذًا سيكون التأثير الإيجابي محط الأنظار.

الصورةُ التأثيريّة:

وهي ضمنَ التفاعل الحِجاجي باعتبارها صورةً شعرية، وهي الفعل الكينوني في التأثيرية النصّية، وهي المبحث الأوّل الذي يبدأ بها المؤلف أسلوبًا مخالفًا للآخرين. وتعدّ الصورة دهشةً فوريّةً تجانس المتلقي وتصادر الصمت منه، أي أنّها المحرّك والحركة الإقناعيّة من خلال غرفة التأثير، ويكون للمفاجأة (الفجائية) حركة مصاحبة مع الصورة التأثيرية، وتجذب المتلقي العادي والنموذجي والقارئ الضمني، وفي عنق الكثيرين من المتلقين تقف الصورة التأثيرية بمفاهيم مختلفة ومشاكسة للغة، أو مختلفة المعاني التي تحتاج إلى دربة وتجربة للمفاهيم والتصوّرات التي ترافق الصورةَ التأثيريّة (الصورة الشعرية).

إنّ التصوير المؤثّر، هو ذلك الذي يفاجئ المتلقي بمواضيع غريبة الأطوار وبلغة غير عادية، حتى أنّها تخترق اللغة الشعرية المعتادة التي غالبًا ما ينظّم عليها بشكل عام شعراء النصّ الشعري، ولكن ليس الوقوف على الجانب الجمالي في الصورة فقط، وإنّما هناك التركيبة النصّية التي تدعو إلى الإستطيقا، التي تكوّن المشهد الفعّال والمغاير، ويصبح لدى المتلقي أسلوبًا متواصلًا وبصمةً غير مكرّرة، ونحن نادرًا ما نرى ذلك، وتعدّ من الأهمّية التأثيريّة والقناعيّة لدى المتلقي، حيث إنّ اقتناع الطرف الآخر لا يتمّ إلا من خلال المؤثرات التي توجد بقوّة في التأسيس النصّي أو عنونة النصّ، الذي يكون أيضًا على صيغة صورةٍ مستقلّةٍ تدخل إلى مخيّلة المرسَل إليه.

المراجع:

- منقول من كتاب في نظرية الأدب لشكري الماضي — ص ٧٢
- أنظر بخصوص التمييز بين الحجاج والبرهنة أعمال أزفالد ديكرو وجان بليز غريز وبرلمان وغيرهم...
- اللغة والحجاج — ص ١٥ — الدكتور أبو بكر العزاوي.
- الحجاج بين النظرية والأسلوب — ص ١٦ — باتريك شارودو* — ترجمة: د. أحمد الودرني
- باتريك شارودو: أستاذ في جامعة باريس ١٣ منذ العام ١٩٧٩، ومدير مركز تحليل الخطاب (CAD) فيها.
- شغل مناصب عدّة في هيئات علميّة وبحثيّة حول قضايا الخطاب داخل فرنسا وخارجها (إسبانيا- الرازيل والمكسيك).

الأدبُ العبري والانحرافُ عن مسار المشروع الصهيونيّ

د. نهلة راحيل
ناقدةٌ وأكاديميّةٌ ومترجمة/ مصر

تعدُ الأديبةُ ليئة جولدبرج من أشهر أديبات العبريّة، التي ترجع أصولُها إلى أوروبا الشرقيّة، وقد سافرت إلى ألمانيا في الفترة ما بين (١٩٣٠- ١٩٣٣) حيث درست الفلسفة وتخصّصت في فقه اللغات السامية المقارن في جامعتي برلين وبون. وبعد إتما م أطروحتها للدكتوراة عادت إلى لتوانيا ومكثت فيها عامًا واحدًا (١٩٣٣- ١٩٣٤) تعملُ مدرسةً للأدب في مدرسةٍ عبريّةٍ ريفيّة، ومنها هاجرت إلى فلسطين عا م (١٩٣٥). وقد أبدعت جولدبرج في مجالي الشعر وأدب الأطفال بشكلٍ خاص، وكان لها إسهاماتٌ واضحةٌ ومؤثّرةٌ في فنون النثر العبري بشكلٍ عا م، كالقصص القصيرة والروايات والمقالات، كما اهتمت اهتمامًا ملحوظًا بالفن التشكيلي. وبالإضافة إلى ذلك كله، فقد قامت جولدبرج بترجمة العديد من الإبداعات الأدبية العالميّة عن الروسيّة والإنجليزيّة والألمانيّة، وكان لها الفضلُ في تأسيس قسم الأدب المقارن بالجامعة العبريّة، الذي تولّت رئاسته من ١٩٦٢ وحتّى وفاتها.

الأديبةُ ليئة جولدبرج

وقد تأثّرت في أعمالها الأدبيّة بالرمزيّة الروسيّة والمذهب الإنساني، أمّا في أعمالها الفنيّة فقد تأثّرت بالحركات التعبيريّة والطلائعيّة التي سادت أوروبا في القرن التاسع عشر. وقد ابتعدت عن كتابة شعر «مجند» يعبّر عن أفكار المشروع الصهيوني، واهتمت بدلًا من ذلك بالموضوعات الإنسانيّة العالميّة التي تهمّ جميع البشر. وترجع خصوصيّتها الإبداعيّة التي ميزتها عن أقرانها آنذاك إلى قدرتها على التعبير عن قضايا الفرد الذاتيّة دون التورّط في أيّة اتّجاهات سياسيّة أو أيديولوجيّة، وهو ما رآه الكثيرون انحرافًا عن مسار المشروع الصهيوني بمعايير أدبيّاته المألوفة، وعدّوا مشروعها - كليًا - يتضمّنُ خطابًا استعلائيًا تستعرضُ فيه مهاراتها الأدبيّة وثقافتها العالميّة دون هدفٍ أسمى.

فقد تبنّت الكاتبة في أعمالها الخطاب ما بعد الاستعماري بما يحمله من رؤيةٍ كوزموبوليتاريّة تتيح لها الانفتاح على العالم كلّه والتعبير عن آلام أفراده بغض النظر عن انتماءاتهم، وهو ما خالف الرؤية المحليّة للخطاب الصهيوني التي انحصرت في التعبير عن واقع الاستيطان اليهودي بفلسطين، وقد انتقدت رؤية القوى الاستعماريّة للشعوب المستعمَرة، وخاصّةً شعوب أفريقيا وأسيا، فألقت الضوء على تجسيد الخطاب الأدبي الاستعماري للشعوب التي تقع عمومًا خارج المنظومة الغربيّة، الذي تركّز في وصف بلدانه بالسحر والغموض، وهو الخطاب الذي صاغ الوجود المتخيّل لشعوب الشرق في صورةٍ خادعةٍ وفانتازيّة إلى حدٍّ بعيد.

تندرج الرسائل الأدبيّة التي كتبتها ليئة جولدبرج - وهي بعنوان: « رسائل من رحلة متخيّلة » وصادرة من سفريت بوعاليم بتل أبيب عام ٢٠٠٧- تحت النوع الأدبي المعروف باسم «الرواية الرسائليّة»، وقد استلهمت فيها شكل «الرحلة» المتخيّلة ذات المرجع الواقعي/ الذاتي الذي يستقي دلالاته في الأساس من التخييل، وبذلك، يمكن الحديث هنا عن بنيّةٍ نصيّةٍ تتفاعل داخلها الرحلة بوصفها عنصرًا مجاورًا للعناصر الأخرى في البنية الحكائيّة.

وتتكوّن الرواية من مجموعة رسائل افتراضية تُرسلها بطلتها «روت» (الشخصية القناع التي تخفت ورائها ليئة) إلى حبيبها «عمانوئيل» أو «إيل» كما تدلّله، بعد الافتراق عنه، وذلك أثناء رحلة ذهنيّةٍ متخيّلةٍ تقوم بها روت من غرفتها إلى دُول أوروبا الشرقية والغربية. فرغم وجود الشخصيّة داخل فضاءٍ جغرافيّ واقعيّ محدّد، فإنّها تتنقل منه- على مستوى التخييل- إلى أماكن وأزمنة أخرى في مدنٍ أوروبيّةٍ عديدة. وقد جاءت الرواية في ستّ عشرة رسالة، إضافةً إلى رسالتين أخيرتين لم تضمهما الكاتبة إلى الرواية في طبعتها الأولى الأصلية الصادرة عام ١٩٣٧، وألحقتا بالرواية فقط في طبعتها الثانية المنقحة الصادرة في عام ٢٠٠٧، وقد حملت الرسالتان عنوان «فصول مطمورة».

تستهل ليئة جولدبرج رسائلها بما أطلقت عليه «رسالة حقيقيّة عن رحلة متخيّلة»، وبها تتوجه إلى القارئ وتوضح له ماهية تلك الرسائل التي يوشك على قراءتها، وكأنها تُعدّ القارئ منذ البداية إلى رحلة يتنقل فيها بين العديد من البنى السردية التي تطمس داخلها الحدود بين الواقع والخيال، وبين الماضي والحاضر، وبين عالم الذات الكاتبة وعالم البطلة. ويمكن القول: إن جولدبرج قد أرادت في مقدمة الرسائل أن توضح للقارئ أمرين؛ أولهما: أنّ الرسائل، بشخوصها وأحداثها ورحلتها، قصّةٌ خياليّةٌ محكمةٌ للغاية، رغم الخيوط الذاتية التي تجمعها ببطلتها «روت». والثاني: أنّ الرسائل ستكون واضحةً تمامًا، ولكن وضوحها مرهونٌ في النهاية باستعداد القارئ نفسه للتنقّل بين المستويات الحكائيّة المختلفة (الخياليّة والواقعيّة) بالرواية دون إكراهاتٍ مسبقة.

وقد تعرّضت «رسائل من رحلة متخيّلة» لسلسلة من الانتقادات الحادة وردود الأفعال الفاترة فور صدورها؛ حيثً لم يكن المناخ الأدبي والأيديولوجي، الذي ساد الأدب العبري بفلسطين آنذاك، مهيّأً لاستقبال رواية جولدبرج التي تبنّت فيها الخيار الثقافي الأوروبي بديلًا عن الخيار العبري، حتى اعتبرها النقّاد انحرافًا عن مسار المشروع الصهيوني وابتعادًا عن تجسيد قيم الواقعية الاجتماعية السائدة في تلك الفترة، حيث بالغت جولدبرج - في رأيهم- في انسياقها وراء المتعة الفنيّة المجردة، وابتعدت كثيرًا عن حياة اليهود، فعلى صفحات هذا الكتاب تتحدّث أوروبا وثقافتها، وليس عن أبناء شعبها. ورغم ذلك، فقد أثنى آخرون على حداثة العمل من حيث التجديد الشكلي، والتنوّع الأسلوبي بين الغنائيّة الرقيقة والسخرية اللاذعة، وتعدّد الروافد الشعريّة والثقافيّة به، وهي سماتٌ حداثيّةٌ ميّزت الرواية.

وتكمن حداثة النص لدى ليئة جولدبرج في انفتاح خطابها على فنون مختلفة، وبالأخص المسرح، واستعارة بعض مكوناته لإثراء المتخيل السردي، حيث استطاعت تجريب تقنيات حداثيّة في قالبٍ كلاسيكيّ مألوف، هو رواية الرسائل، من خلال توظيف التغريب أو كسر الإيهام الذي ينقل القارئ بين زمكانين: متخيل/ الإيهام، وواقعي/ كسر الإيهام. كما استخدمت الكاتبة تقنيات ما بعد الحداثة، كالميتاسرد، مما يؤكد اختلافها عن معاصريها من أدباء العبرية ونزوعها الدائم إلى التجريب شكلًا ومضمونًا؛ حيث تظهر الكاتبة في الرسالة الختامية فتقطع السرد وتكسر الحاجز بين الواقع والخيال، عن طريق إخبار القارئ بأنّ ما حكته سلفًا مجرّد رسائل متخيّلة وأنّها إلى الآن لا تعرف مصير بطلتها «روت». ولذلك، كان عنصر الرحلة المتخيّلة، أو الذهنيّة - النفسيّة كما دعتها جولدبرج، هو المحرّك السردي الرئيس بالرسائل، فكانت رحلة روت معادلًا موضوعيًا لرحلة ليئة الواقعية أثناء هجرتها إلى فلسطين عام ١٩٣٥، باستثناء بعض الفروق الطفيفة بين الرحلتين؛ حيث اتجهت «روت» من برلين مباشرةً إلى فلسطين، بينما مرّت هجرة ليئة بالمحطات التالية: برلين، ومنها إلى ليتوانيا، ثم فلسطين.

وهنا يتبادر إلى الذهن تردد روت/ ليئة في تبني اختيار الهجرة إلى فلسطين ونظرتها للخيار الصهيوني بوصفه «مخلوقًا غريبًا» يلحّ على دفعها كرهًا إلى الهجرة باعتباره واجبًا «قوميًا»، رغم ارتباطها النفسي الشديد بجذورها الأوروبيّة، بميراثها الفكري وملامحها المكانية. نلمس ذلك التردد في النهايتين المختلفتين للرحلة؛ حيث انتهت رحلة «روت» في الرسائل التي نشرتها جولدبرج في طبعتها الأولى عام ١٩٣٧ على شواطئ مارسيليا دون الوصول إلى فلسطين، بينما جاءت النهاية الأصلية للرواية بانتهاء الرحلة على شواطئ تل أبيب ووصول «روت» إلى فلسطين، في رسالة أخيرة اختارت الكاتبة عدم إلحاقها بالرسائل في طبعتها المنشورة آنذاك، وقد تمّ العثور عليها مع رسالة أخرى وضمّهما معًا إلى الرواية في طبعتها المنقّحة الصادرة عام ٢٠٠٧. ما يوضّح للقارئ عدم قدرة الكاتبة على التأقلم مع الواقع المعيش في فلسطين وعدم نجاحها في الانفصال عن الموروث الأوروبي الذي اختارت الانتماء إلى ثقافته بعد مرور نحو عامين على هجرتها إلى فلسطين واستقرارها في تل أبيب.

غزّةُ حاضرةٌ...

ولكن المسؤوليّة تقع على الكلّ

بقلم: طلال عوكل
كاتب ومحلل سياسي / فلسطين

لا تكاد تنتهي جولةٌ من المواجهة بين المقاومة في قطاع غزة، حتى تبدأ التساؤلات تُطرح حول موعد المواجهة القادمة، فالضفةُ والقدسُ تشهدان مواجهاتٍ يوميّةً مع الاحتلال الصهيوني العنصري الفاشي، وفي كلّ يوم تقدّم قوات الاحتلال سببًا لتوسيع دائرة المواجهة مع الشعب الفلسطيني، بما في ذلك مقاومة غزة. السؤال هنا: هل يمكن ويكفي التعويل على مقاومة غزة، لردع المخطّطات الصهيونيّة، بالقدر الذي يستدعيها لتصعيد دورها في المواجهة كلّ الوقت؟

بعد الجولة الأخيرة التي وقعت بين سرايا القدس في مقدّمة فصائل الغرفة المشتركة الموحّدة، التي أفشلت أهداف العدوّ الصهيوني، رغم ألم خسارة قادة وأطفال ونساء ومدنيين، بعد هذه الجولة، أقامت إسرائيل رسميًا، مسيرة أعلام استفزازيّة في القدس، لمناسبة يوم احتلالها، في محاولة فاشلة أخرى، لإعلان سيطرة الاحتلال وسيادته على المدينة المقدّسة. إسرائيل رفعت سقف الخطاب الانتصاري كثيرًا، وكذلك فصائل المقاومة في غزّة رفعت عاليًا سقف التوقّعات، حتى اعتقد الكثيرون أنّها ستبادر إلى إفشال المسيرة، من خلال إطلاق الصواريخ.

في الواقع كثيرٌ من الإسرائيليين، عبّروا عن سخريتهم من خطاب الائتلاف الحكومي الإسرائيلي؛ لأنّ خطاب العنجهيّة والانتصاريّة، يفضحه الإجراءات الاستثنائيّة التي اتّخذتها الحكومة، وتعكس حالة الخوف، والارتباك، ولو أنّ إسرائيل تسيطرُ فعلًا على القدس، لما أوجب ذلك، إعلان الاستنفار وحشد آلاف قوات القمع لحمايتها.

إذن، فهو خطابٌ آخرُ يفشل في تبرير ضعف حكومة الاحتلال، وعجزها عن استعادة الردع، أو حماية جبهتها الداخلية، وفي المقابل لا يمكنُ الارتكان كلّ الوقت على تدخّل مقاومة غزة، للردّ على سياسات الاحتلال الوحشيّة في الضفّة والقدس، أو أن تقتصر المواجهة في الضفة على المجموعات المسلّحة الفلسطينيّة.

الملاحظة هنا، هي ضعف الحشد الشعبي في الضفة، خلال مسيرة الأعلام، وهذه مسؤوليّة الكل، وعلى رأس الكلّ حركة فتح والسلطة الفلسطينيّة.

عَهداً علَى الأيامِ أن لا تُهزَمُوا

فَالنَّصرُ يَنبُتُ حيثُ يَروِيهِ الدَّمُ

الهدف AL-HADAF

خمسُ شهاداتٍ بعيون الموت

مروان عبد العال
روائيٌ وكاتبٌ وعضو المكتب السياسيّ للجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين / لبنان

خمسةُ أكتافٍ صلبةٍ حملت ما تيسّر لها من البنادق من أدوات الحرب المتاحة؛ لتطلق فينا عنان الحوار، الذي نفض غبار العجز والهزيمة، واكتفى بمعانقة النصر بلغة الصمت والعزيمة. هكذا كانوا كما ردّد غسان كنفاني: "خُلقت أكتاف الرجال لحملِ البنادق، فإمَّا عُظماء فوق الأرضِ أو عظامًا في جوفها".

خمسةُ فتيةٍ من فرسان "ثأر الاحرار" واجهوا الموت بابتسامة، أرادوا بالموت أن يصنع معنى الحياة، وأية حياةٍ هي، إنّها الحياةُ الحرّة؛ فاحتضنتهم رمالُ غزّة الدافئة بعمر الورد، ولكنهم حملوا الأيام ولم تحملهم هي؛ جسومُهم مثقلةٌ بالهمّ والفقر والمعاناة والحصار داخل بحرٍ متلاطم الأمواج، لكن أصلهم ظلّ ثابتًا في الأرض.

خمسة غزة، أبطالٌ بعدد أصابع الكف، فتيّة من أبناء العنقاء، نماذجُ حيّةٌ لا تغيب، يصح التماهي بها والاستنارة بهديها؛ ذهبوا لكي يعثروا على أرواحهم بعيدًا عن هذا العالم، لم يخافوا طائرات الاحتلال؛ لأنّ العالم كلّه بات محتلًا بالخديعة، يشنُّ حربًا همجيّةً على الفكرة النبيلة. لكنّها هنا في هذه المنطقة المعزولة عن العالم؛ غزّة تتحوّل بذاتها إلى فكرةٍ لا تموت، إنّما تتوالد، ترتقي وتتقدّم، ليس إلى قيمٍ مجرّدة، أو صورٍ صامتة، أو حكاياتٍ خياليّة، أو نصوصٍ شعريّة، أو حتى أغانٍ ثوريّة.

خمسة رفاقٍ مثلنا، أبناء صرخة الحرب، وما همّ أنّ نموت ويثبتون أنها مدرسة العنفوان الثوري والقيم الملموسة والكرامة المعاشة، وأنها مقاومةٌ من لحمٍ ودمٍ وحلم، واضحة كالحقيقة، ودون مفاهيمَ مبهمةٍ غامضة، وبتفسيراتٍ انهزاميّةٍ ونظريّاتٍ غير واقعيّة، مقاومتهم بكلّ قناعةٍ وتصميمٍ ووعي وإرادة وعزم؛ في حوارٍ افتراضيٍّ عابر للموت..

قال لنا محمد أبو طعمية: ما أبعد السفر، وأنا ابن ملح الأرض، صدقت القول بالفعل ومللت الوقوف في محطة الانتظار، يوم غاصت أصابعي في وحل الأرض لتعثر على نبتة خضراء، وذابت أطرافي فيها عشقًا للأرض، لا تلمني يا أبي إن استعجلت الرحيل، أنا مثلك قرّرت أن أمتشق قلبي، وأكتب على مسامات جسدي درسًا من فلسفة التضحية، حكمة تشبه فقه الخلود.

أجابه علاء أبو طعمية: يا رفيق، الموت لا يكون إذا كنا، نحن نقدم روحنا كي نستحق الحياة، وإذا كان الموت هو الحياة بعينها ولم نكن جديرين بها، فإنّنا لا نكون. ليس لدينا إلا أن نؤرّخ حروفها بحبر العناق، لنطلقها رشقاتٍ تضيء السماء، وإلا سيقال أنّنا خذلنا صاحبنا، ونحن لا نخلع أبناء الدم كي ينزف وحيدًا ليذوي في الخيبة أو الفراغ.

ويكمل الشهيد أيمن صيدم: قذفنا الروح فينا ومنا لك أنت، كي تحيا أنت والشيء الجميل، وأنّنا قدّمنا النفس كي تحيا، وعد البطولة بأن لا تغادر الدرب، هي كلفة خلاصك يا رفيق وليس خلاصي؛ لأنّني إنْ لم أكن لغيري فمن أكون.. قضيّةٌ أنا في ذاتي، ولست لذاتي أبدًا.

ثمّ قال لنا الشهيد علم عبد العزيز: أن تذهب بعيدًا إلى آخر حدٍّ عند مكانٍ اسمه وطنك، مكان يسكنك، لكنك تشعرُ أنّ مهمتك ليس فقط أن تدافع عنه، بل أن تدفع عنك الخوف الذي يغطي روحك، حين تفكر بفكرة الحياة من حولك وفكرة الإنسان الذي يقتل كل يوم.. فتقرر أنّك في هذه اللحظة تموتُ لأنّك حرّ.

قال الشهيد عدي اللوح: اعذرني يا أبتاه لأنّك قدوتي، مذ أرشدتني إلى الطريق، لكني وصلت قبلك؛ ستظل رفيقي سواء كنت أنا الشهيد السابق أو اللاحق، علمتني أن الإنسان لا يستطيع أن يبدأ من الصفر، بل لا بدَّ من الإفادة ممن سبق وعاش تجاربَ نضاليّةً في القلاع والسجون والمخيّمات، يتوسّم فيه طموحه، ويلبّي حاجاته ومن ثمّة ينطلق، لذا سبقتك يا أبتاه، لأكون لك نبيّ الحلم الجميل على اتساع الروح وحدود جغرافيا القلب وفلسطين التي فيك.

خمس شهادات أقوى من الغياب؛ لأنها رفعتنا إلى أعلى الدرجات ومنحتنا درسًا ثمينًا في معنى الحياة، وأن نكون.

AL-HADAF الهدف